النص الكامل

أغاثا كريستي

اجاثا كريستي & كتاب رواية

مَوتٌ وَسْطَ الغُيُوم

مكتبة الرمحي أحمد











مَوتٌ وَسَطَ الغُيُوم


بسم الله الرحمن الرحيم



مَوتٌ وَسَطَ الغُيُوم

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٥

ترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

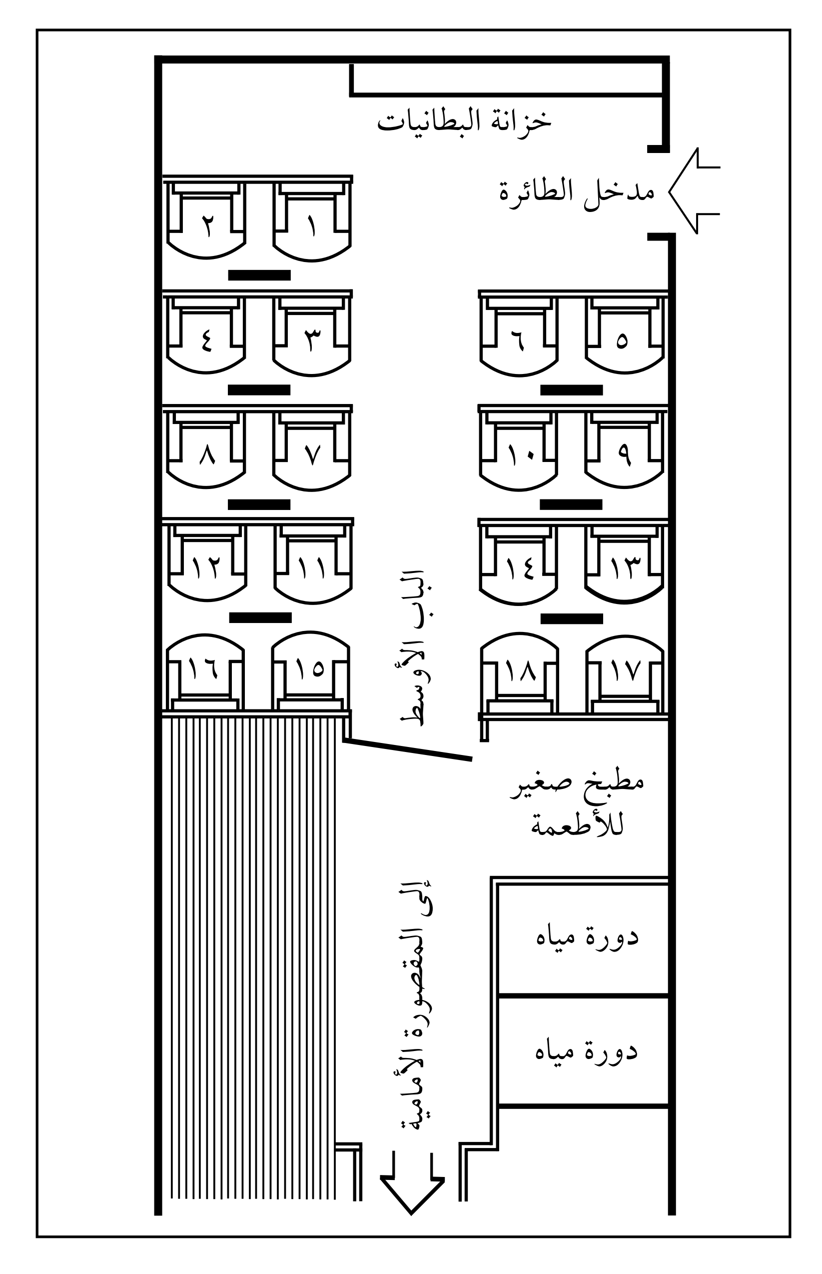
تحرير: رمزي رامز حسّون





تضم هذه الترجمة النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٥ بعنوان

Death in the Clouds



مخطط المقصورة الخلفية للطائرة «بروميثيوس»

الفصل الأول
من باريس إلى كرويدون

سطعت شمس أيلول بحرارتها على مطار لوبورجيه بينما عبر المسافرون أرضه وارتقوا سلّم الطائرة «بروميثيوس» التي يُتوقَّع إقلاعها إلى كرويدون في غضون دقائق قليلة. وكانت جين غري من بين آخر الداخلين إلى الطائرة، وقد توجهت للجلوس في مقعدها الذي يحمل رقم ١٦، في حين عَبَرَ بعضُ المسافرين بابَ الطائرة الأوسط مروراً بالمطبخ الصغير ودورتَي المياه متجهين إلى القسم الأمامي من الطائرة. وجلس معظم الناس في مقاعدهم، بينما ارتفعت من الجهة المقابلة من الممر أصواتُ ثرثرةٍ صاخبة غلَبَ عليها صوتُ امرأةٍ حادٌّ وعالي النبرة.

عندئذ لوت جين شفتيها باستخفاف؛ فقد عرفت هذا الصوت المميّز تماماً وهو يقول: عزيزتي! يا لها من مصادفة خارقة... لا أعرف... تقولين أين؟ لوبينيه... نعم، الجمع القديم ذاته... ولكن **بالطبع** هيا نجلس معاً. آه، ألا نستطيع؟ مَن؟... آه، نعم.

ثم سُمع صوت رجل يقول بلهجة أجنبية مهذبة: بكل سرور يا سيدتي.

اختلست جين نظرة بطرف عينها، فرأت رجلاً ضئيل الحجم

متقدماً في السن ذا شاربين عظيمين وله رأس بشكل البيضة، وهو يتحرك بنفسه وأمتعته من المقعد المناظر لمقعدها على الطرف الآخر من الممر. ثم أدارت رأسها قليلاً فرأت المرأتين اللتين تسبب لقاؤهما غير المتوقَّع في قيام الرجل الأجنبي بهذا التصرف اللبق. وقد أثار فضولَها ذكرُ لوبينيه، إذ إنها هي نفسها كانت هناك.

تذكرت إحدى المرأتين بوضوح، وتذكرت كيف رأتها آخر مرة جالسةً إلى طاولة القمار ويداها الدقيقتان تنقبضان وتنبسطان ووجهها الرقيق المزيَّن بنعومة يتورّد تارة ويشحب أخرى. وفكرت جين أن بوسعها تذكّر اسم هذه السيدة لو فكرت قليلاً؛ فقد ذكرته أمامها صديقتها ميسي التي تعمل «مدلِّكةَ مساج» من الدرجة الأولى، وذلك حين تحدثت عنها قائلة بنبرة ظهر فيها الاحتقار الشديد: إنها زوجة أحد النبلاء، لكنها ليست من أصول أرستقراطية. لقد كانت فتاةَ جوقةٍ أو شيئاً من هذا القبيل.

وبشكل عابر فكّرت جين: "المرأة الأخرى هي الأرستقراطية الحقيقية التي تنتمي إلى عالم الإقطاع الحقيقي". ثم لم تلبث أن نسيت المرأتين كلتيهما وتشاغلت بالنظر من نافذة الطائرة إلى ما يمكنها رؤيته من منظر مطار لوبورجيه، حيث وقفت مجموعة من الآليات المتنوعة وقد بدت إحداها مثل دودة معدنية عملاقة متعددة الأرجل.

الموضع الوحيد الذي أبت أن تنظر إليه بعناد كان ذلك المواجه لها، حيث جلس على المقعد المقابل لمقعدها شابٌّ يرتدي سترة زرقاء لامعة؛ فقد صممت على عدم النظر فوق مستوى السترة، إذ لو فعلت لالتقت عيناها بعينيه، وهو الأمر الذي أرادت تجنبه.

صاح الميكانيكيون بالفرنسية فهدر المحرك، ثم هدأ ليعود

فيهدر من جديد، وأخيراً أُزيحت العوائق وتحركت الطائرة. وحبست جين أنفاسها؛ فقد كانت تلك رحلتَها الثانية بالطائرة فقط، ولذلك فإنها ما تزال معرضة للإحساس بالإثارة. وها هي الطائرة ترتفع محلّقة بقوة مخلّفةً مطار لوبورجيه في الأسفل.

لقد بدأت رحلة الظهيرة إلى كرويدون وفيها واحدٌ وعشرون مسافراً، جلس عشرة منهم في المقصورة الأمامية من الطائرة والباقون في المقصورة الخلفية، بالإضافة إلى طيارَين ومضيفَين. ونجح الطيار في تخفيض ضوضاء المحركات بمهارة فلم يَحْتَج الركاب إلى وضع سدادات القطن في الآذان، إلا أن ما بقي من الضجيج كان كافياً لصرف المسافرين عن المحادثة وتشجيعهم على التفكير.

وفيما هدرت الطائرة فوق فرنسا في طريقها إلى القنال الإنكليزي سبح الركابُ في القسم الخلفي من الطائرة في أفكارهم. وفكرت جين غري: لن أنظر إليه. نعم، لن أنظر، من الأفضل لي أن لا أفعل. سوف أستمر بالنظر من النافذة وبالتفكير، وسوف أختار أمراً محدداً لأفكر فيه؛ فهذه هي الطريقة المُثلى دائماً وهي ستحافظ على عقلي هادئاً مستقراً. سأبدأ من بداية هذا الأمر وأستعرضه بتفصيلاته جميعاً.

عادت بذهنها -بتصميم- إلى ما سمّته «البداية»، حين اشترت تذكرة اليانصيب الإيرلندي. لقد كان ذلك تبذيراً بالفعل، لكنه كان تبذيراً مثيراً. وتذكرت ما تلا ذلك من ثرثرة وضحك في محل تصفيف الشعر الذي تعمل فيه وخمسَ شابات أخريات، والحديث الذي دار آنذاك:

- ماذا ستفعلين إذا فزتِ بالجائزة يا عزيزتي؟

- إنني أعرف ما الذي سوف أفعله.

وضعت خططاً وبنت قصوراً في الهواء، وكان لديها الكثير من الأحلام والأوهام. حسناً، إنها لم تفز بالجائزة، الجائزة الكبرى، لكنها ربحت مئة من الجنيهات.

- مئة جنيه!

- أنفقي نصف المبلغ -يا عزيزتي- وادّخري النصف الباقي لوقت الحاجة، فالمرء لا يعرف ما يمكن أن يحدث.

- لو كنت مكانك لاشتريت معطف فراء، معطفاً من أفخر الأنواع.

- ما رأيك في رحلة استجمام بحرية؟

ترددت جين أمام فكرة الرحلة البحرية، لكنها بقيت -في النهاية- مخلصة لفكرتها الأولى: قضاء أسبوع في لوبينيه.

كثير من زبوناتها كنّ يذهبن إلى لوبينيه ويعدن من لوبينيه، وها هي الآن تتذكر كم من المرّات راحت أصابعها تصفّف خصلات الشعر أمامها في حين كان لسانها يردد العبارات الآلية المعهودة: لقد مرّ زمن طويل على آخر عَقْص لشعرك يا سيدتي... ما هو الشكل الذي تحبين أن أصفف به شعرك؟... وقد كانت تتساءل دوماً مع نفسها: لماذا لا أستطيع أنا أن أذهب إلى لوبينيه؟

حسناً، ها هي تستطيع ذلك الآن. لم تكن الملابس مشكلة كبيرة لها؛ فهي كمعظم فتيات لندن العاملات في الأماكن الغالية يمكنها أن تحصل على ملابس مدهشة في تناسبها مع الموضة بأسعار زهيدة لا تصدق.

وهكذا ذهبت جين إلى لوبينيه. لكن هل يمكن لعشرة أيام قضتها في لوبينيه أن تتضاءل الآن في ذاكرتها لتصبح حادثاً واحداً جرى لها؟

وقع ذلك الحادث على طاولة الروليت، إذ كانت جين قد سمحت لنفسها بصرف مبلغ ضئيل في كل ليلة على القمار دون أن تسمح لنفسها بتجاوزه. وقد كان حظها -وهي المبتدئة في هذه الأمور- سيئاً بخلاف ما تدّعيه الخرافات السائدة. كان ذلك في الليلة الرابعة وفي الرهان الأخير لتلك الليلة؛ كانت قد راهنت حتى ذلك الحين بحذر على الألوان أو الأرقام، وكانت تربح القليل وتخسر الكثير. أما الآن فقد انتظرت ورهانها بيدها.

كان هناك رقمان لم يراهن عليهما أحد: الخمسة والستة، فهل تضع رهانها الأخير على أحد هذين الرقمين؟ وعلى أي منهما: الخمسة أم الستة؟ أيهما تظنه الأفضل؟ نعم، خمسة، الرقم خمسة سيربح. لا، بل الستة هو الرقم الرابح.

وضعت رهانها على الرقم ستة، وفي ذلك الوقت نفسه راهن لاعب آخر يقف مقابلها بسرعة على الرقم خمسة. قال مدير اللعبة: لا تضعوا شيئاً آخر.

تدحرجت الكرة ثم استقرت.

- الرقم خمسة، الأحمر فردي، يربح.

كادت جين تبكي من الغيظ، ولَمّ مدير اللعبة الرهانات عن الطاولة ودفع الأرباح. قال الرجل الواقف مقابلها: ألن تأخذي أرباحك؟

- أرباحي؟

- نعم.

- ولكنني راهنت على الرقم ستة.

- لا، ليس الأمر كذلك. لقد راهنت أنا على ستة وراهنت أنت على خمسة.

وابتسم ابتسامة آسرة فظهرت أسنانه البيضاء على وجهه الأسمر ذي العينين الزرقاوين والشعر القصير الأجعد.

جمعت جين أرباحها غيرَ مصدِّقة لما يحدث. هل كان ذلك صحيحاً؟ شعرت هي نفسها بالتشوّش. ربما كانت قد راهنت فعلاً على الرقم خمسة! ونظرت ثانية إلى ذلك الغريب ببعض الريبة، فأجابها بابتسامة مريحة ثم قال: هذا حقك، وإذا تركتِ شيئاً فسيأتي مَن لا حَقّ له ليأخذه. إنها سنّة قديمة.

ثم أومأ برأسه محيّياً بلطف وغادر المكان. وقد كانت تلك أيضاً لفتة كريمة منه، فلو لم يفعلها لانتابها الشك بأنه سمح لها بأخذ أرباحه بقصد مصاحبتها. ولكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال؛ لقد كان لطيفاً فقط. وها هو يجلس الآن قُبالتها.

لقد انتهى كل شيء: صُرِفَت النقود، وأمضت جين آخر يومين لها في باريس (وكانا يومين مخيِّبَين للآمال) وها هي الآن في طريق عودتها إلى الوطن. وماذا بعد؟ خاطبت جين عقلها: توّقفْ وكفاك تفكيراً بما سيحدث بعد الآن، فلن يؤدي ذلك إلاّ إلى إزعاجك.

كانت المرأتان قد توقفتا عن الحديث. ونظرت عبر الممر الوسَطي للمقصورة حيث كانت المرأة ذات الوجه الرقيق المنمَّق تعبّر عن انزعاجها بأسلوب نكد وهي تتفحص ظفراً مكسوراً، ثم ضغطت الجرس، وعندما جاء المُضيف بردائه البيضاء قالت له:

ابعث لي بخادمتي، إنها في المقصورة الأخرى.

- حاضر يا سيدتي.

واختفى المضيف المهذّب القدير بسرعة لتظهر فتاة فرنسية ذات شعر أسود وملابس سوداء تحمل صندوقَ حليّ صغيراً. تحدثت معها السيدة هوربوري بالفرنسية قائلة: مادلين، أريد حقيبتي المغربية الحمراء.

عبَرت الخادمةُ الممرَّ الوسطي إلى نهاية المقصورة حيث تكومت بعض البطانيات والحقائب، ثم عادت حامِلةً حقيبة يدوية صغيرة حمراء، فأخذتها الليدي سيسيلي هوربوري وصرفت الخادمة قائلة: حسناً، سأحتفظ بالحقيبة هنا.

ذهبت الخادمة، وفتحت الليدي هوربوري الحقيبة فأخرجت منها مبرد أظافر، ثم نظرت طويلاً وباهتمام إلى وجهها في مرآة صغيرة وتلمسته هنا وهناك وهي تضيف بعض المساحيق وقليلاً من أحمر الشفاه.

لوت جين شفتيها بازدراء، ثم تحولت بنظرها إلى بقية الركاب. جلس خلف المرأتين ذلك الرجل الأجنبي الضئيل الذي أخلى مكانه للمرأة، وبدأ بنومه سريعاً وقد تلفلف بأغطية كثيرة لا ضرورة لها، ولكنه فتح عينيه وكأنه قد انزعج من نظرة جين الفاحصة، فنظر إليها برهة ثم عاد فأغمض عينيه من جديد.

وإلى جانبه جلس رجل طويل أشيب الشعر ذو وجه واثق وَقور، وقد فتح أمامه حقيبة خاصة بآلة الفلوت الموسيقية وأخذ يلمّع الآلة بكثير من العاطفة. وبدا ذلك مضحكاً لجين، فلم يكن شكل الرجل مما يوحي بأنه موسيقي، بل كان أقرب إلى أن يكون

محامياً أو طبيباً. وخلف هذين الاثنين جلس رجلان فرنسيان، أحدهما ذو لحية والآخر أصغر منه بكثير، وربما كان ابنه. كانا يتحدثان ويلوّحان بيديها ورأسيهما بأسلوب منفعل.

أما في جهتها هي من المقصورة فقد كان يحجب نظرَها ذلك الرجل ذو السترة الزرقاء الذي صممت -لسبب سخيف- أن لا تنظر إليه. خاطبت جين نفسها باشمئزاز: من السخيف أن أشعر بكل هذا الـ... هذا الانفعال، وكأنني لم أزل في السابعة عشرة!

مقابلها جلس نورمان غيل يفكر: إنها جميلة، جميلة حقاً. إنها تذكُرني تماماً بلا شك. لقد بدت عليها خيبة أمل حزينة عندما خسرت رهانها، وقد كنت مستعداً للتخلي عمّا هو أكثر بكثير من ذلك المبلغ لأرى ملامح السعادة تعود إلى وجهها بعدما ربحَت. لقد أحسنتُ صنعاً بذلك. إنها ساحرة جداً عندما تبتسم، بثغرها الوضّاح وأسنانها البيضاء. آه، لقد أعجبتني تماماً. تمالك نفسَك أيها الفتى!

ثم قال للمضيف الذي كان يحوم بجانبه حاملاً قائمة الطعام والشراب: أريد شراباً بارداً لو سمحت.

أما الليدي هوربوري فقد فكّرت: يا إلهي! ماذا أفعل؟ إنني في حيرة من أمري، حيرة قاتلة. لا أرى إلاّ مخرجاً واحداً من هذا الأمر لو كنت أجرؤ عليه. هل أستطيع ذلك؟ هل أستطيع الخروج بالحيلة من هذا المأزق؟ أعصابي محطمة، وكل ذلك بسبب الكوكائين. لماذا أدمنتُ تلك الآفة؟ وجهي يبدو فظيعاً، فظيعاً تماماً، ووجود تلك الخبيثة فينيشيا كير هنا يزيده فظاعة. إنها تنظر إليّ كأنني كومة قمامة! لقد أرادت الظّفَر بستيفن لنفسها. حسناً، إنها لم تَفُز به! إن هذا الوجه الطويل يثير أعصابي، تماماً كوجه الحصان. كم أكره

هؤلاء النسوة الريفيات! يا إلهي، ماذا أفعل؟ يجب أن أحزم أمري، فتلك الخبيثة تعني ما قالته...

ثم بحثت بارتباك في حقيبة زينتها عن علبة الدخان، وأدخلت سيجارة في مَبسِم طويل ويداها ترتجفان قليلاً.

في نفس الوقت كانت صاحبة الفخامة فينيشيا كير تفكر: إنها امرأة لعينة. نعم، هذه هي صفتها بالضبط. يا لستيفن المسكين! لو أمكنه فقط أن يتخلص منها!

ثم بحثَتْ بدورها عن علبة سجائرها، وقَبِلت علبة ثقاب من سيسيلي هوربوري. لكن المضيف جاء وقال: اعذراني أيتها السيدتان، التدخين ممنوع.

هتفت سيسيلي هوربوري: تباً!

ولكن لماذا هذا القلق من أمر ما؟ لماذا تصرّ على عدم النظر إلى ذلك الشاب الوسيم الجالس أمامها؟ إنها واعية تماماً لوجوده أمامها، وهو أيضاً واعٍ لوجودها.

أما السيد هيركيول بوارو فقد فكر: إنها حسناء تلك الفتاة التي تجلس هناك، وذقنها ذاك ينم عن الكثير من التصميم. ثم اهتزّت الطائرة قليلاً فهتف بوارو مع نفسه: معدتي! ثم عاد ليغمض عينيه بإصرار.

بجانبه فكر الدكتور برايانت وهو يربت على آلة الفلوت بيدين عصبيتين: إنني لا أستطيع اتخاذ قرار... هذه نقطة تحول في حياتي المِهَنيّة.

ثم أخرج آلته من حقيبتها بعصبية واحتضنها بحب. الموسيقى...

إنها تجعلك تهرب من كل همومك! رفع الآلة إلى شفتيه وهو يبتسم ثم أعادها ثانية. أما الرجل الضئيل ذو الشارب الضخم بجانبه فقد نام بسرعة، فقد مرت عليه لحظات -عندما اهتزت الطائرة قليلاً- شعر فيها بالحسد تجاه جاره برايانت الذي كان سعيداً لأنه لا يعاني من الدوار في القطار أو البحر أو الجو.

التفت السيد دوبون الأب بانفعال وصاح بالسيد دوبون الابن الذي جلس إلى جانبه: لا شك في ذلك على الإطلاق؛ إنهم جميعاً مخطئون... الألمان والأمريكيون والإنكليز! إن التاريخ الذي وضعوه للأواني الخزفية الأثرية خاطئ تماماً. خذ مثلاً الخزف السامرائي.

أجاب جان دوبون الطويل الأشقر ذو الهدوء الزائف: ينبغي لك أن تأخذ القرائن من كل المصادر، فهناك مثلاً تل حلاّف وغيره من الأماكن...

وامتد حوارهما، ففتح آرمون دوبون حقيبة صغيرة بالية وقال: انظر إلى هذه المزامير الكردية التي يصنعها الأكراد اليوم، إن النقوش عليها تشبه تماماً تلك النقوش التي نراها على الأواني الخزفية التي يعود تاريخها إلى خمسة آلاف عام قبل الميلاد.

وكاد بحركة يده البليغة أن يوقع الطبق الذي كان المضيف يضعه أمامه.

نهض السيد كلانسي، كاتب القصص البوليسية، عن مقعده خلف نورمان غيل وسار حتى نهاية المقصورة. أخرج من جيب معطفه كتاب «برادشو» وعاد به ليبتكر دليل غياب عن مكان الجريمة يضيفه إلى الرواية التي يقوم بتأليفها.

السيد رايدر الذي كان يجلس خلف كلانسي كان يفكر هو

الآخر: ينبغي أن أقوم بدوري رغم الصعوبات، ولكن هذا لن يكون سهلاً. لا أدري كيف سأجمع المال اللازم لتوزيع الحصص في المرة القادمة... وإذا ألغينا توزيع الأرباح فسيكون لذلك عواقب وخيمة. آه، تباً!

نهض نورمان غيل ليذهب إلى الحمام، وفور ذهابه أخرجت جين مرآة ونظرت إلى وجهها بلهفة، ووضعت هي الأخرى مساحيق وأحمر شفاه. وضع المضيف القهوة أمامها، ونظرت من النافذة فرأت مياه القنال الإنكليزي تشعّ بزرقتها.

أزّ زُنبورٌ حول رأس السيد كلانسي في وقت كان فيه منهمكاً في تحديد موعد ومكان غياب شخصية كتابه عن مكان الجريمة، فأبعده بحركة لاواعية من يده، فطاف الزنبور ليفتش فنجانَي قهوة السيدين دوبون. قتله جان دوبون بهدوء.

حل الهدوء في المقصورة وتوقف الحديث، ولكن الأفكار استمرت في تَطْوافها. وفي آخر المقصورة تماماً، في المقعد رقم ٢، تدلى رأس السيدة جيزيل قليلاً إلى الأمام. وكان يمكن للمرء أن يحسبها نائمة، ولكنها لم تكن نائمة، فهي لم تتكلم ولم تفكر.

كانت السيدة جيزيل ميتة!

* * *

الفصل الثاني
الاكتشاف

تنقل هنري ميتشل، المضيف الأقدم بين المضيفين، برشاقة وخفّة من مقعد إلى مقعد يوزع الفواتير، فبعد نصف ساعة سيصل الجميع إلى كرويدون. كان يجمع الأوراق والقطع النقدية منحنياً وموزّعاً عباراته: شكراً يا سيدي، شكراً سيدتي... وقد اضطر إلى الانتظار قليلاً أمام مقعدَي الراكبين الفرنسيين، إذ كانا مشغولَين بالحوار والتلويح بالأيدي، وفكر عابساً أنه لن يحصل منهما -على أية حال- على إكرامية جيدة.

وكان اثنان من الركاب نائمَين: الرجل الضئيل ذو الشارب، والمرأة العجوز في نهاية المقصورة. وقد كانت تلك العجوز كريمة في إكرامياتها، فهو يتذكر أنه رآها تسافر عبر القنال الإنكليزي عدة مرات، ولذلك امتنع عن إيقاظها.

استيقظ الرجل الضئيل ذو الشارب ودفع ثمن زجاجة الصودا والبسكويت الرقيق، وكان ذلك كل ما تناوله. وترك ميتشل المسافرة الأخرى نائمة بقدر ما يستطيع. وقبل خمس دقائق من موعد الوصول إلى كرويدون وقف بجانبها وانحنى فوقها قائلاً: عذراً يا سيدتي، فاتورتك.

ثم وضع يده باحترام وتهذيب على كتفها فلم تستيقظ. زاد من ضغط يده وهَزّها بلطف، ولكن النتيجة الوحيدة كانت السقوط المفاجئ لجسمها على المقعد. انحنى ميتشل فوقها، ثم اعتدل فجأة وقد ابيضّ وجهه.

* * *

قال ألبرت ديفيس، المضيف الآخر: دعك من هذا، إنك تمزح!

- أقول لك إنها الحقيقة.

كان ميتشل أبيض الوجه يرتجف.

- أأنت واثق يا هنري؟

- مئة بالمئة. أظن أنها نوبة قلبية.

- سنصل إلى كرويدون بعد بضع دقائق.

- أخشى أن تكون قد تناولت...

وقفا بعض الوقت دون قرار، ثم اتفقا على ما ينبغي فعله. عاد ميتشل إلى المقصورة الخلفية ومضى من مقعد إلى مقعد وهو ينحني في كل مرة ويتمتم بصوت خافت: عفواً يا سيدي، أأنت طبيب يا ترى؟

قال نورمان غيل: أنا طبيب أسنان. ولكن إن كانت هناك خدمة أؤديها...؟ ونهض عن مقعده قليلاً.

قال الدكتور برايانت: أنا طبيب، ما الأمر؟

- سيدة في الخلف هناك... لست مرتاحاً لوضعها.

نهض برايانت ورافق المضيف، وتبعهما الرجل الضئيل ذو الشارب دون انتباه منهما. انحنى الدكتور برايانت فوق الجسم الجاثم في المقعد رقم ٢ لتلك المرأة البدينة التي بدت متقدمة في العمر ومُجَلبَبَة بثياب سوداء ثقيلة.

كان فحص الطبيب سريعاً قبل أن يقول: إنها ميتة.

سأله ميتشل: ما هو سبب الوفاة في اعتقادك؟ أهي نوبة ما؟

- هذا ما لا أستطيع تأكيده دون إجراء فحص تفصيلي. متى رأيتها آخر مرة... أعني على قيد الحياة؟

فكر ميتشل وقال: كانت بخير عندما أحضرتُ لها قهوتها.

- ومتى كان ذلك؟

- حسناً، لا بدّ أن ذلك كان قبل نحو ثلاثة أرباع الساعة... نعم، تقريباً. وعندما أحضرت الفواتير بعد ذلك ظننت أنها نائمة.

قال برايانت: لقد ماتت منذ نصف ساعة على الأقل.

بدأت مشاوراتهما تثير الاهتمام، فالتفتت الرؤوس لتنظر إليهما واشرأبّت الأعناق لتسمع حديثهما.

قال ميتشل بشيء من الأمل: أظن أنها ربما كانت نوبة ما؟

وتمسك بنظرية النوبة. لقد كانت أخت زوجته تتعرض لكثير من النوبات، فشعر بأن النوبات أمر مألوف يفهمه أي إنسان. ولكن لم يكن في نية الدكتور برايانت أن يتبنى تفسيراً محدداً، فاكتفى بهز رأسه معبّراً عن حيرته.

تكلم صوت بالقرب من كتفه، وكان ذلك صوت الرجل

الملفلف بالأغطية ذي الشارب. قال: على رقبتها علامةٌ ما.

كان يتكلم بلهجة معتذرة كمن يتكلم إلى من هم أكثر منه معرفة. قال الدكتور برايانت: هذا صحيح.

تدلّى رأس المرأة إلى الجانب فظهر ثقب صغير بجانب حنجرتها.

انضمّ السيدان دوبون اللذان كانا يصغيان إلى الحوار في الدقائق الأخيرة، وتكلم جان دوبون الشاب قائلاً: المعذرة، هل قلتم بأن السيدة ميتة وأنّ على رقبتها علامة؟ هل لي أن أقدم اقتراحاً؟ لقد كان زُنبورٌ يطيرُ هنا، وقد قتلته.

ثم عرض عليهم الزنبور الميت في طبق الفنجان وسأل: أليس ممكناً أن تكون السيدة المسكينة قد ماتت من لسعة زنبور؟ لقد سمعت بحوادث مشابهة من قبل.

قال برايانت موافقاً: هذا ممكن، رأيت حالات كهذه. نعم، هذا احتمال ممكن بالتأكيد، ولا سيما إذا كان في القلب ضعف.

تساءل المضيف: هل يوجد ما يَحسُن بي أن أفعله يا سيدي؟ سوف نكون في كرويدون خلال لحظات.

ابتعد الدكتور برايانت قليلاً وقال: الهدوء، الهدوء، لا يوجد ما نفعله. ينبغي عدم تحريك الجثة أيها المضيف.

- نعم يا سيدي، إنني أدرك ذلك تماماً.

تهيأ الدكتور برايانت للعودة إلى مقعده، ولكن الأجنبي المتلفلف الضئيل كان يسدّ عليه طريقه، فرمقه برايانت بشيء من الدهشة وقال له: يا سيدي العزيز، إن أفضل ما تفعله هو العودة إلى

مقعدك. سنصل إلى كرويدون في الحال.

وأضاف المضيف: هذا صحيح يا سيدي. ثم رفع صوته وقال: يرجى العودة إلى مقاعدكم جميعاً.

قال الرجل الضئيل: عفواً، هناك شيء ما.

- شيء ما؟

- نعم، شيء تمّ تجاوزه.

وأوضح ما يعنيه بإشارة برأس حذائه الجلدي المدبَّب. وتابع المضيفُ والطبيب حركتَه بعينهما، حيث لمحا ومضة شيء ذي لون أصفر وأسود على الأرض يتوارى جزئياً تحت حافة تنّورة السيدة السوداء.

قال الطبيب بدهشة: زنبور آخر؟

جثا هيركيول بوارو على ركبتيه، وأخرج من جيبه ملقطاً صغيراً استعمله بحذر، ثم نهض وبيده صيده الثمين وهو يقول: نعم، إنه يشبه الزنبور كثيراً، ولكنه ليس زنبوراً!

ثم لفّ يده بحيث يتمكن المضيف والطبيب من رؤية ذلك الشيء بوضوح. كان ذلك الشيء عقدة صغيرة من الحرير المجدول الأصفر والأسود موصولة بشوكة طويلة غريبة الشكل ذات رأس تغير لونه.

- يا إلهي!

جاء هذا الهتاف المتعجب من السيد كلانسي الضئيل الذي كان قد غادر مقعده وأطلّ برأسه من فوق كتف المضيف. مضى كلانسي قائلاً: هذا غريب، غريب جداً بالفعل! إنه أغرب شيء

صادفته في حياتي، ووالله لم أكن لأصدق ذلك!

سأله المضيف: هل يمكنك أن توضح كلامك قليلاً يا سيدي؟ هل تعرف ما هو هذا الشيء؟

- أعرفه؟ طبعاً أعرفه.

امتلأ صدر السيد كلانسي بكبرياء جارفة، وقال: إن هذا الشيء -أيها السادة- هو شوكة تُطلَق بأنبوب نفخ لدى بعض القبائل البدائية... لست واثقاً الآن تماماً إن كانت تلك قبائل في أمريكا الجنوبية أو من سكان بورنيو المحليين، ولكن هذا سهم بدائي دون شك وقد أُطلق من أنبوب نفخ، وأشك بقوّة أنّ في قمة تلك الشوكة...

قاطعه هيركيول بوارو مكمّلاً حديثة: بعض سموم السهام الشهيرة لهنود أمريكا الجنوبية. ولكن هل هذا ممكن؟

أجاب السيد كلانسي وهو ما يزال مفعماً بالحماسة: إنه أمر غريب جداً بالتأكيد، وعندما أقول إنه غريب جداً فإنني أقولها وأنا نفسي كاتب قصص بوليسية، ولكن أن نرى مثل هذا في الحياة الفعلية...

وخانته الكلمات.

مالت الطائرة ببطء، وترنح قليلاً أولئك الذين كانوا واقفين. كانت الطائرة تحوم لتهبط في مطار كرويدون.

* * *

الفصل الثالث
في كرويدون

لم يعد المضيف والطبيب مسؤولَين عن الوضع، فقد احتلّ مكانَهما الرجلُ الضئيل المتدثّر بالأغطية ذو المنظر السخيف إلى حد ما، وقد تكلم كصاحب سلطة يثق بوجوب طاعة أوامره دون أن يضعها أحد موضع تساؤل. همس في أذن ميتشل فهزّ رأسه موافقاً، ثم شق طريقه بين الركاب ليقف على الباب المؤدي إلى المقصورة الأمامية بعد المرافق مباشرة.

كانت الطائرة تجري الآن على أرض المطار، وعندما توقفت أخيراً رفع ميتشل صوته قائلاً: سأطلب منكم -أيها السيدات والسادة- أن تلزموا مقاعدكم وتبقوا هنا حتى يأتي أحدٌ ذو سلطة رسمية لتولي المسؤولية، وأرجو أن لا يطول تأخيركم.

قدّر معظم الركاب معقولية هذا الطلب، إلاّ شخصاً واحداً احتجّ بحدة. فقد صرخت الليدي هوربوري بغضب: هراء، ألا تعرف من أنا؟ إنني أصر على السماح لي بالمغادرة فوراً.

- أنا آسف جداً يا سيدتي، إذ لا يمكنني أن أستثني أحداً.

قرعت سيسلي الأرض برجلها بغضب وقالت: ما أسخف

هذا! إنه سخيف جداً. سوف أشكوكم إلى الشركة. إنه لأمر فظيع أن نُحتجَز هنا مع جثة ميتة.

تحدثت فينيشيا كير باللهجة المتشدقة التي رُبِّيت عليها كواحدة من السيدات الإقطاعيات: حقاً يا عزيزتي إن هذا مؤلم تماماً، ولكنني أتخيل أن علينا أن نتحمله. ثم جلست هي نفسها وسحبت علبة سجائرها قائلة: هل أستطيع أن أدخن الآن أيها المضيف؟

قال ميتشل الذي ضاق ذرعاً: لا أظن أن هذا يهمّ الآن يا سيدتي.

ثم نظر من فوق كتفه حيث كان زميله ديفيس قد أنزل ركاب المقصورة الأمامية من باب الطوارئ وذهب ليطلب المساعدة.

* * *

لم يَطُل انتظار المسافرين، ولكن بدا لهم أن نصف ساعة على الأقل قد مرّت. ثم رأوا رجلاً منتصب القامة كجندي يرتدي ملابس بسيطة ومعه شرطي بالزيّ الرسمي يعبران أرض المطار بسرعة ويصعدان إلى الطائرة بعد أن فتح لهم ميتشل الباب.

تساءل القادم الجديد بنبرات رسمية سريعة: حسناً، ما كل هذا؟

ثم استمع إلى ميتشل ثم إلى الدكتور برايانت، وألقى بعدها نظرة سريعة على الجسد المتداعي للمرأة الميتة. وبعد أن أعطى أمراً للشرطي خاطب الركاب قائلاً: سيداتي سادتي، هل لكم أن تتبعوني لو سمحتم؟

رافقهم خارج الطائرة وعبر أرض المطار، ولكنه لم يدخل

قسم الجمارك كما يجري عادة بل أخذهم إلى غرفة صغيرة خاصة وقال لهم: أرجو أن لا أطيل انتظاركم أكثر مما هو ضروري أيتها السيدات والسادة.

قال السيد جيمس رايدر: اسمع أيها المفتش، إن لديّ ارتباطَ عمل مهماً في لندن.

- أنا آسف يا سيدي.

وصاحت سيسلي هوربوري: أنا الليدي هوربوري، وأعتبر احتجازي هنا في هذه القضية أمراً مُهيناً تماماً.

- إنني آسف جداً يا ليدي هوربوري، ولكن هذه القضية خطيرة كما ترين. إنها تبدو كجريمة قتل.

تمتم السيد كلانسي وكأنه يهذي، بينما علت وجهَه ابتسامة سعيدة: سموم السهام المستخدَمة لدى هنود أمريكا الجنوبية.

فنظر إليه المفتش بارتياب.

تحدث عالم الآثار الفرنسي بانفعال وباللغة الفرنسية، وأجابه المفتش ببطء وحذر وبنفس اللغة.

قالت فينيشيا كير: إن هذا يبعث على الملل القاتل، ولكن أفترضُ أنكم مضطرون إلى القيام بواجبكم.

وجواباً على سعة الصدر هذه أجاب المفتش بلهجة مَشوبة بالامتنان: شكراً يا سيدتي. ثم مضى قائلاً: لو تفضلتم بالبقاء هنا؛ أريد أن أتكلم قليلاً مع الدكتور...

- نعم، اسمي برايانت.

- شكراً لك. تفضل معي، من هنا يا دكتور.

قال بوارو: هل لي أن أساعد في التحقيق؟

التفت المفتش وعلى شفتيه بَوادر ردٍّ قاس، ثم تغير وجهه فجأة وهتف: أنا آسف يا سيد بوارو؛ لقد لفلفتَ نفسك كثيراً فلم أميّزك. هيا معنا، مرحباً بك.

ثم فتح الباب بحيث مرّ منه برايانت وبوارو مشيّعَين بنظرات الشك من باقي المجموعة. صرخت سيسيلي هوربوري: ولماذا يُسمح له بالخروج بينما نحتجز نحن هنا؟

جلست فينيشيا كير باستسلام على أحد المقاعد وقالت: ربما كان أحد رجال الشرطة الفرنسيين، أو من جواسيس الجمارك.

قال نورمان غيل بخجل وارتباك مخاطباً جين: أظن أنني رأيتك في... في لوبينيه.

- لقد كنت في لوبينيه فعلاً.

- إنه مكان رائع جداً؛ لقد أحببت أشجار الصنوبر.

- أجل، إنها تطلق رائحة زكية.

ثم سكت كلاهما لبرهة بحثاً عن موضوع يستمران فيه، وأخيراً قال غيل: لقد... لقد عرفتك مباشرة في الطائرة.

عبّرت جين عن دهشة بالغة: حقاً؟

- هل تظنين أن تلك المرأة قد قُتلت حقاً؟

- ربما. إنه لأمر مرعب بعض الشيء، ولكنه أمر سيء أيضاً.

كان السيدان دوبون يتحادثان بالفرنسية، وكان السيد رايدر

يجري بعض الحسابات في دفتر ملاحظات صغير وينظر إلى ساعته بين آونة وأخرى، فيما جلست سيسيلي هوربوري وهي تقرع بقدمها الأرض، واستند على الباب من الداخل شرطي ضخم جداً يرتدي ملابس زرقاء ويبدو متبلد الإحساس.

* * *

في الغرفة المجاورة كان المفتش جاب يتحدث إلى الدكتور برايانت وهيركيول بوارو. خاطب بوارو قائلاً: إن لديك موهبة الظهور حيث لا يتوقعك أحد يا سيد بوارو.

- أليس مطار كرويدون خارجاً قليلاً عن نطاق مسؤوليتك يا صديقي؟

- آه، إنني أتابع إحدى القضايا الكبرى في مجال التهريب، ووجودي هنا كان فيه شيء من الحظ. هذه أغرب قضية تعرض لي منذ سنوات، لذلك دعونا نتناول الموضوع الآن. وقبل أي شيء ربما أعطيتني اسمك الكامل وعنوانك يا دكتور.

- أنا روجر جيمس برايانت، مختص بأمراض الأذن والحنجرة، وعنواني هو: ٣٢٩ شارع هارلي.

تولى شرطي بليد يجلس إلى طاولة تدوين تلك المعلومات. وقال المفتش: إن جرّاحنا الخاص سيتولى طبعاً فحص الجثة، ولكننا سنحتاجك في التحقيق يا دكتور.

- أكيد، أكيد.

- هل تستطيع إعطاءنا أية فكرة عن وقت الوفاة؟

- لا بد أن المرأة قد تُوفّيت قبل أن أفحصها بنصف ساعة

على الأقل، وقد فحصتها قبل وصولنا إلى كرويدون بدقائق قليلة. لا أستطيع ذكر وقت أكثر دقة من ذلك، ولكني فهمت من المضيف بأنه تحدث معها قبل نحو ساعة.

- حسناً، هذا يعطينا فكرة قريبة من الدقّة لأغراض التحقيق، وأظن أن من نافلة القول أن أسألك: هل لاحظتَ أي شيء ذي طبيعة مُريبة؟

هزّ الدكتور رأسه بالنفي، وقال بوارو بكدر عميق: أما أنا فقد كنت نائماً لأنني أعاني من الغثيان في الطائرة مثل الذي أعانيه في البحر، ولذلك فإنني أُلفّ نفسي دوماً بشكل جيد وأحاول النوم.

سأل المفتش: هل لديك فكرة عن أسباب الوفاة يا دكتور؟

- لا أود التصريح بشيء محدد في هذه المرحلة، فهذه قضية يحلّها التشريح والفحص الذي يجري بعد الوفاة.

هزّ جاب رأسه موافقاً وقال: حسناً يا دكتور؛ لا أظن أن هناك حاجة لاحتجازك الآن. ولكن أخشى أن تضطر إلى الخضوع لإجراءات شكلية معينة، وهي ستنطبق على المسافرين جميعاً فنحن لا نستطيع استثناء أحد.

ابتسم برايان وقال: أفضّل أن تتأكد من عدم امتلاكي لأية أنابيب نفخ أو أية أسلحة فتّاكة مخفية أخرى.

قال جاب: "روجر سيتولى ذلك". ثم أشار إلى مساعده وأضاف: بالمناسبة يا دكتور، هل لديك أية فكرة عمّا يمكن أن يكون في هذه...

وأشار إلى الشوكة التي تغيّر لونها وكانت في علبة صغيرة

على الطاولة أمامه. هزّ الدكتور برايانت رأسه بالنفي وقال: يصعب الجزم بذلك دون تحليل. الكورار هو السم الذي يستخدمه السكان الأصليون في أمريكا الجنوبية كما أظن.

- وهل من شأن ذلك أن يقتل؟

- إنه سم فعّال وسريع جداً.

- ولكن الحصول عليه ليس سهلاً، أليس كذلك؟

- ليس سهلاً أبداً بالنسبة للشخص العادي.

- إذن فسوف نفتّشك بمنتهى الدقة!

قالها جاب الذي كان دوماً مغرَماً بنكاته، وأشار إلى الشرطي ليجري عملية التفتيش، ثم غادر الشرطي والدكتور الغرفة معاً.

أمال جاب كرسيه إلى الخلف ونظر إلى بوارو قائلاً: إنها قضية عجيبة ومثيرة إلى الحد الذي يجعلها غير قابلة للتصديق. أعني... أن تجد أنابيبَ نفخ وسهاماً مسمومة على متن طائرة!

قال بوارو: هذه ملاحظة عميقة جداً يا صديقي.

- اثنان من رجالي يفتّشون الطائرة الآن، وسيأتي مصوّر ورجل لرفع البصمات. أظن أن من الأفضل أن نرى المضيفَين الآن.

مضى إلى الباب وأعطى أمراً، وما لبث المضيفان أن دخلا الغرفة. كان المضيف الأصغر قد استعاد توازنه، أما المضيف الآخر فما زال شاحباً مرعوباً.

قال جاب: حسناً أيها الشابان، اجلسا. هل تحملان الجوازات؟ حسناً.

قلّب الجوازات بسرعة، ثم اختار أحدها وقال: ها هي، ماري موريسو. إنها تحمل جوازاً فرنسياً. هل تعرفان شيئاً عنها؟

ردّ ميتشل قائلاً: لقد رأيتها من قبل؛ كانت تعبر القنال ذهاباً وإياباً من إنكلترا إلى فرنسا في أحيان كثيرة.

- آه، ربما في عمل ما. ألا تعرفان طبيعة عملها؟

هزّ ميتشل رأسه بالنفي، فيما قال المضيف الأصغر: أنا أتذكرها أيضاً. لقد رأيتها في الرحلة الصباحية، الساعة الثامنة من باريس.

- مَن منكما رآها على قيد الحياة لآخر مرة؟

أشار المضيف الأصغر إلى زميله وقال: هو.

ميتشل: هذا صحيح، عندما أخذت لها قهوتها.

- كيف كانت تبدو وقتها؟

- لم ألاحظ شيئاً. أعطيتها السكر، ثم عرضت عليها الحليب فرفضته.

- متى؟

- لا أستطيع تحديد الوقت بدقة. كنا فوق القنال الإنكليزي وقتها. ربما كان الوقت قريباً من الساعة الثانية.

قال المضيف الأصغر: نعم، تقريباً.

جاب: ومتى رأيتها بعد ذلك؟

ميتشل: عندما وزعت الفواتير.

- متى؟

- بعد نحو ربع ساعة، وقد ظننت أنها نائمة. يا إلهي، لا بد أنها كانت ميتة وقتها!

بدا صوت المضيف مليئاً بالرهبة، وأشار جاب إلى السهم الصغير الشبيه بالزنبور وقال: ألم ترَ أية آثار لهذا الشيء؟

- لم أرَ شيئاً يا سيدي.

- وأنت يا ديفيس؟

- آخر مرة رأيتها وأنا أوزع البسكويت مع الجبن، وكانت وقتها على ما يرام.

سأل بوارو: ما هو نظامكم في تقديم الوجبات؟ هل يخدم كل منكم مقصورة منفصلة؟

قال ميتشل: لا يا سيدي، بل نقوم بالخدمة معاً: الحساء ثم اللحم والخضار ثم الحلويات، وهكذا... ونبدأ عادة بخدمة المقصورة الخلفية أولاً، ثم نخرج بعد ذلك بأطباق جديدة طازجة إلى المقصورة الأمامية.

هزّ بوارو رأسه، وسأل جاب: هل تحدثت السيدة موريسو هذه مع أحد على متن الطائرة، أو أظهرت أية علامات بأنها تعرف أحداً من الركاب؟

ميتشل: أنا لم أر شيئاً من ذلك.

جاب: وأنت يا ديفيس؟

- لا يا سيدي.

جاب: هل غادرَت مقعدها قط خلال الرحلة؟

ميتشل: لا أظن يا سيدي.

- أليس من شيءٍ تتذكرانه يمكن أن يلقي بعض الضوء على المسألة؟

فكر الرجلان، ثم هزّا رأسيهما بالنفي.

- حسناً، هذا كل شيء لديّ في الوقت الحاضر. سأراكما ثانية فيما بعد.

قال هنري ميتشل بهدوء: إن ما حدث شنيع يا سيدي. لا أحب أن يحدث مثل هذا الأمر وأنا مسؤول عن الركاب.

- حسناً، أنا لا أرى أنك مَلوم بأي شكل، مع أنني أتفق معك على شناعة ما حدث.

ثم أشار إلى الرجلين بالانصراف، ولكن بوارو انحنى إلى الأمام وقال: اسمح لي بسؤال صغير واحد.

جاب: اسأل يا بوارو.

- هل لاحظ أحدكما وجود زنبور يطير في الطائرة؟

هزّ الاثنان رأسيهما بالنفي، وقال ميتشل: لم يكن في الطائرة أي زنبور على حد علمي.

بوارو: بل كان هناك زنبور؛ لقد وجدناه ميتاً على صحن أحد المسافرين.

ميتشل: حسناً، أنا لم أرَه يا سيدي.

ديفيس: ولا أنا.

جاب: لا بأس.

غادر المضيفان الغرفة، وتصفح جاب الجوازات بسرعة ثم قال: لدينا بين المسافرين كونتيسة، وأعتقد أنها تلك المرأة التي أقامت علينا الدنيا. الأفضل أن نراها في البداية قبل أن تفقد أعصابها وتطرح قضية في البرلمان حول الأساليب الوحشية للشرطة.

قال بوارو: أظنك ستفتش بكل دقة كل الأمتعة والحقائب والحقائب اليدوية العائدة للمسافرين في المقصورة الخلفية للطائرة؟

غمز جاب بعينيه بمرح وقال: لماذا؟ ما الذي تعتقده يا سيد بوارو؟ ينبغي أن نجد أنبوب النفخ هذا، إن كان هناك حقاً أنبوب نفخ ولم نكن جميعاً نحلم! يبدو لي الأمر وكأنه كابوس. أرجو أن لا يكون ذلك الرجل الصغير كاتب الروايات قد فقد صوابه وقرر تطبيق إحدى جرائمه على البشر بدلاً من كتابتها على الورق، فقضية السهم المسموم هذه تبدو قريبة من أفكاره!

هزّ بوارو رأسه بارتياب، فيما مضى جاب قائلاً: نعم، ينبغي تفتيش الجميع، سواء احتجّوا أم لم يحتجوا، كما سيتم تفتيش كل شيء في حاجياتهم وأدواتهم، وهذا أمر نهائي.

اقترح بوارو: ربما كان من الممكن إعداد قائمة دقيقة بكل شيء في حوزة الركاب.

نظر إليه جاب بفضول وقال: يمكن القيام بذلك إن أردت يا سيد بوارو، مع أنني لم أفهم بالضبط ما الذي تسعى إليه، فنحن نعرف ما الذي نبحث عنه.

- ربما كنت أنت تعرف يا صديقي، أما أنا فلست واثقاً كثيراً. إنني أبحث عن شيء ما ولكني لا أعرف ما هو.

- هل بدأنا يا سيد بوارو؟ إنك مولع حقاً بتعقيد الأمور، أليس كذلك؟ لنقابل الآن سعادة الكونتيسة قبل أن يجن جنونها.

ولكن الليدي هوربوري كانت أكثر هدوءاً في سلوكها. جلست على كرسي وأجابت عن أسئلة جاب دون أدنى تردد. قدّمت عنوانها وقالت إنها كانت عائدة إلى لندن من لوبينيه وباريس وإنها لم تكن تعرف المرأة المتوفاة بتاتاً، ولم تلاحظ أي شيء يدعو للشك خلال الرحلة، وقالت إنها كانت جالسة ووجهها إلى الجانب الآخر باتجاه مقدمة الطائرة، وبذلك لم تكن لديها الفرصة لرؤية أي شيء يحدث خلفها. لم تترك مقعدها خلال الرحلة، ولم يدخل أحد -قدر تعلق الأمر بذاكرتها- إلى المقصورة الخلفية من المقصورة الأمامية إلاّ المضيفين. وقالت إنها لا تتذكر بالضبط، ولكنها تظن أن اثنين من المسافرين الرجال غادرا المقصورة الخلفية إلى المرافق، ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك، ولم تلاحظ أحداً يمسك بأي شيء يمكن أن يكون شبيها بأنبوب نفخ. وجواباً عن سؤال لبوارو قالت إنها لم تلاحظ وجود زنبور في المقصورة.

سُمح لليدي هوربوري بالخروج وتبعتها صاحبة الفخامة فينيشيا كير. كانت شهادة الآنسة كير شبيهة إلى حد كبير بشهادة صديقتها. أعطت اسمها وعنوانها، وقد كانت عائدة من جنوبي فرنسا. ولم تكن قد رأت المرأة المتوفاة من قبل، ولم تلحظ شيئاً مريباً في أثناء الرحلة. وقد رأت بالفعل بعض المسافرين في آخر المقصورة يضربون زنبوراً، وقالت إن أحدهم قتله، وكان ذلك بعد تقديم وجبة الغداء.

خرجت الآنسة كير، وقال جاب: تبدو مهتماً كثيراً بذلك الزنبور يا سيد بوارو.

- الزنبور ليس مبعث اهتمام كبير بقدر ما يعطي من دلالات، أليس كذلك؟

غيّر جاب الموضوع وقال: رأيي أننا ينبغي أن نركز على الرجلين الفرنسيين، فقد كانا بمحاذاة السيدة القتيلة عبر الممر الفاصل بين المقاعد، وملابسهما رثّة وحقيبتهما القديمة التي أبلاها الاستعمال مغطاة بالملصقات الأجنبية الغريبة، ولن أستغرب كثيراً إن قيل لي بأنهما زارا من قبل بورنيو أو أمريكا الجنوبية أو كائناً ما كان ذلك المكان. لن نستطيع أن نضع أصبعنا على الدافع بالطبع، ولكني أحسب أننا نستطيع الحصول على ذلك من باريس، فسوف نضطر إلى حمل الشرطة الفرنسية على التعاون في هذه القضية، فهي قضيتهم أكثر مما هي قضيتنا. ولكن إن أردت رأيي فإن هذين الرجلين هما ضالّتنا.

طرفت عينا بوارو قليلاً ثم قال: ما تقوله ممكن، ولكن بعض ملاحظاتك خاطئة يا صديقي؛ فهذان الرجلان ليسا سفّاحين كما ظننت، بل هما -على العكس من ذلك- عالما آثار مشهوران جداً وضليعان في علمهما.

- إنك تخدعني ولا شك!

- لا، أبداً؛ فأنا أعرفهما تماماً وعياناً. إنهما السيد آرمون دوبون وابنه السيد جان دوبون. لقد عادا منذ وقت قصير من إيران حيث أجريا بعض أعمال التنقيب المثيرة جداً.

أمسك جاب بأحد الجوازات ثم قال: أنت على حق يا سيد

بوارو، ولكن عليك أن تعترف بأنهما لا يبدوان من أصحاب الشأن، أليس كذلك؟

- مشاهير رجال العالم نادراً ما يبدو عليهم ذلك! أنا نفسي -مَن يتحدث معك- حَسِبني بعضهم حلاقاً ذات يوم!

قال جاب ضاحكاً: غير معقول! حسناً، دعنا نقابل عالمَينا الجليلين.

صرّح السيد دوبون الأب بأنه لم يكن يعرف القتيلة من قبل، وأنه لم يلاحظ شيئاً مما حدث في أثناء الرحلة لأنه كان يناقش نقطة مثيرة جداً مع ابنه، وقال إنه لم يغادر مقعده قط، وإنه لاحظ بالفعل زنبوراً في أواخر فترة تناول الغداء، وقال إن ابنه قتله.

وقد أكد السيد جان دوبون الابن هذه الشهادة، وقال إنه لم يلاحظ شيئاً مما دار حوله وإن الزنبور أزعجه فقتله. وماذا كان موضوع النقاش؟ خزف ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى.

دخل السيد كلانسي بعدهما ليواجه وقتاً عصيباً، فقد شعر المفتش جاب بأن السيد كلانسي يعرف الكثير إجمالاً عن أنابيب النفخ والسهام المسمومة. سأل جاب: هل سبق أن امتلكت أنبوب نفخ أنت نفسك؟

- حسناً، أنا... نعم، في الحقيقة امتلكت واحداً.

التقط المفتش جاب العبارة وقال: حقاً؟

قال السيد كلانسي الضئيل ببعض التردد: ينبغي أن لا... أن لا تسيء فهمي؛ فدوافعي بريئة تماماً ويمكنني أن أشرح...

جاب: نعم يا سيدي، ربما كان عليك أن تشرح بالفعل.

- حسناً، كنت أكتب كتاباً ارتُكبت فيه الجريمة بتلك الطريقة.

جاب: حقاً؟

قالها أيضاً بتلك النبرة التهديدية، فأسرع السيد كلانسي ليقول: كان الأمر كله مسألة بصمات إن كنت تفهمني. كان من الضروري وجود وسيلة لتوضيح النقطة التي قصدتها، أعني بصمات الأصابع: مكانها وموقعها على أنبوب النفخ. وقد لاحظت وجود أنابيب نفخ (وكان ذلك في شارع تشيرينغ كروس في لندن) منذ عامين على الأقل، وهكذا اشتريت أنبوباً، وقام صديق فنان مشكوراً برسمه لي لتوضيح فكرتي. يمكن أن أحيلك إلى الكتاب واسمه «مفتاح لغز الوردة القرمزية»، كما يمكنني أن أحيلك إلى صديقي أيضاً.

جاب: وهل احتفظت بالأنبوب؟

- حسناً، أظن... لا بد أنه في مكان ما.

- ما الذي تعنيه بالضبط بعبارة «مكان ما» يا سيد كلانسي؟

- أعني... في مكان ما! لا أعرف أين، فأنا... أنا لست رجلاً منظماً كثيراً.

- هل هو معك الآن مثلاً؟

- لا، بالتأكيد؛ فأنا لم أرَه منذ ستة أشهر.

نظر المفتش جاب إليه نظرة شك بارد ثم تابع أسئلته: هل تركت مقعدك قط في الطائرة؟

- لا، بالتأكيد لا. على الأقل... حسناً، نعم، لقد تركته.

- آه، غادرته؟ أين ذهبت؟

- ذهبت لآخذ كتاب «برادشو» من جيب معطفي، وكان المعطف مكوّماً مع بعض البطانيات والحقائب قرب المدخل في نهاية المقصورة.

- إذن فقد مررت بجانب مقعد القتيلة؟

- لا، على الأقل... لكن، نعم، لا بد أنني مررت من هناك. ولكن ذلك كان قبل وقت طويل من حدوث أي شيء؛ كنت قد أنهيت حسائي لتوّي.

أدّى مزيد من الأسئلة إلى إجابات سلبية، فقد قال كلانسي إنه لم يلحظ ما يثير الشبهة وإنه كان منكبّاً على استكمال دليل غياب عن مكان الجريمة لروايته.

قال المفتش بغموض: دليل غياب، ها؟

تدخل بوارو بسؤال عن الزنابير، فأجاب كلانسي بأنه قد لاحظ زنبوراً بالفعل، وأن الزنبور هاجمه، وقال إنه كان يخشى الزنابير. وبسؤاله متى لاحظ الزنبور قال بأن ذلك كان بعد أن أحضر المضيف له القهوة مباشرة، وقال إنه ضربه فابتعد. ثم سُجِّل اسم السيد كلانسي وعنوانه، وسُمح له بالمغادرة فاستقبل الأمر بارتياح بدا على وجهه.

قال جاب: يبدو لي مشبوهاً. إن لديه أنبوب نفخ، ثم انظر إلى سلوكه؛ لقد كاد ينهار.

بوارو: هذا من قسوة أسلوبك الرسمي عليه يا عزيزي جاب.

أجاب مفتش سكوتلنديارد بصرامة: ليس ثمة ما يُخشى إن كانوا يقولون الحقيقة.

نظر بوارو إليه مشفقاً وقال: أحسب أنك تؤمن بذلك تمام الإيمان.

- طبعاً أؤمن بذلك، فهو صحيح. والآن دعنا نقابل نورمان غيل.

قدّم نورمان غيل عنوانه، وقال إنه طبيب أسنان وإنه كان عائداً من إجازة قضاها في لوبينيه على الساحل الفرنسي، وذكر أنه أمضى يوماً في باريس لمشاهدة أنواع جديدة متعددة من أدوات طب الأسنان، كما قال إنه لم يسبق له رؤية القتيلة وإنه لم يلحظ ما يدعو إلى الريبة خلال الرحلة، وقال إنه كان جالساً ووجهه إلى الجهة الأخرى باتجاه المقصورة الأمامية، وقد غادر مقعده مرة واحدة خلال الرحلة إلى المرافق، ثم عاد مباشرة إلى مقعده ولم يقترب من نهاية المقصورة، وقال إنه لم ينتبه لأي زنبور.

بعده جاء جيمس رايدر متوتراً وجافاً في أسلوبه بعض الشيء. كان عائداً من زيارة عمل إلى باريس ولم يكن يعرف القتيلة. صحيح أنه كان جالساً على المقعد الواقع أمامها مباشرة ولكنه لم يكن يستطيع رؤيتها دون الوقوف والالتفات فوق مسند مقعده. وهو لم يسمع شيئاً، لا صرخة ولا أي نداء. لم يأتِ أحدٌ باتجاه نهاية المقصورة إلاّ المضيفين. نعم، كان الفرنسيان يحتلان المقعدين المحاذيين لمقعده عبر الممر، وقد أمضيا الرحلة في الحديث، والشاب الأصغر منهما قتل زنبوراً في نهاية وجبة الغداء. لا، لم يكن قد لاحظ الزنبور قبل ذلك. وهو لا يعرف شكل أنبوب النفخ ولم يرَ أنبوب نفخ من قبل، ولذلك فلا يستطيع القول إن كان قد رأى أنبوب نفخ خلال الرحلة أم لا.

في تلك اللحظة بالذات قُرع الباب ودخل شرطي على هيئته

علامات انتصار يحاول كَبْتَه، وقال: لقد وجد الرقيب هذا الشيء وظن أنك تودّ رؤيته فوراً.

ثم وضع هديته على الطاولة وهو يُخرجها من المنديل الذي كانت ملفوفة به ويقول: ما من بصمات يا سيدي بقدر ما استطاع الرقيب أن يرى، ولكنه أخبرني أن آخذ حذري.

كان ذلك الشيء أنبوبَ نفخ لا ريب فيه. وسحب جاب نفَسَه بحدة وقال: يا إلهي! الأمر صحيح إذن؟ أقسم أنني لم أصدق ذلك!

انحنى السيد رايدر إلى الأمام باهتمام وقال: إذن فهذا هو ما يستخدمه الأمريكيون الجنوبيون، أليس كذلك؟ لقد قرأت شيئاً عن هذا الأمر ولكني لم أرَ أنبوباً قط. حسناً، بوسعي الآن أن أجيب عن سؤالك: إنني لم أرَ أحداً يمسك أي شيء كهذا.

سأل جاب بحدة: أين وجدتموه؟

الشرطي: كان مرمياً بعيداً عن الأنظار خلف أحد المقاعد يا سيدي.

جاب: أي مقعد؟

- المقعد رقم ٩.

علّق بوارو قائلاً: ممتع جداً.

جاب: ما الممتع في المسألة؟

- مجرد أن المقعد رقم ٩ كان مقعدي.

قال رايدر: حسناً، يبدو هذا غريباً نوعاً ما بالنسبة لك إذا

سمحت لي.

قطب جاب جبينه وقال: شكراً يا سيد رايدر؛ هذا يكفي.

وعندما ذهب رايدر التفت جاب نحو بوارو مبتسماً وقال: إذن فهذا من عملك أنت أيها العجوز؟

أجابه بوارو بكبرياء: يا صديقي، لو ارتكبت جريمة قتل فلن أرتكبها باستعمال السهام المسمومة لهنود جنوب أمريكا.

- إنها وسيلة بدائية فعلاً، ولكن يبدو أنها نجحت.

بوارو: وهذا ما يدفع المرء إلى التفكير بغيظ.

جاب: كائناً مَن كان الفاعل فإنه قد جازف مجازفة مذهلة. نعم والله، مجازفة خطيرة. يا إلهي! لا بد أن هذا الشخص مجنون تماماً. من بقي لدينا؟ فتاة واحدة فقط. فلنَرَها ونتم الأمر. اسمها جين غري... إن لاسمها طعمَ كتب التاريخ!

- إنها فتاة جميلة.

- هل هي جميلة حقاً أيها العجوز الخبيث؟ إذن فأنت لم تكن نائماً طوال الوقت، أليس كذلك؟

- كانت جميلة ومتوترة.

قال جاب بحذر: متوترة... ها؟

- آه يا صديقي العزيز، عندما تكون الفتاة متوترة فعادة ما يعني ذلك وجود شاب، لا وجود جريمة.

جاب: آه، حسناً، أظن أنك محق. فلنُدخلها إذن.

أجابت جين عن الأسئلة التي طُرحت عليها بشكل واضح تماماً. اسمها جين غري، وهي تعمل في مؤسسة أنطوان لتصفيف الشعر في شارع بروتن، بيتها في شارع هاروغيت، وقد كانت عائدة إلى إنكلترا من لوبينيه.

استدعى تتابعُ الأسئلة قصةَ بطاقة اليانصيب الإيرلندي، فدمدم جاب قائلاً: ينبغي منع سباقات الخيل الإيرلندية تلك ومراهناتها.

جين: أظن أنها رائعة، ألم يسبق لك أنت أن راهنت بمبلغ زهيد على حصان؟

خجل جاب وبدا مضطرباً، ثم استؤنفت الأسئلة. وقد أنكرت جين -حين عُرض عليها أنبوب النفخ- أن تكون قد رأته في أي وقت. ولم تكن تعرف القتيلة ولكنها انتبهت إليها في مطار لوبورجيه.

سأل جاب: وما الذي جعلك تنتبهين إليها بصفة خاصة؟

- لأنها كانت بشعة جداً.

قالت ذلك بصدق. ولم ينتزع منها أية معلومات ذات قيمة فسمح لها بالخروج.

عمد جاب إلى تأمل أنبوب النفخ وقال: إن هذا يحيرني. ما الذي علينا أن نبحث عنه الآن؟ هل نبحث عن الرجل الذي سافر إلى تلك الأصقاع من العالم حيث يُصنَع مثل هذا الأنبوب؟ ومن أين جاء هذا الأنبوب تحديداً؟ علينا أن نستعين بخبير ليقرر ذلك، ربما كان من الملايو أو أمريكا الجنوبية أو أفريقيا.

بوارو: هذا صحيح، ولكن إن أمعنت النظر -يا صديقي-

فسوف تلاحظ أن ورقةً صغيرة جداً تلتصق على الأنبوب، وتبدو لي وكأنها بقايا ورقة سعر ممزَّقة. وأتخيل أن هذا الأنبوب تحديداً قد وصل من مكانِ صُنْعِه الأصلي عَبْرَ محل لبيع التحف. وربما سهّلَ هذا علينا عمليةَ البحث. عندي سؤال واحد أخير...

- اسأل.

- ألم يزل إعداد القائمة جارياً، قائمة أمتعة الركاب وحوائجهم؟

جاب: حسناً، لم تعد القائمة مهمة الآن، ولكن يمكن إعدادها مع ذلك. أأنت مصرٌّ على هذه القائمة؟

بوارو: نعم. إنني في حيرة، في حيرة شديدة، ولو تمكنت من العثور على شيء يساعدني...

لم يكن جاب يصغي، فقد راح يتفحص ورقة السعر المنزوعة عن الأنبوب، وأخيراً قال: لقد قال كلانسي إنه اشترى أنبوبَ نفخ. إن كُتّاب القصص البوليسية هؤلاء يُظهرون رجال الشرطة دائماً حمقى، ولو قُدّر لي أن أقول لرئيسي الأشياء التي يقولها المفتشون في رواياتهم لرؤسائهم لقذف بي غداً خارج عملي. مجموعة من الكُتّاب الجَهَلة! إن هذه الجريمة تبدو من نفس نمط جرائم القتل الغبية التي يحسب كاتب تفاهات بأنه يمكن أن ينجو بها.

* * *

الفصل الرابع
الاستجواب

عُقدت جلسة الاستجواب في قضية ماري موريسو بعد أربعة أيام، وقد أثار الأسلوب المثير لموتها اهتماماً عظيماً لدى الجمهور وكانت محكمة الجنايات غاصّة بالحضور.

كان الشاهد الأول الذي تمّ استدعاؤه كهلاً فرنسياً ذا لحية بيضاء اسمه ميتر ألكساندر تيبو، وقد تكلم بالإنكليزية ببطء وبشكل سليم فيه لكنة خفيفة ولكنه متمكن تماماً. بعد الأسئلة التقليدية سأله المحقق: لقد عاينت جثة الفقيدة. فهل تعرفت إليها؟

تيبو: نعم؛ إنها جثة عميلتي ماري آنجيليك موريسو.

المحقق: ذلك هو الاسم المثبت في جواز سفر الفقيدة، فهل كانت تُعرف في أوساط العامة باسم آخر؟

- نعم، باسم مدام جيزيل.

سرت موجة من الإثارة في المحكمة، وجلس الصحفيون وأقلامهم جاهزة. سأل المحقق: هل لك أن تخبرنا من هي بالضبط هذه السيدة موريسو أو جيزيل؟

- لقد كانت مدام جيزيل (إذا أردنا استعمال اسمها المهني

الذي مارست به الأعمال) واحدة من أشهر مُقرضي المال في باريس.

- وأين كانت تدير عملها؟

- في شارع جولييت، رقم ٣، وكان هذا مسكنها الخاص أيضاً.

- لقد فهمت أنها كانت كثيرة السفر إلى إنكلترا، فهل امتدت أعمالها إلى هذا الحد؟

- نعم، فقد كان كثير من زبائنها من الإنكليز، وكانت مشهورة جداً ضمن شريحة معينة من المجتمع الإنكليزي.

- كيف تصف تلك الشريحة من المجتمع؟

- كان معظم زبائنها من بين الطبقات العليا والمحترفين، حيث كان من الأهمية مراعاة السرية المطلقة.

- هل كانت معروفة بالتحفظ والكتمان؟

- كانت كَتومة جداً.

- هل لي أن أسأل إن كنت تعرف بشكل وثيق عن صفقاتها في مجال الأعمال؟

- لا؛ لقد توليت الجانب القانوني من أعمالها، ولكن مدام جيزيل كانت امرأة أعمال من الطراز الأول، قادرة تماماً على رعاية شؤونها الخاصة بأكبر كفاءة. وقد أبقت على سيطرتها الكاملة على أعمالها، ويمكنني القول بأنها كانت شخصية فريدة جداً وواحدة من وجوه المجتمع المعروفين.

- من خلال معرفتك، هل كانت امرأة غنية وقتَ وفاتها؟

- كانت امرأة ثرية إلى أبعد الحدود.

- هل كان لها أي أعداء بحسب معلوماتك؟

- لا أعرف لها أعداء.

ثم نزل السيد تيبو عن منصة الشهادة واسُتدعي هنري ميتشل. سأله المحقق: هل سمعت قط باسم مدام جيزيل؟

- لا يا سيدي.

- من فضلك اسرد لنا ما حدث يوم الثلاثاء الماضي كما شهدته.

- كنت قد وزّعت وجبات الغداء وبدأت أوزع الفواتير، وكانت الفقيدة نائمة كما حسبتها فقررت أن لا أوقظها إلاّ قبل خمس دقائق من هبوط الطائرة. وعندما حاولت إيقاظها أدركت أنها ميتة أو أنها عرضة لمرض خطير، ثم علمت أن طبيباً كان على متن الطائرة، وقد قال الدكتور...

- سنستمع إلى شهادة الدكتور برايانت حالاً. هل لك أن تلقي نظرة على هذا؟

قُدِّم أنبوب النفخ لميتشل فأخذه بحذر شديد. وسأله المحقق: هل أنت واثق من أنك لم تره في يد أحد من المسافرين؟

- أنا واثق من ذلك يا سيدي.

المحقق: ألبرت ديفيس.

صعد المضيف الأصغر على المنصة، فسأله المحقق: أنت

كنت تعمل على متن الطائرة بروميثيوس مضيفاً ثانياً يوم الثلاثاء الماضي؟

- نعم يا سيدي.

- ماذا كان أول شيء علمته عن المأساة؟

- لقد أخبرني السيد ميتشل بأنه يخشى أنّ شيئاً قد حدث لأحد المسافرين.

- هل رأيت هذا من قبل؟

سلّم الأنبوب لديفيس الذي قال: لا يا سيدي.

- ألم تلاحظه في يد أحد من المسافرين؟

- لم ألاحظه قط يا سيدي.

- هل حدث خلال الرحلة أي شيء تظن أنه قد يُلقي بعضَ الضوء على هذه القضية؟

- لا يا سيدي.

- جيد جداً، يمكنك النزول. الدكتور روجر برايانت.

قدم الدكتور برايانت اسمه وعنوانه ووصف نفسه كمختص بأمراض الأذن والحنجرة. سأله المحقق: هل لك أن تخبرنا -يا دكتور برايانت- بما حدث بالضبط يوم الثلاثاء الماضي الثامن عشر من الشهر الجاري؟

- قبل وصولنا إلى كرويدون بقليل اقترب مني كبير المضيفين وسألني إن كنت طبيباً، ولدى إجابتي بالإيجاب أخبرني بأن إحدى المسافرات مريضة، فنهضت وذهبت معه. كانت المرأة المَعنيّة

متمددة في مقعدها بترهّل، وكانت قد ماتت منذ بعض الوقت.

- منذ كم من الوقت برأيك؟

- أعتقد أنها نصف ساعة على الأقل، وأحسب أن الفترة التي مرّت منذ وفاتها تمتد من نصف ساعة إلى ساعة.

- ولكنك لاحظت ثقباً صغيراً في جانب عنقها، أليس كذلك؟

- بلى.

- شكراً لك. الدكتور جيمس ويسلر.

كان الدكتور ويسلر رجلاً ضعيفاً مهزول الجسم، سأله المحقق: أنت جرّاح الشرطة في هذه المنطقة؟

- نعم.

- هل لك أن تدلي بشهادتك؟

- في يوم الثلاثاء الماضي، الثامن عشر من الشهر، وبعد الساعة الثالثة ظهراً مباشرة تلقيت استدعاء إلى مطار كرويدون. وهناك عرضوا عليّ جثة امرأة متقدمة في العمر في أحد مقاعد الطائرة بروميثيوس. كانت ميتة، وكانت الوفاة -برأيي- قد حدثت قبل نحو ساعة. وقد لاحظت ثقباً في جانب رقبتها فوق الوريد الوِداجي مباشرة، وكانت تلك العلامة تتوافق تماماً مع فكرة تقول إن سببها هو لسعة زنبور أو غرزة شوكة كالتي عُرِضت عليّ. وقد نقلت الجثة إلى المشرحة حيث استطعت إجراء فحص دقيق.

- وما هي النتائج التي توصلت إليها؟

- إن الوفاة قد نتجت عن دخول مادة سامّة قوية إلى مجرى الدم، وقد حدثت الوفاة نتيجة شلل حاد في القلب، ولا بد أن ذلك حدث على الفور تقريباً.

- هل تستطيع أن تخبرنا ما هي تلك المادة السامّة؟

- إنها سُمّ لم أصادفه من قبل.

كتب الصحفيون الذين كانوا يصغون بانتباه: «سُمٌّ غيرُ معروف».

المحقق: شكراً لك. السيد هنري وينترسبون.

كان السيد وينترسبون رجلاً ضخماً، وقد بدا حالماً ذا مظهر رقيق عَطوف، بل إنه قد بدا رقيقاً وأحمق في الوقت ذاته! وبشيء من الصدمة استقبل الجمهور حقيقة أنه كان أحد كبار الخبراء الحكوميين وحجةً في موضوع السموم النادرة.

رفع المحقق الشوكة القاتلة وسأل السيد وينترسبون إن كان يعرفها، فردّ قائلاً: نعم، أعرفها؛ لقد أرسلوها إليّ لأغراض التحليل.

- هل لك أن تخبرنا بنتيجة ذلك التحليل؟

- بالتأكيد. يمكنني القول بأن السهم قد غُمس أصلاً بخلطة من سم الكوراري، وهو سُم سهام تستخدمه بعض القبائل البدائية.

كتب الصحفيون بكثير من الاستمتاع، ومضى المحقق في الأسئلة: أنت تعتقد إذن أن الوفاة ربما كانت بسبب الكوراري؟

- آه، لا؛ فلم يكن على السهم إلاّ أخف أثر ممكن من الخلطة الأصلية. بناء على تحليلي فقد تمّ غمس السهم مؤخراً في

سم ديسفوليدوس تايبوس، وهو سم أفعى الأشجار.

- أفعى الأشجار؟ ما هي أفعى الأشجار؟

- إنها أفعى تعيش في جنوب أفريقيا، وهي من أشرس الأفاعي القاتلة السامّة في الوجود. إن تأثيرها في الإنسان غير معروف، ولكن بالإمكان إعطاء فكرة بسيطة عن الفعالية المركزة لهذا السم إن قلت لك إنه لو حُقن ضبع به لمات قبل سحب الإبرة من جسمه. يسبّب هذا السم نزيفاً حاداً تحت الجلد ويشلّ عمل القلب.

كتب الصحفيون: «قصة من الخيال. مأساة في الجو بسم أفعى أكثر فتكاً من الكوبرا».

المحقق: هل سمعت من قبل عن استخدام هذا السم في قضية تسميم متعمَّد؟

- أبداً؛ إنه أمر في غاية الإثارة.

- شكراً يا سيد وينترسبون.

شهد رقيب التحري ويلسون بعثوره على أنبوب النفخ خلف مسند أحد المقاعد، ولم تكن عليه بصمات أصابع. وقد تمّ إجراء تجارب على السهم وأنبوب النفخ وتبين أن مداهما يحقق إصابات دقيقة إلى حد كبير من بُعد يصل إلى عشرة أمتار.

المحقق: السيد هيركيول بوارو.

سرت موجة اهتمام بين الحضور، ولكن شهادة السيد بوارو كانت متحفظة، فهو لم يرَ أي شيء خارج عن المألوف، وهو الذي وجد السهم الصغير على أرض المقصورة، وقال إن السهم كان في موقع يتناسب مع سقوطه الطبيعي من عنق المرأة القتيلة.

استدعى المحقق الليدي هوربوري، وكتب الصحفيون: زوجة أحد النبلاء تدلي بشهادتها في لغز وفاة في الجو في لغز سم الأفاعي.

أما أولئك الصحفيون الذين يكتبون في الصحافة السنوية فقد كتبوا: ارتدت الليدي هوربوري واحدة من القبعات الجديدة من فرو الثعالب. أو: ارتدت الليدي هوربوري (وهي من أكثر نساء المدينة أناقة) ثياباً سوداء وقبعة جديدة. أو: كانت الليدي هوربوري (التي كانت قبل زواجها الآنسة سيسيلي بلاند) متأنقة في ملابسها السوداء وقبعتها الجديدة...

استمتع الجميع بمتابعة المرأة الأنيقة، مع أن شهادتها كانت من أكثر الشهادات اقتضاباً؛ فهي لم تلاحظ شيئاً ولم يسبق أن رأت القتيلة من قبل قط.

تبعتها فينيشيا كير، ولكنها كانت أقل إثارة بالتأكيد. كتب مزوّدو النساء بالأخبار ممّن لا يصيبهم التعب أبداً: ارتدت ابنة اللورد كوتسمور معطفاً جميلاً وتنّورة وواحداً من تلك الشالات الجديدة... ثم دونوا ملاحظة تقول: نساء المجتمع يخضعن لاستجواب.

بعد ذلك تم استدعاء جيمس رايدر، وقد سأله المحقق: ما هو عملك أو مهنتك؟

- مدير شركة إليس فيل للإسمنت.

- هل لك أن تتلطف بفحص أنبوب النفخ هذا. هل رأيته من قبل؟

- لا.

- ألم تر هذا الشيء في يد أحد من المسافرين على متن الطائرة بروميثيوس؟

- لم أره من قبل.

- لقد كنت تجلس في المقعد رقم ٤ ، أمام القتيلة مباشرة، أليس كذلك؟

- ولنفترض ذلك، فما أهمية الأمر؟

- رجاء لا تتكلم بهذه النبرة معي. كنت تجلس في المقعد رقم ٤ ، ومن ذلك المقعد كنت تستطيع عملياً رؤية جميع مَن في المقصورة.

- لا ، لم أكن قادراً على رؤية الجميع ؛ لم أستطع أن أرى أحداً من أولئك الجالسين في نفس الخط الذي أجلس فيه، إذ إن للمقاعد مساند عالية.

- ولكن لو خرج أحد هؤلاء الناس من مقعده إلى الممر (ليصبح في وضع يسمح له بتصويب أنبوب النفخ إلى القتيلة) لكنت قادراً وقتها على رؤيته. أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- ولكنك لم ترَ شيئاً كهذا؟

- نعم.

- هل تحرك أيّ من الناس الجالسين أمامك فقام عن مقعده؟

- الرجل الذي كان يجلس على بعد مقعدين أمامي نهض وذهب إلى ركن المرافق.

- وقد كان ذلك باتجاه يبعده عنك وعن القتيلة؟

- نعم.

- وهل عبر المقصورة بعد ذلك باتجاهك؟

- لا؛ لقد عاد إلى مقعده مباشرة.

- هل كان يحمل في يده شيئاً؟

- لا شيء على الإطلاق.

- أأنت متأكد من ذلك؟

- تمام التأكد.

- هل تحرك أي شخص آخر من مقعده؟

- الرجل الجالس أمامي. ذهب في الاتجاه المغاير حيث تجاوزني باتجاه نهاية المقصورة.

صرخ السيد كلانسي وقد قفز عن مقعده في المحكمة: إنني أحتجّ. لقد كان ذلك في وقت مبكر... مبكر جداً، في نحو الساعة الواحدة.

المحقق: اجلس من فضلك؛ سنسمع أقوالك عمّا قريب. أكمل يا سيد رايدر: هل لاحظت إن كان هذا السيد يحمل في يده أي شيء؟

- أظن أنه كان يمسك بقلم حبر، وعندما عاد كان يحمل كتاباً برتقالياً.

- هل هو الشخص الوحيد الذي عبر المقصورة باتجاهك؟

وهل تركت أنت أيضاً مقعدك؟

- نعم، ذهبت إلى ركن المرافق، ولم أكن أحمل في يدي أي أنبوب نفخ أيضاً.

- إنك تتحدث بنبرة غير مناسبة أبداً. انزل عن منصة الشهادة.

أدلى السيد نورمان غيل، طبيب الأسنان، بشهادة تتسم بالسلبية. ثم ارتقى السيد كلانسي الغاضب منصة الشهادة، وقد شكّل السيد كلانسي -بالنسبة للصحفيين- خبراً ثانوياً أقل أهمية من خبر الليدي. كتب الصحفيون: كاتب قصص بوليسية يدلي بشهادته، كاتب مشهور يعترف بشرائه سلاحاً قاتلاً، إثارة في المحكمة...

ولكن الحديث عن الإثارة ربما كان سابقاً لأوانه بعض الشيء.

صاح السيد كلانسي بحدّة: نعم يا سيدي؛ لقد اشتريت أنبوب نفخ بالفعل، بل إنني أحضرته معي اليوم. إنني أحتجّ بشدة على الاستنتاج القائل إن أنبوب النفخ الذي ارتُكبت به الجريمة كان أنبوبي. ها هو أنبوبي.

ثم أخرج أنبوب النفخ بزهو المنتصر، وكتب الصحفيون: أنبوب نفخ آخر في المحكمة.

تعامل المحقق مع السيد كلانسي بشدّة. أخبره بأنه هنا ليساعد العدالة لا ليفنّد تُهَماً خيالية ضده. ثم تمّ استجوابه عن الأمور التي حدثت على متن الطائرة، ولكن دون نتيجة تُذكَر. كان السيد كلانسي -كما شرح هو نفسُه بإطناب لا ضرورة له- شارداً تماماً وهو يفكر في شبكة القطارات الأجنبية وتداخل مواعيدها وكيفية

التحسب لذلك في روايته، مما جعله عاجزاً عن ملاحظة أي شيء مما يدور حوله. ولو أن كل مسافري المقصورة تراشقوا بسهام عليها سموم الأفاعي من أنابيب نفخ لما كان السيد كلانسي لينتبه إليهم نتيجة انسجامه ذاك!

لم تُثِر الآنسة جين غري، وهي عاملة في صالون لتصفيف الشعر، أيّ اهتمام في أقلام الصحفيين.

بعد ذلك جاء دور الفرنسيَّين. شهد السيد آرموند دوبون بأنه كان متوجهاً إلى لندن حيث كان من المنتظَر أن يلقي محاضرة في الجمعية الآسيوية الملكية، وقال إنه وابنه كانا منشغلَين تماماً بنقاش فنّي متخصص ولم يلاحظا إلاّ القليل مما دار حولهما، وقال إنه لم ينتبه إلى القتيلة إلاّ بعد أن جذبت انتباهَه موجةُ الإثارة التي أحدثها الكشف عن موتها.

سأله المحقق: هل كنت تعرف مدام موريسو، أو مدام جيزيل هذه؟

- لا يا سيدي؛ لم أرَها من قبل قط.

- ولكنها شخصية معروفة تماماً في باريس، أليس كذلك؟

هزّ السيد دوبون العجوز كتفيه وقال: ليست معروفة بالنسبة لي. وعلى كل حال فإنني لست دائم الإقامة في باريس في هذه الأيام.

- لقد عدتَ مؤخراً من الشرق كما فهمت، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدي، عدت من إيران.

- وسافرت أنت وابنك كثيراً إلى أماكن غريبة في هذا العالم،

أليس كذلك؟

- عفواً، لم أفهمك.

- لقد زرت أماكن غريبة؟

- نعم، هذا صحيح.

- هل صادفت قط جماعة من الناس يستعملون سموم الأفاعي لتسميم السهام؟

تطّلب الأمر ترجمة هذا السؤال، وعندما فهمه السيد دوبون هزّ رأسه نافياً بقوة وقال: أبداً، لم أصادف شيئاً كهذا قط.

تبعه ابنه على منصة الشهادة، وكانت شهادته إعادة لشهادة أبيه. قال إنه لم يلاحظ شيئاً وإنه ظن أن القتيلة ربما أُصيبت بلسعة زنبور، لأن زنبوراً كان قد أزعجه شخصياً مما اضطره إلى قتله أخيراً.

كان السيدان الفرنسيان آخر الشهود.

تنحنح المحقق ثم خاطب هيئة المحلفين قائلاً بأن تلك القضية هي أغربُ قضية نظر فيها في هذه المحكمة وأبعدها عن التصديق، فقد قُتلت امرأة في الجو وفي حيّز صغير مغلَق، ويمكن استبعاد أي احتمال انتحار أو حادث عَرَضي، وليس هناك أي احتمال لارتكاب أي شخص خارجي للجريمة. إن القاتل لا بد أن يكون -بالضرورة- واحداً من أولئك الشهود الذي استمع المحلفون إلى شهادتهم صباح اليوم. لا مهرب من هذه الحقيقة، وهي حقيقة رهيبة مخيفة، فأحد هؤلاء الأشخاص الحاضرين كان يكذب بشكل صريح.

لقد ارتُكبت الجريمة بأسلوب لا مثيل له في جرأته؛ فأمام أنظار عشرة شهود (أو اثني عشر إذا حسبنا المضيفَين) وضع القاتل أنبوب

نفخ بين شفتيه وأطلق السهم القاتل في مسيرة آثمة عبر الهواء، وما من أحد لاحظ هذا العمل. يبدو هذا أمراً لا يُصدَّق، ولكن الدليل موجود، وهو أنبوب النفخ والسهم المرميّ على الأرض، بالإضافة إلى العلامة التي وُجدت على رقبة القتيلة، ثم الدليل الطبي، وكل ذلك يُظهر أن الجريمة قد نُفِّذت بهذا الشكل سواء أصدّقنا ذلك أم لم نصدقه.

وفي غياب أي دليل إضافي يجرّم شخصاً معيناً بذاته، ليس بوسع المحقق أن ينصح هيئة المحلفين إلاّ بأن تصدر حكماً بالقتل ضد شخص أو أشخاص مجهولين، فكل الموجودين أنكروا أية معرفة بالقتيلة، وسوف يكون من واجب الشرطة أن يكشفوا أي علاقة بين القتيلة وأي من باقي المسافرين. وفي غياب أي دافع للجريمة فليس بوسعه إلاّ أن ينصح بإصدار الحكم المذكور آنفاً، وعلى هيئة المحلفين أن تنظر في الحكم الآن.

تقدم عضو في هيئة المحلفين ذو وجه مُربَّع بجسمه إلى الأمام وقال بعينين مرتابتين وأنفاس ثقيلة: هل لي أن أسأل سؤالاً يا سيدي؟

المحقق: بالتأكيد.

المحلَّف: لقد قلت إن أنبوب النفخ قد عُثر عليه تحت أحد المقاعد، فأيّ مقعد كان ذلك؟

راجع المحقق أوراقه، ودنا منه الرقيب ويلسون وهمس له فقال المحقق: آه، نعم؛ المقعد المقصود كان رقم ٩، وكان يجلس فيه السيد هيركيول بوارو. وربما كان مفيداً أن أشير بأنّ السيد بوارو هو رجل تحرٍّ خاص معروف جداً ومحترم جداً، وقد تعاون مرات

عديدة مع شرطة سكوتلنديارد.

حوّل الرجل ذو الوجه المربع نظره إلى وجه السيد هيركيول بوارو، فاستقرت نظراته بشكل أبعد ما يكون عن الاقتناع على الشاربين الضخمين لذلك البلجيكي الضئيل. كانت نظرات ذي الوجه المربع تقول: غرباء، غرباء! لا يمكن للمرء أن يثق بالغرباء حتى لو كانوا من أقرب المقربين إلى الشرطة.

أما بصوته العالي فقد قال: وكان السيد بوارو هو الذي التقط السهم، أليس كذلك؟

المحقق: بلى.

انسحبت هيئة المحلفين للاجتماع، ثم عادت بعد خمس دقائق وسلم رئيسُها ورقة للمحقق الذي تجهم وقال: ما هذا؟ هذا هراء. لا أستطيع قبول هذا الحكم.

بعد دقائق قليلة جاء الحكم المعدَّل: لقد وجدنا أن القتيلة لاقت حتفها بالسم، ولم يتوفر دليل كافٍ يُظهر هوية الجاني.

* * *

الفصل الخامس
بعد الاستجواب

بعد صدور الحكم وفيما كانت جين تغادر المحكمة وجدت نورمان غيل بجانبها ليقول: أتساءل عمّا كان مكتوباً في تلك الورقة ولم يكن المحقق ليقبله بأي ثمن؟

جاءه صوت من الخلف: أظن أن بوسعي أن أخبرك.

التفت الاثنان لتقابل عيناهما عينَي السيد هيركيول بوارو الطارفتين. قال: كان ذلك حكماً بالقتل العمد ضدي أنا.

جين: آه، حقاً!

هزّ بوارو رأسه بثبات وقال: نعم؛ فعندما كنت خارجاً سمعت رجلاً يقول لآخر: تذكّر كلامي، ذلك الأجنبي الضئيل هو الذي ارتكبها! وحتى هيئة المحلفين ترى الرأي نفسه.

لم تكن جين متأكدة إن كان عليها أن تواسيه أو أن تضحك، فاختارت الضحك. وضحك بوارو معها مجامَلةً ثم قال: ولكن عليّ حتماً أن أبدأ العمل لأبرّئ نفسي.

ثم ابتعد بابتسامة وانحناءة خفيفة مشيَّعاً بنظرات جين ونورمان وهو يمضي بعيداً، وقال غيل: يا لهذا المتسول الغريب العجيب!

يزعم أنه من رجال التحري، ولست أدري كيف يمكنه أن يقوم بالتحري؛ فأي مجرم يستطيع تمييزه على بعد ميل. لا أفهم كيف يمكنه إخفاء نفسه!

جين: ألا ترى أن لديك فكرة قديمة الطراز بشأن رجال التحري؟ لقد أصبحَت ممارساتٌ من قَبيل اللحى المستعارة أموراً قديمة بالية. في هذه الأيام يكتفي المحققون بالجلوس والعثور على حلول المشكلات باتّباع الأساليب النفسية.

- هذا أقل عناء.

- ربما كان كذلك بدنياً، ولكن الأمر يتطلب عقلاً صافياً هادئاً بالطبع.

- صحيح، فالعقل العصبي المشوَّش لا ينفع.

وضحك الاثنان، ثم قال غيل وقد صبغت الحمرة خدَّيه وأصبح يتحدث بسرعة نوعاً ما: هل تمانعين... أعني أن ذلك سيكون لطفاً كبيراً منك، مع أن الوقت متأخر قليلاً، ولكن ما رأيك أن نشرب الشاي معاً؟ إنني أشعر أننا زملاء في مصيبة واحدة و...

ثم توقف وقال لنفسه: ما خطبك أيها الأحمق؟ ألا تستطيع دعوة فتاة إلى كوب من الشاي دون أن تتلعثم وتتورد وتجعل من نفسك أضحوكة؟ ما الذي ستقوله الفتاة عنك؟

وقد ساعد اضطراب غيل على إبراز برود جين ورباطة جأشها، وقالت: شكراً جزيلاً، يعجبني فعلاً شرب بعض الشاي.

وجدا مقهى، وتولّت نادلة مترفّعة نكدة الهيئة تسجيل طلبهما بشيء من الشك وكأنها تقول لهما: لا تلوماني إن خاب أملكما!

كان المقهى فارغاً تقريباً، ونزعت جين قفازَيها ونظرت إلى زميلها عبر المائدة. كان جذّاباً فعلاً بعينيه الزرقاوين وابتسامته المشرقة، وكان لطيفاً أيضاً. واندفع غيل إلى الحديث بسرعة، فهو لم يتحرر بعدُ تماماً من ذلك الشعور السخيف بالحرج: إنه أمر غريب... قضية القتل تلك.

- نعم، وأنا قلقة من عواقبها... أعني فيما يخص عملي. لا أدري كيف سيتلقون الأمر.

- نعم، لم أفكر في ذلك.

- قد لا ترغب المؤسّسة التي أعمل بها في توظيف فتاة ارتبط اسمها بجريمة قتل واضطرت إلى الإدلاء بشهادتها!

أجابها غيل وهو يفكر ساهماً: غريب أمر الناس! إن الحياة ظالمة كثيراً؛ فأمر كهذا لا ذنب لك فيه...

- حسناً، إن هذا لم يحدث بعد، وليس من الحكمة أن نزعج أنفسنا لشيء لم يحدث بعد. وأحسب أن هناك سبباً لمثل هذا الموقف عل كل حال، فقد أكون أنا مَن قتل تلك المرأة! وهم يقولون إنك عندما تقتل شخصاً فإنك عادة ما تقتل غيره، ولن يكون من المريح كثيراً أن تسلّم رأسك لشخص من هذا النوع ليصفف لك شعرك!

قال غيل وهو يحملق إليها بعمق: ليس على أي امرئ إلاّ أن ينظر إليك ليعرف أنك لا يمكن أن تقتلي أحداً.

- لست واثقة من ذلك؛ أحياناً يعجبني أن أقتل بعض النساء من عميلاتي لو تأكدت بأنني سأنجو بفعلتي! هناك زبونة بعينها ذات صوت كصوت طائر السّلوى، وهي تتذمر من كل شيء، وأحياناً

أعتقد فعلاً أن قتلها أمر طيب وليس جريمة أبداً. وهكذا ترى بأنني ذات عقل إجرامي تماماً!

- حسناً، ولكنك لم ترتكبي هذه الجريمة على أية حال. أستطيع أنا أن أقسم على ذلك.

- وأستطيع أنا أن أقسم أنك لم ترتكبها أنت أيضاً، ولكن هذا لن يفيدك في شيء إن اعتقد مرضاك أنك ارتكبتها.

بدا غيل ساهماً متفكراً وهو يقول: مرضاي؟ نعم؛ أظن أنك محقة في ذلك. لم أفكر في هذا الأمر. طبيب أسنان ربما يكون قاتلاً مهووساً... ليست هذه بالصورة المغرية.

ثم أضاف فجأة بلا تفكير: هل تمانعين في كوني طبيبَ أسنان؟

- أنا؟ أمانع؟

- ما أعنيه هو أن هناك دوماً شيئاً مضحكاً في طبيب الأسنان؛ إنها ليست مهنة رومَنسية، أما الطبيب العادي فيعامله الجميع باحترام وتقدير.

- هوّن عليك، فطبيب الأسنان أرفع كثيراً من مساعدة مصففة شعر بلا شك.

ضحكا، ثم قال غيل: أشعر أننا سنصبح أصدقاء. وأنت؟

- نعم، أشعر أننا سنصبح كذلك.

- ربما تعشّينا معاً في ليلة قادمة، وربما شاهدنا عرضاً ما.

- شكراً لك.

ساد صمت قصير، ثم سأل غيل: هل أعجبَتك لوبينيه؟

- كانت ممتعة تماماً.

- هل سبق أن ذهبت إليها من قبل؟

- لا، في الحقيقة...

ثم بدأت جين فجأة -وقد شعرت بالثقة- تُفضي بقصة ربحها جائزة السباق، وقد اتفق الاثنان على الجاذبية العامة لسباقات الخيل وعلى تحبيذها وشجبا الموقف غير المتعاطف للحكومة الإنكليزية إزاء هذه السباقات. ثم قطع حديثَهما شاب يرتدي بدلة بنية كان يتسكع حولهما متردداً لبضع دقائق قبل أن يلاحظا وجوده، وقد رفع قبعته وخاطب جين بشيء من الثقة والعفوية قائلاً: الآنسة جين غري؟

- نعم.

- إنني أمثل مجلة «ويكلي هول» يا آنسة غري، وأتساءل إن كنتِ مهتمّة بأن تكتبي لنا مقالة قصيرة حول جريمة القتل الجوية تلك؟ وجهة نظر أحد المسافرين.

- لا أحبّذ ذلك؛ شكراً.

- آه، هيا يا آنسة غري. سندفع مبلغاً جيداً مقابل ذلك.

- كم؟

- خمسين جنيهاً. أو، حسناً، ربما دفعنا أكثر قليلاً. لنقُل: ستين جنيهاً.

- لا أعتقد أن بوسعي ذلك؛ فأنا لا أعرف ما أقوله.

- لا بأس بذلك، فليس مطلوباً منك أن تكتبي المقالة فعلياً.

سيقوم أحد صحفيينا بسؤالك وطلب ملاحظاتك ثم يصوغ المقالة بدلاً منك؛ لن يكلفك هذا أي عناء.

- لكنني أفضّل أن لا أقوم بالأمر.

- ما رأيك بمئة جنيه؟ اسمعي، سأرفع المبلغ إلى مئة جنيه فعلاً، وتعطينا صورة لك.

- لا، لا تعجبني الفكرة.

غيل: عليك إذن أن تمضي من هنا، فالآنسة غري لا تريد أي إزعاج.

التفت إليه الشاب بأمل وقال: السيد غيل، أليس كذلك؟ اسمعني يا سيد غيل، إن كانت الآنسة غري تتحسّس من هذا الموضوع فما رأيك أنت بهذه الفرصة؟ خمسمئة كلمة فقط وسوف أدفع لك ما عرضته على الآنسة غري. وهذه صفقة جيدة لأن ما تقوله امرأة عن مقتل امرأة أخرى أكثر قيمة من الناحية الإخبارية؛ إنني أعرض عليك فرصة جيدة.

- وأنا لا أريدها؛ لن أكتب لك كلمة واحدة.

- سيكون في هذا دعاية جيدة لك، ناهيك عن الأجر. سوف ينتظرك نجاح مهني كبير، فمرضاك قد يقرؤون ما تكتب.

- وهذا ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر.

- ولكنك لا تستطيع النجاح في أي مجال دون دعاية في هذه الأيام.

- ربما كان ذلك صحيحاً، ولكنه يعتمد على نوع الدعاية. آمل أن لا يقرأ أي من مرضاي الصحف وأن لا يعلم أي منهم

بأنني قد ارتبطت بقضية تنطوي على جريمة قتل. والآن لقد سمعت الجواب منا كلينا، فهل ستنسحب بهدوء أم سأضطر إلى إلقائك خارج المقهى؟

لم يزعج هذا التهديد بالعنف الصحفيّ الشاب؛ إذ قال: لا شيء يستحق انزعاجكما. طاب مساؤكما، ولتتصلا بي في المكتب إن غيرتما رأيكما. ها هي بطاقة عنواني.

وخرج من المقهى بثبات وهو يفكر مع نفسه: لم يكن الأمر سيئاً؛ لقد أجريت مقابلة جيدة.

وفي الحقيقة فقد خرج العدد التالي من مجلة «ويكلي هول» بعمود صحفي عن آراء اثنين من الشهود بشأن لغز جريمة القتل في الجو؛ فقد صرحت الآنسة جين غري بأنها متألمة إلى الحد الذي لا تستطيع معه أن تتحدث عن القضية، فقد كانت الجريمة صدمة عنيفة لها وهي تكره التفكير فيها. كما أسهب السيد نورمان غيل في الحديث عن تأثير ذكر اسمه مرتبطاً بجريمة قتل في حياته المِهَنية مهما كان بريئاً. وقد عبّر السيد غيل -مازحاً- عن أمله في أن لا يكون مرضاه من قرّاء صفحات الحوادث كيلا يتوقعوا أسوأ العواقب عندما يأتون ليخضعوا لكرسي التعذيب في عيادته!

* * *

عندما غادر الصحفي الشاب المقهى قالت جين: إني لأتساءل: لماذا لم يلجأ هذا الصحفي إلى الأشخاص الأكثر أهمية؟

غيل: ربما تركهم لرؤسائه. ثم أضاف متجهّماً: وربما جرب حظه معهم وفشل.

قطب غيل جبينه لحظات ثم قال: حسناً يا جين (سأدعوك جين، وأرجو أن لا يكون لديك مانع من ذلك)، مَن تظنين أنه قاتل تلك المرأة؟

- ليست لديّ أدنى فكرة.

- هل فكرت في ذلك؟ هل فكرت في الأمر حقاً؟

- في الحقيقة لم أفعل، لا أحسبني فكرت في ذلك ملياً، فقد كنت أفكر بدوري ونصيبي من هذه المشكلة وأقلق قليلاً. إنني أتساءل الآن فعلاً عمّن فعلها من الآخرين، وما أحسبني أدركت إلاّ اليوم أن القاتل لا بد أن يكون واحداً منهم.

- نعم، لقد عبّر المحقق عن ذلك بكل وضوح. أعرف بأنني لم أقتلها أنا، وأعرف بأنك لم تقتليها أنت لأنني... لأنني كنت أراقبك طوال الوقت.

- نعم، وأنا أعلم أنك لم تقتلها لنفس السبب، كما أعرف طبعاً أنني لم أقتلها أنا! إذن فلا بدّ أن الفاعل هو أحد الآخرين، ولكنني لا أعرف: من منهم؟ ليست لديّ أية فكرة. هل لديك أفكار أنت؟

قال غيل: لا.

وبدا عليه التفكير العميق وكأنه يريد أن يُخرِج من حيرته حلاً ما أو تسلسلاً للأفكار، ومضت جين قائلة: كما أنني لا أفهم كيف لنا أن نخرج بأية فكرة، أعني أننا لم نرَ أي شيء... أنا لم أرَ شيئاً على الأقل، فهل رأيت أنت أي شيء؟

هزّ غيل رأسه بالنفي وقال: أبداً.

- وهذا هو ما يبدو غريباً إلى حد مخيف. يمكنني القول بأنك لم ترَ شيئاً ولم يكن ذلك ممكناً، فأنت لم تكن متجهاً في ذلك الاتجاه. ولكني كنت متجهة باتجاه القتيلة وكنت أطلّ على وسط المقصورة مباشرة. أعني أنه كان بوسعي ربما...

سكتت جين واحمرّت وجنتاها. كانت تتذكر أن عينيها كانتا مركّزتين أغلب الوقت على السترة الزرقاء، وأن عقلها كان أبعد ما يكون عن فهم ما يدور حولها منشغلاً بشكل رئيسي بشخصية ذلك الإنسان الذي يرتديها.

فكر نورمان غيل مع نفسه: إنني أتساءل ما الذي يجعلها تتورّدُ وجنتاها على هذا النحو؟ إنها رائعة! لا بد أن أتزوجها؛ نعم، سوف أتزوج بها. ولكن ليس من الحكمة استباق الأمور. لا بد أن أختلق عذراً جيداً لكي أراها كثيراً، وقد تصلح قضية القتل هذه عذراً مناسباً. ومن الأفضل أيضاً أن أفعل شيئاً بشأن ذلك الصحفي المتطفل ودعايته.

ثم قال بصوت مسموع: لنفكر في القضية الآن. مَن قتلها؟ دعينا نستعرض الجميع. المضيفان؟

- لا.

- أوافقك الرأي. المرأة التي كانت تجلس مقابلنا؟

- لا أحسب أن أحداً كالليدي هوربوري يمكن أن يقتل. والمرأة الأخرى أيضاً، الآنسة كير، أرى أن مواصفاتها كأرستقراطية إقطاعية لا تسمح لها بذلك. لم تكن لتقتل عجوزاً فرنسية، أنا واثقة من ذلك.

- تقصدين أن كل همّها ينحصر في رحلات صيد الثعالب؟ لا

أظنك أخطأت كثيراً. حسناً، لدينا أيضاً السيد ذو الشارب الكبير... ولكن هيئة المحلفين ترى أنه أكثر المشكوك فيهم، وهذا ما يجعلنا نستبعده. الطبيب؟ لا يبدو محتمَلاً أيضاً.

- لو أراد الطبيب قتلها لكان بوسعه استعمال وسيلة لا يمكن اكتشافها، ولم يكن أحد ليعرف بالأمر.

- نعم، تلك السموم التي لا طعم لها ولا رائحة ولا يمكن اكتشافها كانت كافية تماماً، ولكنني أشك إن كان هناك حقاً مثل هذه السموم. ماذا عن ذلك الرجل الضئيل الذي يمتلك أنبوب نفخ بالفعل؟

- ذلك يبعث على الارتياب بعض الشيء، ولكنه يبدو لطيفاً جداً.

- هناك أيضاً جيمسن. لا، ما هو اسمه؟ رايدر.

- نعم، ربما كان هو.

- والفرنسيان؟

- إنهما أكثر من يبعث على الريبة؛ فقد زارا أماكن غريبة بعيدة وربما كان لديهما سبب لا نعرف عنه شيئاً. لقد خُيّل إليّ أن الابن بدا تعيساً وقلقاً تماماً.

أجابها غيل بتجهم: ربما كنت ستقلقين لو ارتكبتِ جريمة قتل.

- مع أنه بدا لطيفاً، والأب العجوز كان ودوداً أيضاً. أتمنى أن لا يكونا الفاعلَين.

- يبدو أننا لا نتقدم سريعاً في بحثنا.

- لا أدري كيف يمكننا أن نتقدم دون أن نعرف كثيراً من الأمور بشأن العجوز التي قُتلت: أعداؤها، مَن سيرث ثروتها، وأمثال هذه الأمور.

قال نورمان غيل وهو يفكر بإمعان: هل تعتقدين أن تفسيراتنا هذه محض تأملات حيادية كسولة؟

فأجابته جين ببرود: أليست كذلك؟

- أبداً.

قالها بتردد، ثم مضى قائلاً ببطء: لديّ شعور بأن هذا قد يكون مفيداً.

نظرت إليه جين بتساؤل، فمضى قائلاً: إن القتل لا يعني الضحية والجاني فحسب، بل هو يؤثر في الأبرياء أيضاً. نحن كلانا بريئان، ولكن ظلّ القتل يلامسنا، ونحن لا نعرف كيف سيؤثر هذا الظل في حياتنا.

كانت جين امرأة تتمتع بفطرة سليمة تقيس الأمور بعقل بارد هادئ، ولكنها ارتعدت فجأة وقالت: لا تقل ذلك؛ لقد جعلتني أشعر بالخوف.

قال غيل: أنا نفسي خائف قليلاً.

* * *

الفصل السادس
مشاورات

انضم هيركيول بوارو ثانية إلى صديقة المفتش جاب الذي علت وجهَه تقطيبة وقال: مرحى أيها العجوز. لقد أفلتَّ بأعجوبة من أنشوطة كادت ترميك في زنازين الشرطة.

ردّ بوارو قائلاً: أخشى أن مثل هذا الأمر من شأنه أن يحطمني مهنياً.

- حسناً، يتكشف رجال التحري أحياناً ليظهروا مجرمين... لكن في الروايات بالطبع.

انضم إليهما رجل طويل نحيل ذو وجه ذكي مكتئب، وقدمه جاب قائلاً: أقدم لك السيد فورنييه من الأمن الفرنسي، لقد جاء ليتعاون معنا في هذه القضية.

انحنى السيد فورنييه وصافح بوارو قائلاً: أظن أنني تشرفت بمقابلتك ذات مرة منذ بضع سنوات يا سيد بوارو، وقد سمعت عنك أيضاً من السيد جيرو.

لاحت على وجه السيد فورنييه ابتسامة باهتة خفية تماماً، أما بوارو فقد سمح لنفسه برسم ابتسامة صغيرة متحفظة بالمقابل وهو

يتخيل تماماً المفردات التي استعملها جيرو في وصفه، ذلك الرجل الذي كان بوارو نفسه معتاداً على الإشارة إليه استخفافاً على أنه «كلب الصيد البشري».

قال بوارو: أقترح -أيها السيدان- أن تتناولا معي طعام العشاء في منزلي، فقد دعوت السيد ميتر تيبو. هذا إن كنت أنت وصديقي جاب لا تمانعان في اشتراكي في الأمر.

ربّت جاب على ظهر بوارو بأريحية وقال: لا بأس في ذلك أيها الديك العجوز، فأنت جزء من هذه القضية منذ مراحلها الأولى.

ثم تمتم الفرنسي باحتفالية بالغة: سوف يشرّفنا هذا بالتأكيد.

قال بوارو: إنكما تدركان أنني -كما قلت قبل قليل لفتاة رائعة الجمال- توّاق إلى تبرئة نفسي.

وافقه جاب الذي جدد تكشيرته وقال: لا بد أن هيئة المحلفين تلك لم يعجبها شكلك. إنها أفضل نكتة سمعتها منذ زمن طويل!

وحسب موافقة الجميع فلم تتم الإشارة إلى القضية خلال تناول العشاء الرائع الذي قدمه البلجيكيّ الضئيل لأصدقائه، والذي علّق فورنييه عليه قائلاً: من الممكن حقاً -رغم كل شيء- أن يأكل المرء بشكل جيد في إنكلترا.

قال تيبو: إنها وجبة لذيذة يا سيد بوارو.

جاب: مُفَرْنَسَة قليلاً، ولكنها جيدة تماماً.

بوارو: ينبغي دوماً أن لا تثقل وجبة الطعام على المعدة؛ ينبغي أن لا تكون من الثقل بحيث تشلّ التفكير.

جاب: إن معدتي لا تسبب لي أياً من المشكلات، ولكنني لن

أناقش هذه النقطة. حسناً، من الأفضل أن نبدأ العمل، فأنا أعرف أن لدى السيد تيبو موعداً هذه الليلة، ولذلك أقترح أن نبدأ باستشارته في نقطة قد تبدو مفيدة للتحقيق.

تيبو: أنا في خدمتكم أيها السادة، ومن الطبيعي أنني أستطيع الحديث هنا بحرّية أكبر مما كانت عليه الحال في محكمة التحقيق. لقد أجريت حواراً سريعاً مع المفتش جاب قبل الاستجواب، وقد أشار عليّ باتباع سياسة التحفظ في الكلام والتصريح بالحقائق المجردة الضرورية فقط.

جاب: هذا صحيح تماماً، فليس على المرء أن يهرِفَ بكل ما يعرف. والآن لنسمع منك كل ما تعرفه عن هذه المرأة، جيزيل.

تيبو: بصراحة أنا لا أعرف عنها إلاّ القليل القليل؛ إنني أعرفها كما يعرفها عامة الناس ولا أعرف إلاّ القليل عن حياتها الخاصة. ربما يستطيع السيد فورنييه أن يخبركم بأكثر مما أستطيع، ولكنني سأقول لكم ما يلي: لقد كانت مدام جيزيل شخصية فريدة من نوعها. لا يُعرَف عن ماضيها الشيء الكثير، ولديّ انطباع بأنها كانت على جانب من الحسن في شبابها، ولعلها فقدت حسنها بسبب مرض الجدري. كانت امرأة (وأنا هنا أعطيكم انطباعاتي الخاصة) تحب السلطة وتمتلك السلطة. كانت سيدة أعمال ذكية قوية، من ذلك النوع من الفرنسيات العنيدات اللاتي لا يسمحن للعاطفة بأن تؤثر في مصالحهن التجارية، ولكنها ذات شهرة في القيام بأعمالها وممارسة مهنتها بأمانة ونزاهة تصل إلى حد الوسوسة.

ونظر تيبو إلى فورنييه طالباً تأييده، فهزّ الأخير رأسه وقال: نعم، لقد كانت نزيهة... بمعاييرها هي. ومع ذلك فقد كان بوسع القانون أن يستدعيها للمساءلة لو توفر فقط دليل على أعمالها،

ولكن ذلك كان أكثر من أن يُطلب إذا ما أخذنا النفس البشرية بعين الاعتبار.

سأل جاب: ماذا تعني؟

- التخويف بالتشهير.

- هل تعني الابتزاز؟

- نعم، ابتزاز من نوع خاص ومتخصص. لقد كان من عادة مدام جيزيل أن تقرض أموالاً بالطريقة التي تسمونها عندكم ورقة مكتوبة وموقَّعة فقط، وقد استخدمت حذرها وكتمانها فيما يتعلق بالمبالغ التي أقرضتها وطرق سدادها، ولكني أستطيع أن أؤكد لكم أنها كانت تمتلك وسائلها الخاصة لاسترداد ديونها.

مال بوارو بجسمه إلى الأمام باهتمام فيما أكمل فورنييه: كما قال السيد تيبو اليوم، فقد كان زبائن مدام جيزيل من أفراد الطبقات العليا، وتلك الطبقات ضعيفة بشكل خاص أمام قوة الرأي العام. وقد كانت لمدام جيزيل مخابراتها الخاصة، وكان من عادتها قبل إقراض المال (لا سيما في حال المبالغ الكبيرة) أن تجمع أكبر قدر من الحقائق عن الزبون المَعني. ويمكنني القول إن نظامها الاستخباري كان جيداً بشكل استثنائي، وسأكرر ما قاله صديقنا هنا، فقد كانت مدام جيزيل -بمقتضى معاييرها- أمينة نزيهة إلى حد الوسوسة. كانت تثق بأولئك الذين يثقون بها ولا تخذُلهم، وأعتقد صادقاً أنها لم تستخدم قط معلوماتها السرية بهدف الحصول على المال من أي شخص ما لم يكن ذلك الشخص مَديناً لها بالمال.

بوارو: هل تعني أن تلك المعلومات السرية كانت صِمام الأمان عندها؟

- بالضبط. وقد كانت عديمة الشفقة تماماً في استخدامها تلك المعلومات، وكانت تَصُمّ أذنها عن أية مشاعر مهما بلغت رقتها. وبوسعي أن أؤكد لكم أيها السادة ما يلي: لقد نجحت طريقتها ولم تضطر إلى شطب دين معدوم إلا في حالات نادرة جداً جداً؛ إذ إن رجلاً أو امرأة في مكان مرموق من شأنه أن يفعل الأفاعيل ليحصل على المال الذي يجنّبه فضيحة مُدَوّية. وكما قلت: كنا نعلم بنشاطاتها، أما بشأن مقاضاتها فهذا أمر مختلف تماماً. إن الطبيعة البشرية تبقى كما هي.

بوارو: وإذا افترضنا حدوث ما قلت بأنه نادر الحدوث، واضطرت إلى شطب دَين معدوم. فما الذي كان يحدث؟

- عندها كانت تنشر المعلومات التي تمتلكها أو تسربها إلى الشخص المعني بالقضية.

سادت لحظت من الصمت، ثم عاد بوارو ليقول: ولكن هذا لم يكن لينفعها مالياً، أليس كذلك؟

- نعم، على الأقل ليس بشكل مباشر.

- وبشكل غير مباشر.

قال جاب: بشكل غير مباشر، من شأن ذلك أن يجعل الآخرين حريصين على سداد ديونهم.

فورنييه: بالضبط، كان ذلك مهمّاً بسبب ما تسميه بالتأثير المعنوي.

جاب: بل أسميه أنا التأثير اللاأخلاقي. حسناً، إن هذا يفتح لنا باباً واسعاً من دوافع القتل، وهو باب كبير حقاً. ثم إن هناك قضية

مَن سيرث القتيلة. هل تستطيع مساعدتنا في هذا المجال يا سيد تيبو؟

تيبو: كانت لها ابنة، ولكنها لا تعيش مع أمها، وأحسب أن أمها لم ترَها منذ كانت طفلة صغيرة. ولكنها حررت وصية منذ سنوات طويلة تترك فيها كل شيء لابنتها آن موريسو، إلا مبلغاً بسيطاً لخادمتها. وحسب علمي فإنها لم تكتب وصية غيرها.

بوارو: وهل ثروتها ضخمة؟

تيبو: تخميني أنها تبلغ ثمانية ملايين فرنك أو تسعة.

زمّ بوارو شفتيه في صفير دهشة، وقال جاب: يا إلهي، لا يبدو هذا عليها! كم هو سعر الفرنك الآن؟ لا بد أن ثروتها تزيد على مئة ألف جنيه!

بوارو: ستكون الآنسة آن موريسو شابة ثرية جداً.

جاب: نعمتها الأخرى أنها لم تكن على متن تلك الطائرة، وإلاّ لكانت الشكوك حامت حولها بأنها قتلت أمها للفوز بالتركة. كم تراها تبلغ من العمر؟

تيبو: لا يمكنني التحديد فعلاً. أظن أنها بحدود الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين.

جاب: حسناً، لا يبدو أنها مرتبطة بهذه الجريمة بأي سبب. سوف نضطر إلى متابعة مسألة الابتزاز تلك. إن كل مَن كان على متن تلك الطائرة ينكر معرفته بالمدام جيزيل. واحد من هؤلاء يكذب، وعلينا أن نحدد هويته. إن فحصاً لأوراقها الخاصة قد يفيد في هذا المجال، أليس كذلك يا فورنييه؟

- يا صديقي، ما إن وصلتني الأخبار حتى ذهبت إلى بيتها مباشرة بعد أن تحادثت مع شرطة سكوتلنديارد بالهاتف. كانت هناك خزنة تحوي أوراقاً، ولكن كل تلك الأوراق أُحرقت كلها.

جاب: أحرقت؟! من حرقها؟ ولماذا؟

فورنييه: إن لدى مدام جيزيل خادمة أمينة خاصة اسمها إليس، وقد كان لدى إليس تعليمات تقضي بأن تقوم في حال حدوث أي مكروه لسيدتها بفتح الخزنة (التي تعرف رموزها) وحرق محتوياتها.

حدق جاب وقال: ماذا؟ ولكن هذا مذهل!

فورنييه: كانت لدى مدام جيزيل -كما ترى- طريقتها الخاصة؛ كانت تثق بأولئك الذين يثقون بها. لقد وعدت زبائنها بأن تتعامل معهم بصدق ونزاهة. صحيحٌ أنها كانت لا ترحم، ولكنها كانت أيضاً امرأة تلتزم بكلمتها.

هزّ جاب رأسه بحيرة، وصمت الرجال الأربعة وهم يفكرون في الشخصية الغريبة للمرأة الميتة.

نهض تيبو وقال: ينبغي أن أترككم أيها السادة، فإن لديّ موعداً. إن كانت هناك أية معلومات إضافية أستطيع تزويدكم بها فأنتم تعرفون عنواني.

ثم صافحهم بحفاوة وغادر الشقة.

* * *

الفصل السابع
احتمالات

بعد مغادرة السيد تيبو اقترب الرجال الثلاثة بمقاعدهم من الطاولة وقال جاب: والآن، دعونا ندخل في الموضوع. لقد كان في تلك الطائرة أحد عشر راكباً، أعني في مقصورتها الخلفية فالآخرون لم يدخلوا إليها. أحد عشر راكباً ومضيفان، أي أنّ لدينا ثلاثة عشر راكباً. **واحدٌ من الركاب الاثني عشر الباقين قتل المرأة**، وقد كان بعض الركاب من الإنكليز وبعضهم الآخر فرنسيين. أما الفرنسيون فسأترك أمرهم للسيد فورنييه، وسأتولى أنا أمر الإنكليز. ثم إن هناك تحقيقات ينبغي أن تتم في باريس، وهذه مهمتك أيضاً يا فورنييه.

قال فورنييه: ليس في باريس فقط؛ ففي الصيف كانت مدام جيزيل تقوم بالكثير من الأعمال في المنتجعات الفرنسية مثل دوفيل ولوبينيه، كما أنها كانت تسافر جنوباً أيضاً إلى آنتيب ونيس وأمثال هذه الأماكن.

قال جاب: "هذه نقطة جيدة، فكثير من الناس الذين كانوا في الطائرة ذكروا لوبينيه كما أذكر". ثم أخرج مخططاً مرسوماً لمقصورة الطائرة ووضعه على الطاولة قائلاً: نحن حاضرون الآن للعمل الأوّلي، فلنبدأ باستعراض الركاب واحداً واحداً ونقرر بشأن

الاحتمالات والإمكانيات.

قال فورنييه: نستطيع -بدايةً- أن نستبعد السيد بوارو، وهذا يقلّص العدد إلى أحد عشر.

هزّ بوارو رأسه بحزن وقال: ما أسهل ما تثق بالناس يا صديقي! ينبغي أن لا تثق بأحد أبداً، أبداً.

قال جاب مازحاً: حسناً، سنبقيك في دائرة الشك إن أحببت. ثم إن لدينا المضيفَين. ويبدو لي -من باب الاحتمالات- أن من غير المحتمَل أن يكون أي منهما متورطاً، فلا يحتمل أن يكونا قد استدانا مالاً بكميات كبيرة، وكلاهما ذو سجل نظيف. إنهما رجلان شريفان واعيان، وسوف أدهش كثيراً إن كان لأي منهما علاقة بهذا الأمر. من جانب آخر، ومن باب الإمكانية، علينا أن لا نستثنيهما، فقد كانا يتنقلان في المقصورة بحرّية وكان بوسعهما عملياً اتخاذ موضع يستطيعان منه استعمال أنبوب النفخ ذاك، أعني من الزاوية الصحيحة، مع أنني لا أعتقد أن مضيفاً يستطيع إطلاق سهم مسموم من أنبوب نفخ في مقصورة مليئة بالناس دون أن يلاحظه أحد وهو يقوم بذلك. إنني أعلم بالخبرة أنّ أغلب الناس أشد عَمَىً من الوطاويط، ولكن لكل شيء حدوداً. إن مسألة رؤية الفاعل هذه تنطبق بشكل أو بآخر على كل شخص موجود، فقد كان من الجنون، بل الجنون المطلق، ارتكاب جريمة بهذه الطريقة؛ إذ لا يحتمَل نجاحها دون أن تكتشَف بأكثر من واحد في المئة. لا بد أن الشخص الذي ارتكبها له حظّ كبير، فمن بين كل الطرق اللعينة الغبية في ارتكاب الجريمة...

قاطعه بوارو الذي كان جالساً بهدوء وعيناه إلى الأسفل متسائلاً: هل تعتقد أنها كانت طريقة غبية لارتكاب جريمة قتل؟

جاب: طبعاً كانت غبية، إنها جنون مطلق.

بوارو: ولكنها نجحت رغم ذلك. إننا نجلس هنا نحن الثلاثة ونتحدث عن الجريمة **ولكننا لا نعرف مَن ارتكبها**، وهذا هو النجاح!

جاب: بل هو الحظ المحض، فقد كان المفترَض أن يستطيع خمسة مسافرين أو ستة أن يروا القاتل.

هزّ بوارو رأسه غيرَ مقتنع بما يسمع، فنظر فورنييه إليه بفضول وسأله: ما الذي يدور في ذهنك يا سيد بوارو؟

- يا صديقي، إن قصدي هو التالي: إن أية قضية يجب أن تقاس بنتائجها، وقد نجحت هذه الجريمة. هذا هو قصدي.

أجابه المحقق الفرنسي متأملاً: ومع ذلك فإنها تبدو أقرب إلى المعجزة.

جاب: معجزة أو غير معجزة، لقد حصلت؛ فلدينا الدليل الطبي ولدينا سلاح الجريمة. ولو أن أحداً أخبرني قبل أسبوع بأنني سأحقق في جريمة قتل امرأة بسهم مسموم بسُمّ أفعى لكنت ضحكت في وجهه! إنها إهانة... هذا ما تعنيه جريمة القتل هذه؛ إهانة!

سحب نفَساً عميقاً، وابتسم بوارو. أما فورنييه فقال متأملاً: ربما كانت هذه جريمة ارتكبها شخص يتمتع بروح دعابة شريرة. إن من أهم الأمور في أية جريمة أن تكوّن فكرة عن سيكولوجية القاتل.

أطلق جاب شخرة خفيفة تعليقاً على كلمة «سيكولوجية» التي كان يكرهها ولا يثق بها، ثم قال: هذه هي القصص التي يحب السيد

بوارو سماعها.

بوارو: إنني مهتم جداً بالفعل فيما تقولانه كلاكما.

سأله جاب بارتياب: لا أحسبك تظن أن المسكينة قد قُتلت بتلك الطريقة؟ إنني أعرف عقلك الملتوي.

بوارو: لا، لا يا صديقي. إن عقلي مرتاح تماماً فيما يتعلق بهذه النقطة؛ لقد كانت الشوكة المسمومة التي التقطتُها هي سبب الوفاة، هذا أكيد تماماً. ولكنّ في هذه القضية -مع ذلك- نقاطاً...

وتوقف وهو يهز رأسه بحيرة، فتابع جاب حديثه: حسناً، لنعد إلى مشكلتنا. إننا لا نستطيع استبعاد المضيفَين كلياً، ولكنني شخصياً أعتقد بأن تورط أحدهما في هذا الأمر مسألة بعيدة الاحتمال تماماً. هل توافقني يا سيد بوارو؟

- آه، تذكر ما قلتُه بالنسبة لي أنا نفسي: أنا لا أستبعد أحداً مطلقاً في هذه المرحلة.

جاب: انظر إلى الأمر كما تشاء. والآن إلى المسافرين. دعنا نبدأ من البداية، من حيث المرافق وغرفة الأطعمة والمشروبات. المقعد رقم ١٦ (وأشار بقلمه إلى الخريطة): إنه مقعد الفتاة مصففةِ الشعر، جين غري. فازت بجائزة في سباق الخيل الإيرلندي وبدّدتها في لوبينيه، وهذا يعني أن الفتاة مقامرة. وربما كانت قد أفلست واستدانت من المرأة العجوز، ولكن لا يبدو مرجَّحاً اقتراضُها مبلغاً كبيراً، ولا أظن أن لجيزيل مآخذ عليها. إنها تبدو سمكة أصغر مما نبحث عنه، كما أنني لا أعتقد أن هناك أية فرصة -مهما كانت بعيدة- يمكن فيها لمساعدة مصففة شعر أن تصل إلى سم أفعى، فهم لا يستعملون السم في صبغ الشعر أو تدليك الوجه! لقد كان

استخدام سم الأفاعي خطأ بطريقة ما، فهذا يقلص دائرة المشتبه فيهم، فلن تجد أكثر من اثنين في كل مئة شخص قد يملكان أية معرفة بموضوع سموم الأفاعي ويستطيعان الوصول إليها.

بوارو: وهذا ما يجعل أمراً واحداً واضحاً تماماً على الأقل.

هذه المرة كان فورنييه هو الذي رماه بنظرة سريعة متسائلة، أما جاب فقد كان مشغولاً بأفكاره وهو يقول: إنني أرى الأمر على النحو التالي: لا بد أن يكون القاتل واحداً من نوعين من الناس؛ فإما أن يكون رجلاً جالَ في أماكن غريبة في العالم، رجلاً يعرف شيئاً عن الأفاعي ويعرف أيُّها أكثر فتكاً ويعرف عن عادات القبائل التي تستعمل السم للتخلص من أعدائها. هذا هو النوع الأول.

بوارو: والثاني؟

- الثاني هو رجل يعمل في المجال العلمي، في البحوث. إن سموم أفاعي الأشجار هذه هو ما تجري عليه الأبحاث في المختبرات المتقدمة. لقد تحدثت قليلاً مع وينترسبون، ويبدو أن سم الأفعى (ولا سيّما سم أفعى الكوبرا) يستعمل في الأدوية أحياناً، وهو يُستعمل لمعالجة الصرع بقدر لا بأس به من النجاح.

فورنييه: إنه أمر ممتع وذو إيحاء.

جاب: نعم، ولكن دعنا نستمر. إن أياً من هذين النمطين لا يناسب تلك الفتاة، جين غري. فهي لا دافع لها فيما يبدو، وفرص حصولها على السم ضعيفة، كما أن قدرتها على النفخ بالأنبوب مشكوكٌ فيها كثيراً، بل إنها تقرُبُ من الاستحالة. انظرا هنا.

انحنى الرجال الثلاثة فوق مخطط الطائرة، وقال جاب: ها هو المقعد رقم ١٦ وهذا هو المقعد رقم ٢ حيث كانت تجلس

القتيلة، وبين المقعدين الكثير من الناس والمقاعد. فإن كانت الفتاة لم تتحرك من مقعدها (وهو أمرٌ أكّده الجميع) فليس بوسعها أن توجه تلك الشوكة لتصيب بها جيزيل في جانب رقبتها. أعتقد أننا نستطيع اعتبارها خارج الموضوع. وأيضاً لدينا المقعد رقم ١٢ الذي يقابلها، وهو مقعد طبيب الأسنان نورمان غيل. إن كثيراً من الكلام الذي قلناه عن الفتاة ينطبق عليه، وهو الآخر يشكّل سمكة صغيرة، وأحسب فقط أن فرصته في الحصول على سم الأفاعي ربما كانت أكبر قليلاً من فرصة الفتاة.

تمتم بوارو برفق قائلاً: إنها ليست الحقنة التي يفضلها أطباء الأسنان عادة.

جاب: على أية حال يكفي طبيب الأسنان ما يفعله بمرضاه! ولكنني أحسب -مع ذلك- أن بوسعه أن يتحرك في دوائر ومرافق يمكن للمرء فيها أن يصل إلى أمور لا تخطر بالبال في مجال الأدوية، وربما كان له صديق من العلماء. ولكن فيما يخص إمكانية قيامه بالجريمة فهو يكاد يكون بريئاً تماماً. لقد غادر مقعده بالفعل، ولكن إلى المرافق فقط، وهي في الاتجاه المعاكس. وفي طريق عودته إلى مقعده لا يمكن أن يكون قد ذهب أبعد من الممر هنا، وحتى يستطيع إطلاق شوكة من أنبوب نفخ فتصيب عنق السيدة العجوز لا بد أن تكون لديه شوكة مدربّة تستطيع القيام بالحيل والانعطاف نحو اليمين! ولذلك فإنه يكاد يكون بريئاً تماماً.

فورنييه: أوافقك الرأي؛ لنستمر.

جاب: حسناً، في الجانب المقابل عبر الممر لدينا المقعد رقم ١٧.

بوارو: كان هذا مقعدي في البداية، ثم أعطيته لواحدة من السيدتين لأنها رغبت في الجلوس مع صديقتها.

جاب: تلك هي فينيشيا كير. حسناً، ماذا عنها؟ إنها صيد ثمين، وربما كانت قد اقترضت من جيزيل. إنها لا تبدو وكأنها ذات أسرار شائنة في حياتها، ولكن ربما تكون قد خسرت رهاناً ما أو سباق خيل كائناً ما كان اسمه. سيكون علينا الانتباه إليها قليلاً، فموقعها مناسب. لو التفتت جيزيل برأسها قليلاً لتنظر من النافذة لكان بوسع فينيشيا أن توجه ضربة مرتاحة بخط مائل عبر المقصورة، مع أنها ستكون ضربة حظ نوعاً ما، ولعلها كانت بحاجة إلى الوقوف حتى تستطيع القيام بذلك. إنها من أولئك النساء اللاتي يخرجن إلى الصيد في الخريف، ولا أدري إن كانت مهارة الصيد بالبندقية أو الرماية بالمسدس تساعد المرء عندما يتعلق الأمر بأنبوب نفخ؟ أحسب أن كلا الأمرين متشابهان من حيث خبرة الرماية والتصويب بالعين. وربما كان لها أصدقاء من الصيادين الماهرين في مناطق غريبة من العالم، ويمكن أن تكون قد حصلت على مادة غريبة بهذه الطريقة... ولكن الأمر كله يبدو هراء في هراء؛ إنه أمر لا معنى له!

فورنييه: يبدو الأمر مستبعَداً بالفعل، فقد رأيت الآنسة كير في الاستجواب اليوم، ولا يمكن للمرء أن يربطها بجريمة قتل.

جاب: المقعد ١٣ جلست عليه الليدي هوربوري، وهي امرأة صعدت من العدم تقريباً لتصبح صاحبة ألقاب. إنني أعرف عنها شيئاً سأخبركم به في الحال، ولن يدهشني أن يكون لها سرٌّ يقلقها.

فورنييه: لقد علمت بأن السيدة المعنية كانت تخسر خسائر فادحة على مائدة القمار في لوبينيه.

جاب: هذه نباهة منك. نعم؛ إنها من ذلك النوع الذي يمكن أن يتورط ويتعامل مع جيزيل.

فورنييه: أوافقك تماماً.

جاب: حتى الآن تسير الأمور بشكل جيد. ولكن كيف ارتَكبت الجريمة؟ إنها لم تغادر مقعدها أيضاً كما تذكرون، وكانت ستضطر إلى أن تجثو بركبتيها على مقعدها وتتكئ بجسمها على المسند ووجهها إلى الخلف لتقوم بذلك وعشرة أشخاص ينظرون إليها. آه، تباً! لنستمر في البحث.

قال فورنييه وهو يمضي بأصابعه على الخريطة: المقعدان ٩ و١٠.

جاب: السيد هيركيول بوارو والدكتور برايانت، ما الذي يقوله السيد بوارو عن نفسه؟

قال بوارو شاكياً: إنها معدتي مع الأسف. من المؤسف أن يكون الدماغ خادماً للمعدة!

أجاب فورنييه متعاطفاً وهو يغمض عينيه ويهزّ رأسه بشكل معبّر: وأنا أيضاً لا أشعر بأنني على ما يرام حين أكون في الجو.

جاب: إذن لدينا الآن الدكتور برايانت، فماذا عنه؟ إنه طبيب كبير في شارع الأطباء، شارع هارلي. صحيح أنه لا يُحتمَل كثيراً أن يذهب إلى امرأة فرنسية تقرض المال، ولكن مَن يدري؟ فلو أن أية مشكلة سخيفة برزت في عمل الطبيب لانتهى عمله طَوال حياته! وهنا يأتي دور نظريتي حول المختصين علمياً، فرجل مثل برايانت وهو في قمة نجاحه المهني يكون على صلة وثيقة بكل العاملين في مجال البحوث الطبية، وبوسعه أن يسرق أنبوب اختبار من سم

الأفاعي بكل سهولة عندما يجد نفسه في مختبر كبير.

قال بوارو معترضاً: إنهم يدققون على تلك المواد يا صديقي، والأمر ليس زهرة تُقطَف من حديقة.

جاب: حتى لو كانوا يدققون على هذه المواد، بوسع رجل ذكي أن يستبدل بها مادة لا تضرّ. هذا ممكن تماماً لأن رجلاً مثل برايانت سيكون فوق الشبهات.

فورنييه: في كلامك كثير من الصحة.

جاب: السؤال الوحيد هو: لماذا جذب الانتباه إلى الأمر؟ لماذا لم يقل بأن المرأة قد ماتت من سكتة قلبية موتاً طبيعياً؟

تنحنح بوارو فنظر إليه كلاهما متسائلَين، فقال: أتصور أن ذلك كان هو الانطباع الأول للطبيب؛ فقد بدا موتها على أية حال وكأنه موت طبيعي ولعله نتج من لسعة زنبور، وقد كان هناك زنبور كما تعرفون.

جاب: لا يبدو أنك ستنسى ذلك الزنبور، فأنت تذكره دائماً.

بوارو: ولكني لاحظت الشوكة القاتلة على الأرض فالتقطتها، وما إن وجدناها حتى بدأ كل شيء يشير إلى وقوع جريمة.

جاب: ولكن الشوكة كان سيُعثَر عليها على أية حال.

هزّ بوارو رأسه نافياً وقال: ربما سنحت فرصةٌ استطاع القاتل أن يلتقط فيها الشوكة دون أن ينتبه إليه أحد.

جاب: برايانت؟

بوارو: برايانت أو غيره.

جاب: همم، ولكن الأمر سيكون مخاطرة.

عارضه فورنييه قائلاً: هذا ما تظنه الآن لأنك تعرف أن موتها كان جريمة قتل، ولكن عندما تموت سيدة فجأة نتيجة أزمة قلبية ويرمي شخص ما منديله على الأرض ثم ينحني لالتقاطه، فمَن الذي سيلاحظ ذلك التصرف أو يشك فيه أدنى شك؟

وافق جاب قائلاً: هذا صحيح. حسناً، أظن أن برايانت على قائمة المشتبه فيهم. كان بوسعه أن يحني رأسه عند زاوية مقعده وينفخ بالأنبوب بخط مائل عبر المقصورة. ولكن لماذا لم يرَه أحد؟ حسناً، لن أعود إلى هذا الموضوع ثانية. إن الفاعل لم يُرَ كائناً مَن كان.

فورنييه: وأعتقد أنه لا بد من سبب لذلك، وهو سبب سيروق للسيد بوارو. أعني أنه سبب سيكولوجي.

بوارو: استمر يا صاحبي، إن ما تقوله الآن مثير.

فورنييه: لنفترض أنك مررت وأنت مسافر في القطار ببيت تشتعل فيه النيران. سوف تتجه عيون الجميع فوراً إلى النافذة، سيركز الجميع انتباههم على نقطة معينة، وبوسع رجل في مثل تلك اللحظة أن يسحب خنجراً ويطعن شخصاً ولن يراه أحد وهو يقوم بذلك.

بوارو: هذا صحيح. أتذكّر قضية كنت معيناً بها تمّت فيها إثارة هذه النقطة ذاتها. كانت هناك «لحظة سيكولوجية» كما أسميها، فإذا عرفنا أن لحظة كهذه مرّت خلال رحلة الطائرة بروميثيوس...

جاب: يجب علينا أن نصل إلى ذلك باستجواب المضيفين والركاب.

بوارو: صحيح، ولكن إن كانت هناك حقاً مثل هذه اللحظة السيكولوجية، فإن ما يترتب عليها منطقياً هو أنّ سبب تلك اللحظة قد نتج عن القاتل. لا بد أنه كان قادراً على صناعة التأثير الخاص الذي أدى إلى تلك اللحظة.

فورنييه: تماماً، تماماً.

جاب: حسناً، سندوّن ذلك كنقطة في الاستجوابات. أنتقل الآن إلى المقعد رقم ٨، دانيال مايكل كلانسي.

نطق جاب الاسم بشيء من التلذذ، ثم مضى قائلاً: برأيي فإن هذا الرجل هو المشتبَه الأكبر؛ فمن السهل على كاتب قصص بوليسية أن يدّعي اهتماماً بسموم الأفاعي فيحصل على ذلك السم من عالم كيمياء غافل. ولا تنسيا أنه مرّ بمقعد جيزيل في طريقه إلى نهاية المقصورة، وهو الراكب الوحيد الذي فعل ذلك.

بوارو: أؤكد لك أنني لم أنس تلك النقطة يا صديقي.

كان يتكلم بشيء من التوكيد، ولكنه جاب مضى قائلاً: كان بوسعه أن يستخدم ذلك الأنبوب من منطقة قريبة كثيراً دون أية حاجة للحظة سيكولوجية كما تسمونها، وكانت فرصته في النجاة بجريمته كبيرة. تذكّروا أنه يعرف كل شيء عن أنابيب النفخ؛ هو الذي قال ذلك.

بوارو: ولعل هذه الحقيقة هي التي تجعل المرء يتردد.

جاب: إنه مكر خالص، وكذلك الأمر بالنسبة لأنبوب النفخ الذي أبرزه اليوم. مَن يمكن أن يؤكد قوله إن هذا الأنبوب هو الأنبوب الذي اشتراه من سنتين؟ إن وضع هذا الرجل كله يبدو لي مُريباً. لا أظن أن أي إنسان يعيش على الجريمة وعلى الكتب

البوليسية يمكن أن يبقى طبيعياً، فهو يقرأ كل أنواع القضايا ويضع في رأسه أفكاراً.

بوارو: ولكن من الضروري بالتأكيد بالنسبة للكاتب أن تكون له أفكار في رأسه.

عاد جاب إلى مخطط الطائرة قائلاً: المقعد رقم ٤ كان لرايدر، وهو المقعد الواقع أمام المرأة القتيلة. لا أظن أنه الفاعل ولكننا لا نستطيع استبعاده، فقد ذهب إلى المرافق وربما أطلق رمية في أثناء عودته ومن مكان قريب تماماً. الصعوبة الوحيدة هي أنه كان سيقف مقابل رَجُلي الآثار تماماً عندما يفعل ذلك، وكانا سيلاحظان الأمر لو حدث، فلا يمكنهما إلاّ ملاحظته.

هز بوارو رأسه بارتياب وقال: ربما لم تعرف كثيراً من علماء الآثار، أليس كذلك؟ إن كان هذان العالمان منهمكَين في حوار يشغلهما فعلاً حول نقطة خلافية فلك -يا صديقي- أن تعتبر أن تركيزهما سيكون من الشدة بحيث يصبحان أصمَّين أعميَيْن تماماً ومعزولَين عن العالم الخارجي. إنهما سيعيشان في تلك اللحظة قبل خمسة آلاف عام، ويكون عام ١٩٣٥ بعد الميلاد وكأنه لم يأتِ بالنسبة إليهما!

بدا جاب متشككاً قليلاً، ثم قال: حسناً، سوف ننتقل إليهما. ما الذي تستطيع إخبارنا به عنهما يا فورنييه؟

فورنييه: السيد آرمون دوبون واحد من أبرز علماء الآثار في فرنسا.

جاب: هذا لا يفيدنا كثيراً. إن موقعهما في المقصورة ممتاز من وجهة نظري، مقابل معقد جيزيل عبر الممر، ولكنّ مقعديهما

متقدمان قليلاً عن مقعدها. وأحسب أنهما قد جالا العالم طولاً وعرضاً وقاما بحفريات فاستخرجا أشياء كثيرة في أماكن غريبة من العالم، وربما كان من السهل عليهما الحصول على بعض سم الأفاعي من مكان ما.

فورنييه: هذا ممكن، نعم.

جاب: ولكنك لا تراه محتمَلاً، أليس كذلك؟

هزّ فورنييه رأسه مشكّكاً وقال: السيد دوبون يعيش من أجل مهنته، وهو متحمس لها. كان في السابق تاجر تحف قديمة، ثم تخلى عن عمل تجاري ناجح وهو في طور الازدهار والتطور لكي يجنّد نفسه للتنقيب عن الآثار. وهو وابنه كلاهما منصرفان إلى عملهما قلباً وروحاً، ويبدو لي أن من غير المحتمَل أن تكون لهما علاقة بهذه القضية. إنني أقول إن هذا غير محتمَل ولا أقول إنه مستحيل، فمنذ نتائج قضية ستافيسكي أصبحت مستعداً لتصديق أي شيء.

رفع جاب الورقة التي كان يسجل عليها ملاحظاته، وتنحنح ثم قال: حسناً، ها هو الموقف الآن. جين غري: الاحتمال ضعيف، الإمكانية معدومة عملياً. غيل: الاحتمال ضعيف، الإمكانية معدومة عملياً أيضاً. الآنسة كير: الاحتمال بعيد تماماً، الإمكانية مشكوك فيها. الليدي هوربوري: الاحتمال جيد، الإمكانية معدومة عملياً. السيد بوارو: نكاد نجزم أنه المجرم، فهو الرجل الوحيد بين الركاب الذي يستطيع ابتكار لحظة سيكولوجية.

أطلق جاب ضحكة مدوية تعليقاً على نكتته الصغيرة، وابتسم بوارو بتسامح وفورنييه بشيء من الحياء. ثم مضى جاب قائلاً:

برايانت: الاحتمال والإمكانية كلاهما جيدان. كلانسي: الدافع مشكوك فيه، الاحتمال والإمكانية جيدان جداً. رايدر: الاحتمال غير أكيد، والإمكانية معقولة تماماً. السيدان دوبون: الاحتمال ضعيف فيما يتعلق بالدوافع، وجيد من حيث وسيلة الحصول على السم، والإمكانية جيدة. هذا ملخّص معقول تماماً للوضع كما أعتقد، بقدر ما يمكننا أن نعرف الآن. سوف نضطر إلى إجراء تحقيقات روتينية، وسأتولى أنا كلانسي وبرايانت أولاً وأعرف آخر أخبارهما ومشاريعهما، فلعلهما تعثرا بأية مصاعب في أي وقت في الماضي أو كان القلق أو الانزعاج قد لوحظ عليهما مؤخراً. سوف أتابع تحركاتهما خلال العام الماضي أيضاً، كما سأقوم بنفس التحريات عن رايدر. وليس من المناسب إهمال الباقين إجمالاً، لذلك سنطلب من ويلسون أن يجمع المعلومات عنهم، والسيد فورنييه سيتولى أمر السيدين دوبون.

هزّ رجل الأمن الفرنسي رأسه وقال: كن على ثقة بأنني سأتولى ذلك؛ سوف أعود إلى باريس هذه الليلة، وربما كان هناك ما يمكن استخراجه من إليس خادمة جيزيل. كما أنني سوف أتحرى بدقة تامة تحركات جيزيل، فسيكون من المفيد لنا أن نعرف أين كانت خلال الصيف. أعلمُ أنها ذهبت إلى لوبينيه مرة أو مرتين، ويمكننا الحصول على بعض المعلومات الخاصة باتصالاتها ببعض الأشخاص. نعم، أمامنا الكثير مما ينبغي عمله.

ونظر الاثنان إلى بوارو الذي كان منشغلاً يفكّر، وسأله جاب: هل ستساعدنا يا سيد بوارو؟

اعتدل بوارو في جلسته وقال: نعم، أظن أنني أودّ مرافقة السيد فورنييه إلى باريس.

فأجابه الرجل: يسعدني ذلك.

نظر جاب إلى بوارو بفضول وقال: إنني أتساءل: ما الذي تسعى إليه؟ لقد كنت صامتاً تماماً طَوال مداولاتنا في القضية، فهل لديك أي من أفكارك الصغيرة تلك؟

بوارو: لدي بعضها بالفعل، ولكن الطريق ما يزال صعباً جداً.

جاب: دعنا نسمع شيئاً من أفكارك.

بوارو: المكان الذي عُثر فيه على أنبوب النفخ هو أحد الأشياء التي تقلقني.

جاب: هذا طبيعي؛ فقد كاد هذا يودي بك!

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: لا أقصد ذلك؛ لا يقلقني أنه كان مرمياً تحت مقعدي، بل إن ما يقلقني هو رميُه تحت أي مقعد.

جاب: أنا لا أرى شيئاً في ذلك، فقد اضطر الفاعل -بغضّ النظر عن هويته- إلى إخفاء هذا الأنبوب في مكان ما، فليس بوسعه تحمّل مجازفة اكتشافه معه.

بوارو: بالتأكيد، ولكن ربما لاحظت -يا صديقي- عندما فتشتَ الطائرة أنه، ورغم أن النوافذ لا تُفتَح، إلاّ أنّ في زجاج كل نافذة عدداً من الثقوب الدائرية التي يمكن أن تفتح وتغلق بإدارة صفيحة زجاجية لأغراض التهوية، وهذه الثقوب متّسعة تماماً لينفذ أنبوب النفخ هذا منها. فأية وسيلة للتخلص من الأنبوب تكون أسهل من هذه؟ سوف يقع الأنبوب على الأرض الواسعة تحت الطائرة ولا يُحتمَل أبداً أن يتم العثور عليه في أي وقت.

جاب: يمكنني أن أجد اعتراضاً على هذا التحليل. لقد كان القاتل خائفاً من أن يراه أحد عندما يدفع أنبوب النفخ في الثقب، فربما يلاحظه أحد المسافرين.

بوارو: أي أنه لم يكن خائفاً أن يراه أحد حين وضع أنبوب النفخ في فمه ورشَق السهم القاتل، لكنه خاف أن يراه أحد وهو يدفع الأنبوب من ثقب النافذة؟!

جاب: أعترف بأن هذا يبدو سخيفاً، ولكن هذا ما حصل. لقد أخفى أنبوب النفخ فعلاً خلف مسند أحد المقاعد، ولا نستطيع أن ننكر ذلك.

لم يجبه بوارو، وسأله فورنييه بفضول: هل يوحي لك هذا بأية فكرة؟

حنى بوارو رأسه موافقاً وقال: إنه يفسح المجال أمام تأملات عميقة.

وبحركة من أصابعه، وبلا تفكير، عدّل بوارو المحبرة التي لم تُستخدَم، وكانت يد جاب العصبية قد وضعتها بطريقة غير مرتبة. ثم رفع قبعته بحدة وقال: بالمناسبة، ألديك تلك القائمة التفصيلية لكل مقتنيات وحوائج المسافرين التي طلبت منك إحضارها لي؟

* * *

الفصل الثامن
القائمة

قال جاب: أنا رجل أحافظ على كلمتي.

ثم ضحك ودس يده في جيبه فأخرج منها مجموعة أوراق مطوية وقال: هاكَها، كل شيء هنا حتى أصغر التفاصيل. وسأعترف بأنّ فيها شيئاً واحداً يثير الفضول، وسأخبرك به عندما تنتهي من قراءة المعلومات.

فتح بوارو الأوراق على الطاولة وبدأ يقرأ، فيما اقترب منه فورنييه ليتابع الأوراق من فوق كتفه.

جيمس رايدر

الجيوب: منديل كتّاني، محفظة نقود، سبعة جنيهات، ثلاث بطاقات تعريف، رسالة من الشريك جورج إيبرمان يأمل فيها "أن تكون مفاوضات القرض قد تمّت بنجاح وإلاّ فسنكون في موقف صعب"، رسالة على ورق رخيص وبخط رديء بتوقيع مودي تضرب موعداً في تروكاديرو في الليلة التالية، علبة سجائر فضية، علبة ثقاب، قلم حبر، مجموعة من المفاتيح، نقود معدنية صغيرة فرنسية وإنكليزية.

الحقيبة اليدوية: مجموعة من الأوراق المتعلقة بصفقات إسمنت، نسخة من كتاب «فنجان بلا قاعدة» (وهو محظور في هذا البلد)، علبة تحتوي على علاجات الزكام الفورية.

الدكتور برايانت

الجيوب: منديلان، محفظة نقود تحوي عشرين جنيهاً و٥٠٠ فرنك فرنسي، نقود معدنية فرنسية وإنكليزية، دفتر مواعيد، علبة سجائر، قدّاحة، قلم حبر، مجموعة مفاتيح.

يحمل آلة فلوت وحقيبتها. ويحمل كتاب «مذكرات بينفينيتو سيليني» وكتاب «أمراض الأذن».

نورمان غيل

الجيوب: منديل حريري، محفظة نقود تحتوي على جنيه إنكليزي واحد و٦٠٠ فرنك فرنسي، نقود معدنية متفرقة، بطاقات تعريف بشركتين فرنسيتين تصنعان أدوات طب الأسنان، علبة ثقاب فارغة، قدّاحة فضية، غليون من خشب الخلنج، كيس تبغ مطاطي، مفتاح.

الحقيبة اليدوية: معطف كتّاني أبيض، مرآتا أسنان صغيرتان، لفائف قطن للأسنان، مجلات متنوعة.

آرمون دوبون

الجيوب: محفظة نقود تحوي ١٠٠٠ فرنك وعشرة جنيهات إنكليزية، نظارة في محفظتها، نقود معدنية فرنسية، منديل قطني، علبة سجائر، علبة ثقاب، نكّاشة أسنان.

الحقيبة اليدوية: مخطوطة للمحاضرة المقترَحة في الجمعية الآسيوية الملكية، نشرتان ألمانيتان للآثار، ورقتان عليهما رسوماتُ

أوانٍ خزفية رُسمت على عَجَل، أنابيب فارغة عليها نقوش (وقيل إنها الأنابيب التي تُصنَع منها المزامير الكردية)، صينية صغيرة عليها نقوش على شكل سلال، تسع صور متفرقة كلها لأوان خزفية.

جان دوبون

الجيوب: محفظة نقود تحتوي على خمسة جنيهات إنكليزية و٣٠٠ فرنك، علبة سجائر، مَبسم سجائر من العاج، قدّاحة، قلم حبر، قلما رصاص، دفتر ملاحظات صغير مليء بالملاحظات السريعة، رسالة باللغة الإنكليزية من السيد مارينر يدعوه فيها لتناول الغداء في مطعم قرب شارع توتنهام كورت، نقود معدنية فرنسية.

دانيال كلانسي

الجيوب: منديل ملطخ بالحبر، قلم حبر يسرّبُ حبراً، محفظة تحوي أربعة جنيهات و١٠٠ فرنك، ثلاث قُصاصات من صحف تتحدث عن جرائم حدثت مؤخراً إحداها تسميم بالزرنيخ والاثنتان الأخريان حول الاختلاس، رسالتان من وكلاء عقار تحتويان على تفاصيل أملاك ريفية، دفتر مواعيد، أربعة أقلام رصاص، مطواة، ثلاثة وصولات وأربع فواتير غير مدفوعة، رسالة، لعبة كلمات متقاطعة نصف محلولة مأخوذة من صحيفة التايمز، دفتر ملاحظات فيه مشاريع حبكات قصصية، نقود معدنية إيطالية وفرنسية وسويسرية وإنكليزية، فاتورة فندق مستلمة في نابولي، مجموعة ضخمة من المفاتيح.

في جيوب المعطف: مُسوَّدة ملاحظات لكتاب «جريمة قتل في فيزوفيوس»، كتاب «برادشو»، كرة غولف، زوج جوارب، فرشاة أسنان، فاتورة فندق مستلمة في باريس.

الآنسة كير

حقيبة الزينة: أحمر شفاه، مبسمان للسجائر أحدهما عاجي والآخر من حجر اليَشْم، كعكة، علبة سجائر، علبة ثُقاب، منديل، جنيهان إنكليزيان، نقود معدنية، خطاب اعتماد، مفاتيح.

الحقيبة اليدوية: قوارير، فراشي، أمشاط، أدوات تقليم الأظافر، حقيبة حمام صغيرة فيها فرشاة أسنان وإسفنجة ومعجون تنظيف الأسنان، صابونة، مقصان، خمس رسائل من العائلة والأصدقاء في إنكلترا، روايتان، صورة لكلبين من نوع سبينال.

تحمل معها مجلة التدبير المنزلي الجيد.

الآنسة غري

الحقيبة اليدوية: أحمر شفاه، أحمر خدود، كعكة، مفتاحان، قلم رصاص، علبة سجائر، مِبْسم سجائر، علبة ثقاب، منديلان، فاتورة فندق مدفوعة في لوبينيه، كتاب صغير بعنوان «الجُمَل الفرنسية»، محفظة نقود فيها مئة فرنك، نقود معدنية فرنسية وإنكليزية، فيشة كازينو بقيمة خمسة فرنكات.

في جيوب معطف السفر: ست بطاقات بريدية لباريس، منديلان ووشاح حريري، رسالة بتوقيع غلاديس، أنبوبة أسبرين.

الليدي هوربوري

حقيبة الزينة: نوعان من أحمر الشفاه، أحمر خدود، كعكة، منديل، ثلاث أوراق نقدية من فئة ألف فرنك، ستة جنيهات، نقود معدنية فرنسية، خاتم ألماس، خمسة طوابع فرنسية، مبسمان للسجائر، قدّاحة مع علبتها.

الحقيبة اليدوية: عُدّة زينة كاملة، عدة تقليم أظافر فاخرة من الذهب، قارورة صغيرة كتب عليها بالحبر: بودرة البوريك.

* * *

عندما وصل بوارو إلى نهاية القائمة وضع جاب إصبعه على آخر بند في القائمة قائلاً: كان ذكاء من صاحبنا. لقد عرف بأن هذه القارورة لا تنسجم مع بقية الموجودات، أعني بودرة البوريك. يا إلهي؛ لقد كان المسحوق الأبيض في تلك القارورة هو الكوكائين!

اتسعت عينا بوارو ثم هزّ رأسه ببطء.

جاب: ربما لا يكون لذلك علاقة قوية بقضيتنا، ولكنك تعرف -بلا شك- أن امرأة مدمنة على الكوكائين لا يكون لديها رادع أخلاقي كبير. ولكني أشك رغم ذلك في امتلاكها الشجاعة الكافية للقيام بمثل هذه الجريمة بنجاح، وبصراحة لا أظن أنها كان يمكن أن تقوم بها، فالأمر كله عسير بعض الشيء.

جمع بوارو الأوراق المطبوعة المنثورة وأعاد قراءتها كلها من جديد، ثم وضعها ثانية وهو يتنهد وقال: ظاهرياً تشير الأمور -كما يبدو بوضوح- إلى قيام شخص واحد بارتكاب الجريمة، ومع ذلك فلا أفهم لماذا أو كيف!

حدق جاب إليه وقال: هل تدّعي أنك قد كوّنت فكرة عن الفاعل بقراءتك هذه الأوراق؟

بوارو: أظن ذلك.

أخذ جاب الأوراق وراح يقرؤها بإمعان وهو يعطي فورنييه كل ورقة ينتهي منها، ثم ضرب الأوراق على الطاولة وحدّق إلى

بوارو قائلاً: هل تسخر مني يا سيد بوارو؟

- لا، لا، ما هذه الفكرة؟

وضع الفرنسي بدوره الأوراق على الطاولة، فسأله بوارو: وماذا عنك يا فورنييه؟

هزّ فورنييه رأسه وقال: قد أكون غبياً، ولكنني لا أرى أن هذه القائمة تتقدم بنا كثيراً إلى الأمام.

بوارو: نعم، إذا أُخِذت بمفردها. ولكن إن ربطتها مع بعض ملامح القضية ألا ترى شيئاً؟

- حسناً، قد أكون مخطئاً، مخطئاً تماماً.

جاب: حسناً، أتحِفْنا بنظريتك، فأنا مهتم بسماعها.

هزّ بوارو رأسه وقال: لا، فهي مجرد نظرية كما قلت. كنت آمل أن أعثر على شيء معين في تلك القائمة وقد عثرت عليه. إنه هنا ولكنه يشير إلى الاتجاه الخطأ؛ الدليل الصحيح لدى الشخص الخطأ! وهذا يعني أن أمامنا الكثير لنقوم به، وهناك حقاً كثيرٌ لم يزل غامضاً بالنسبة لي. إنني لا أستطيع رؤية طريقي، حقائق قليلة فقط هي التي تبرز أمامي وترتب نفسها في نمط ذي معنى. ألا تجدان الأمر هكذا؟ أرى أنكما لا توافقانني. ليعمل كل واحد على فكرته إذن، ليس لديّ أي شيء مؤكد، مجرد شك ما.

قال جاب: أظن أن كلامك ليس سوى ضرب أخماس في أسداس. ثم نهض قائلاً: حسناً، يكفي ما فعلناه اليوم. سأتولى أنا جانب لندن في القضية، وأنت تعود إلى باريس يا فورنييه. وماذا عن السيد بوارو؟

بوارو: ما زلت أتمنى مرافقة السيد فورنييه إلى باريس، الآن أكثر من أي وقت مضى.

جاب: أكثر من أي وقت مضى؟ بودي فقط أن أعرف نوع النزوة التي في دماغك.

بوارو: النزوة؟ هذا ليس ظريفاً!

صافح فورنييه السيد بوارو بحفاوة وقال له: أتمنى لك ليلة سعيدة، مع شكري البالغ على حسن ضيافتك. سنلتقي في كرويدون صباح الغد إذن؟

بوارو: تماماً، إلى اللقاء غداً.

فورنييه: دعنا نأمل أن لا يقتلنا أحد في أثناء الرحلة.

وغادر المحققان.

* * *

لبث بوارو برهةً وكأنه في حلم، ثم نهض ورفع جميع البقايا وآثار الفوضى وأفرغ صحون السجائر وعدّل وضع الكراسي.

ذهب إلى طاولة جانبية فأخذ نسخة من مجلة «سكيتش» وقلّب الصفحات حتى الصفحة التي يبحث عنها. كان عنوان الصفحة: «الليدي هوربوري والسيد ريموند باراكلاو في لوبينيه». نظر إلى صورة الاثنين يضحكان على شاطئ البحر وقد تشابكت أذرعهما وقال: عجباً! ربما استطاع المرء أن يفعل شيئاً على ضوء هذه المؤشرات. نعم، هذا ممكن.

* * *

الفصل التاسع
إليس غرانديه

كان الطقس في اليوم التالي رائعاً تماماً إلى الحد الذي دفع حتى هيركيول بوارو إلى الاعتراف بأن معدته كانت على أفضل حال. كان الاثنان يسافران هذه المرة في رحلة الساعة التاسعة إلاّ ربعاً إلى باريس، وكان في مقصورة الطائرة سبعة مسافرين أو ثمانية بالإضافة إلى بوارو وفورنييه، وقد استغل المحقق الفرنسي الرحلةَ ليقوم ببعض التجارب، حيث أخرج من جيبه قطعة صغيرة من عود خيزران ورفعها إلى شفتيه ثلاث مرات خلال الرحلة وهو يوجهها في كل مرة اتجاهاً معيناً. فعل ذلك مرة وهو ينحني حول زاوية مقعده، ومرة أخرى وهو يمدّ رأسه جانباً، ومرة عندما كان عائداً من المرافق. وفي كل مناسبة كانت عيناه تقعان على راكب أو آخر ينظر إليه بدهشة كبيرة، وفي المرة الأخيرة بدت كل عين في المقصورة وكأنها مثبَّتة عليه.

غرق فورنييه في مقعده مُحبَطاً، ولم تبهجه كثيراً رؤيته لاستمتاع بوارو الظاهر. قال: أأنت مستمتع يا صديقي؟ ولكنك توافقني على ضرورة إجراء التجارب، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. بل إنني معجب حقاً بتعمقك، فليس أفضل من

تمثيل الأمر عياناً. إنك تلعب دور القاتل مع أنبوب النفخ، والنتيجة واضحة تماماً: الجميع شاهدوك!

- ليس الجميع.

- ربما ليس الجميع بمعنى من المعاني، ففي كل مناسبة يوجد شخص لا يرى، ولكن هذا ليس كافياً للقاتل الناجح، إذ ينبغي أن يكون متأكداً إلى حد بعيد بأن أحداً لا يراه.

- وهذا مستحيل في الظروف العادية؛ ولذلك فإنني أتمسك بنظريتي القائلة بأنه لا بد من وجود ظروف استثنائية غريبة... اللحظة السيكولوجية! كانت هناك بالتأكيد لحظة سيكولوجية تركّز فيها انتباه الآخرين جميعاً على موضوع آخر لمدة طويلة نسبياً.

- سيقوم صديقنا المحقق جاب بإجراء تحريات دقيقة عن تلك النقطة.

- ألا توافقني يا سيد بوارو؟

تردّد بوارو لحظة، ثم قال ببطء: إنني أوافقك على أنه كان هناك... على أنه لا بد من سبب سيكولوجي يبرر أن أحداً لم يَرَ القاتل، ولكن أفكاري تجري في مسار مختلف قليلاً عن مسارك. أنا أشعر بأن الحقائق العينية وحدَها قد تكون خادعة في هذا القضية. أغمض عينيك يا صديقي بدلاً من فتحهما على آخرهما، استعمل عين العقل لا عين الجسد، دع تلك الخلايا الرمادية الصغيرة في الدماغ تعمل؛ اترك لتلك الخلايا أن تُرِيَك ما حدث بالفعل.

حدّق فورنييه إليه بفضول وقال: إنني لا أفهمك يا سيد بوارو.

- ذلك لأنك تبني استنتاجاتك على أشياء رأيتَها، ولا شيء

يمكن أن يكون أكثر تضليلاً من الملاحظة.

هزّ فورنييه رأسه ثانية ومدّ يديه قائلاً: إنني أستسلم، فأنا لا أستطيع فهم ما تعنيه!

- سيحثّك صديقنا جيرو على أن لا تلقي بالاً لأوهامي، وسوف يقول لك: كن يقظاً ومتحركاً، فإن الجلوس على مقعد والتأمل إنما هي طريقة عجوز فات زمانُه. ولكنني أقول إن كلباً شاباً متحمساً عادة ما يكون متلهفاً على رائحة الطريدة إلى الحد الذي يجعله يتجاوزها دون الشعور بها، ومن أجل مثل هذا الكلب وُضع اختبار سمكة الرنكة الحمراء التي توضع لتضليل الكلاب عند التمرين. حسناً، ها قد أعطيتك إشارة وتلميحاً ممتازاً هنا.

ثم استند بوارو إلى الخلف وأغمض عينيه، وقد كان من شأن ذلك أن يوحي بأنه سيفكر، ولكن الأمر الأكيد تماماً هو أنه غطّ في نوم سريع بعد خمس دقائق!

* * *

ذهب الرجلان فور وصولهما إلى باريس إلى المنزل رقم ٣ في شارع جولييت، وهو شارع يقع على الجانب الجنوبي لنهر السين، ولم يكن ذلك المنزل متميزاً من سائر المنازل بأي شيء.

أدخلهما بوّابٌ عجوز قدّم لفورنييه تحية جافية وقال: إذن فها هم رجال الشرطة يعودون مرة أخرى! لا شيء سوى المتاعب. إن هذا سيجلب السمعة السيئة إلى هذا البيت.

ثم عاد إلى غرفته متذمراً، فقال فورنييه: سنذهب إلى مكتب جيزيل، إنه في الطابق الأول.

وأخرج من جيبه مفتاحاً فيما كان يتحدث شارحاً أن رجال الشرطة الفرنسية قد قاموا احتياطاً بقَفْل وختم الباب انتظاراً لنتائج الاستجواب الإنكليزي، ثم أكمل قائلاً: ولكن لا يبدو أن في هذا المنزل ما ينفعنا.

أزال الختم عن الباب وفتحه، ثم دخلا. كان مكتب مدام جيزيل شقة صغيرة قليلة التهوية فيها خزنة من النوع القديم في إحدى الزوايا، ومكتب عملي المظهر وبضعة مقاعد رديئة التنجيد. كانت النافذة الوحيدة متسخة، وبدا أنها ربما لم تُفتح من قبل.

رفع فورنييه كتفيه وهو يقلب نظره في المكان قائلاً: هل رأيت؟ لا شيء على الإطلاق.

دار بوارو إلى خلف المكتب وجلس على كرسيه ونظر إلى فورنييه من ورائه، ثم مرر يده برفق على السطح الخشبي للمكتب، ثم مررها على سطحه الداخلي من الأسفل وقال: يوجد جرس هنا.

- نعم، وهو يرنّ عند البوّاب في الأسفل.

- آه، احتياط ذكي، فزبائن المدام ربما أصبحوا مشاكسين أحياناً.

ثم فتح دُرْجاً أو درجين، وكانت فيهما أدوات قرطاسية ومفكرة تقويم وأقلام حبر ورصاص، ولكن لم يكن في الدرج أوراق وما من شيء ذي طبيعة شخصية خاصة.

ألقى بوارو نظرة عَجْلى على هذه المحتويات ثم قال: لن أزعجك يا صديقي وأفتّش المكان بدقة مرة أخرى، فلو كان فيه شيء لكنتَ قد وجدتَه، أنا واثق من ذلك.

ثم نظر إلى الخزنة وقال: ليست من النوع عالي الكفاءة، أليس كذلك؟

فورنييه: إنها من طراز قديم بعض الشيء.

- هل كانت فارغة؟

- نعم، تلك الخادمة اللعينة دمّرت كل شيء.

- آه، نعم، الخادمة... الخادمة المؤتمَنة! يجب أن نراها. هذه الغرفة ليس فيها ما ينفعنا كما قلتُ، ولكن ذلك له مغزاه، ألا تعتقد ذلك؟

- ما الذي تعنيه بقولك «مغزاه» يا سيد بوارو؟

- أعني أنه ليس في هذه الغرفة أية مسحة شخصية، وأنا أجد ذلك مثيراً للاهتمام.

أجابه فورنييه بجفاء: إنها لم تكن امرأة ذات أحاسيس ومشاعر.

نهض بوارو قائلاً: هيا، لنقابل هذه الخادمة، هذه الخادمة المؤتمَنة كثيراً.

* * *

كانت إليس غراندييه امرأة قصيرة بدينة في منتصف عمرها، ذات وجه متورد وعينين صغيرتين حادتين انتقلنا بسرعة من وجه فورنييه إلى وجه صاحبه ثم عادتا ثانية إلى وجه فورنييه.

قال فورنييه: تفضلي بالجلوس يا آنسة غرانديه.

إليس: شكراً يا سيدي.

جلست بهدوء ورباطة جأش، فسألها فورنييه: لقد عدنا اليوم (السيد بوارو وأنا) من لندن، وقد تم التحقيق في وفاة مدام جيزيل بالأمس وليس ثمة شك بأن السيدة قد سُمِّمت.

هزّت المرأة الفرنسية رأسها بوقار وقالت: إن ما تقوله فظيع يا سيدي. السيدة سُمّمت؟! من كان يمكن أن يحلم بشيء كهذا؟

فورنييه: ربما كان هذا هو السؤال الذي تستطيعين مساعدتنا للإجابة عنه يا آنسة.

إليس: بالتأكيد يا سيدي، سأفعل بالطبع كل ما أستطيعه لمساعدة الشرطة. ولكنني لا أعرف شيئاً، لا شيء على الإطلاق.

قال فورنييه بحدّة: إنك تعرفين بأن السيدة كان لها أعداء، أليس كذلك؟

- هذا ليس صحيحاً. ولماذا يكون للسيدة أعداء؟

أجابها فورنييه بجفاء: هيا، هيا يا آنسة غرانديير، إن مهنة إقراض الأموال تنطوي على كثير من المكاره والمنغّصات.

- صحيح أن زبائن السيدة لم يكونوا أحياناً متعقلين كثيراً.

- كانوا يثيرون لغطاً كثيراً، آه؟ كانوا يهددونها؟

هزّت الخادمة رأسها بالنفي وقالت: لا، لا، إنك مخطئ في هذا. لم يكونوا هم مَن يهدد. كانوا يئِنّون، كانوا يَشْكون ويتذمرون، كانوا يحتجّون بأنهم لا يستطيعون الدفع، هذا كله صحيح.

كان في صوتها احتقار واضح تماماً، فتدخل بوارو قائلاً: ربما لم يستطيعوا أن يدفعوا أحياناً يا آنسة؟

هزّت إليس غرانديه كتفَيها بلامبالاة وقالت: ربما، هذه مشكلتهم! لكنهم كانوا يدفعون في النهاية عادةً.

كان في صوتها قدر معين من الرضا في هذه المرة، فسألها فورنييه: هل كانت مدام جيزيل امرأة قاسية؟

إليس: كانت قسوتها مبرَّرة.

- ألا تشعرين بالشفقة على الضحايا؟

قالت إليس بنفاد صبر: الضحايا، الضحايا! إنك لا تفهم الموضوع. أَمِنَ الضروريّ أن تُغرق نفسك في الديون وأن تعيش بأكثر مما تسمح به إمكانياتك، ثم تركض لتستدين، ثم تتوقع بعد ذلك أن تحتفظ بالنقود كهدية؟ إن هذا ليس معقولاً! لقد كانت مدام جيزيل دوماً عادلة ومنصفة. كانت تُقرض وتتوقع السداد، هذا هو الإنصاف. وهي شخصياً لم تكن تحمّل نفسها أية ديون، فقد كانت تدفع دوماً بأمانة كل ما يستحق عليها دفعه، ولم يحدث مطلقاً أن أبقت فواتيرَ معلَّقة دون سداد. وعندما تقول بأن مدام جيزيل كانت امرأة قاسية فإن هذا ليس صحيحاً؛ لقد كانت سيدة لطيفة، كانت تتبرع لجمعية أخوات الفقير الخيرية كلما جاؤوا إليها وكانت تعطي نقوداً للمؤسسات الخيرية، وعندما مرضت زوجة جورج البوّاب فإن مدام جيزيل هي التي دفعت مصاريف ذهابها إلى أحد مستشفيات الريف.

توقفت وقد تورد وجهها غضباً، ثم كررت: إنك لا تفهم الوضع ولا تفهم مدام جيزيل على الإطلاق.

انتظر فورنييه لحظة حتى يتلاشى غضبها ثم قال: لقد قلتِ بأن زبائن مدام جيزيل كانوا يتمكنون من الدفع في النهاية. هل كنت على

دراية بالوسائل التي استخدمَتها المدام لتجبرهم على الدفع؟

هزّت إليس كتفيها وقالت: لا أعرف يا سيدي، لا أعرف شيئاً.

- كنت تعرفين ما يكفي لأن تحرقي أوراق المدام؟

- كنت أنفّذ تعليماتها، فقد أوصتني بأن أتلف أوراق عملها إن حدث لها أي حادث أو مرضت وماتت في مكان بعيد عن وطنها.

سألها بوارو: الأوراق التي كانت في الخزنة تحت؟

- نعم، أوراق عملها.

بوارو: وقد كانت تلك الأوراق في الخزنة تحت؟

تورّد خدا إليس من إصراره وقالت: كنت أطيع أوامر المدام.

ابتسم بوارو وقال: أعرف ذلك، ولكن الأوراق لم تكن في الخزنة، أليس كذلك؟ فتلك الخزنة من طراز عتيق جداً، وأي فتى هاوٍ يستطيع أن يفتحها. لقد كانت الأوراق مخبَّأة في مكان آخر، ربما كانت في غرفة نوم المدام؟

صمتت إليس لحظة ثم أجابت: نعم، هذا صحيح. كانت المدام تدّعي دوماً أمام الزبائن بأن الأوراق محفوظة في الخزنة، ولكن الخزنة كانت للتضليل فقط في الواقع. كان كل شيء في غرفة السيدة.

بوارو: هل لك أن ترينا المخبأ؟

نهضت إليس وتبعها الرجلان. كانت غرفة النوم واسعة ولكنها ممتلئة بالأثاث الضخم المزخرَف بحيث يصعب التحرك داخلها

بحرّية، وكان في أحد الزوايا صندوق ثياب ضخم قديم الطراز. رفعت إليس غطاءه وأخرجت منه ثوباً صوفياً قديم الطراز، وفي داخل الثوب كان جيب عميق. قالت: كانت الأوراق في هذا الجيب يا سيدي، كانت محفوظة في ظرف ضخم مختوم.

قال فورنييه بحدّة: أنت لم تذكري لي شيئاً من هذا عندما حققت معك قبل ثلاثة أيام.

- عفوك يا سيدي، فقد سألتني أين هي الوثائق التي يُفترَض أنها في الخزنة، وقد أخبرتك أنني أحرقتها، وكان ذلك صحيحاً. ولم يَبدُ مهمّاً أين كانت تحفظ تلك الوثائق بالضبط.

- صحيح. إنك تدركين أن تلك الوثائق كان ينبغي عدم إحراقها يا آنسة غرانديبه؟

قالت إليس بعناء وتجهّم: لقد أطعت أوامر السيدة.

قال لها فورنييه وهو يحاول تهدئة الأجواء: أعرف أنك تصرفت مجتهدة في القيام بأفضل شيء ممكن. أريدك الآن أن تستمعي إليّ جيداً يا آنسة: لقد قُتلت مدام جيزيل، وربما تكون قد قُتلت على يد شخص أو أشخاص ممّن تحتفظ عنهم بمعلومات مؤذية، وتلك المعلومات كانت في الأوراق التي أحرقتِها. سأسألك سؤالاً يا آنسة، ولا تجيبي بسرعة بل بعد تفكير: ربما، بل إنه من الممكن في رأيي والمفهوم تماماً، أن تكوني قد تصفّحت تلك الأوراق قبل أن تشعلي فيها النار، فإن كان ذلك ما حصل فلن يوجَّه إليك أي لوم على فعل ذلك، بل على العكس، فكل معلومة حصلتِ عليها قد تكون ذات نفع عظيم للشرطة وقد يكون لها أثر ملموس في تقديم القاتل للعدالة. ولذلك يا آنستي لا تخافي من الإجابة بصدق: هل

ألقيت نظرة على الأوراق قبل حرقها؟

سحبت إليس نفساً عميقاً، ثم انحنت بجسمها إلى الأمام وقالت بتأكيد وجزم: لا يا سيدي، لم أنظر إلى أي شيء ولم أقرأ أي شيء، بل أحرقت الظرف دون أن أفكّ ختمه.

* * *

الفصل العاشر
الدفتر الأسود الصغير

حدق فورنييه إلى المرأة بشدّة لبضع لحظات، وعندما اقتنع بأنها تقول الحقيقة دار ملوّحاً بإشارة خيبة وقال: يا للخسارة! لقد تصرفتِ بشرف يا آنسة، ولكنها خسارة مع ذلك.

قالت إليس: لم أكن أستطيع التصرف بغير ذلك يا سيدي؛ إنني آسفة.

جلس فورنييه، وأخرج دفتر ملاحظات صغيراً من جيبه وقال: عندما استجوبتك من قبل قلتِ لي إنك لا تعرفين أسماء زبائن مدام جيزيل، ومع ذلك فأنت تصفين الآن كيف ينوحون ويطلبون الرأفة، ولذلك فإنك تعرفين ولا بدّ شيئاً ما عن هؤلاء الزبائن، أليس كذلك؟

- دعني أشرح الأمر يا سيدي. إن السيدة لم تكن تذكر أسماء أبداً ولم تكن تناقش شؤون عملها مع أحد، ولكنها من البشر في النهاية، أليس كذلك؟ هناك كلمات مندفعة تخرج وتعليقات. كانت السيدة تتحدث معي أحياناً كما لو أنها تتحدث مع نفسها.

قال بوارو: إن كان لك أن تعطينا مثالاً يا آنسة؟

- دعني أتذكر. آه، نعم؛ لنفترض أن رسالة وصلت، تفتحها السيدة وتطلق ضحكة قصيرة جافة وتقول: "إنك تَشْكين وتبكين يا سيدتي الغالية، ولكن هذا لن يجديك نفعاً، يجب أن تدفعي". أو تقول لي: "يا للحمقى، يا للحمقى! أيعتقدون أنني يمكن أن أُقرض مبالغ ضخمة بلا ضمانات مناسبة؟ إن المعرفة هي الضمان يا إليس، المعرفة هي السلطة والنفوذ"... كانت تقول أشياء من هذا القبيل.

بوارو: زبائن السيدة الذين اعتادوا المجيء إلى البيت، هل شاهدتِ أحداً منهم قط؟

- لا يا سيدي؛ فهم يأتون إلى الطابق الأول فقط، وغالباً ما يأتون بعد حلول الظلام.

فورنييه: هل كانت مدام جيزيل في باريس قبل رحلتها إلى إنكلترا؟

- لقد عادت إلى باريس في عصر اليوم السابق.

- وأين كانت؟

- لقد سافرت لمدة أسبوعين إلى دوفيل ولوبينيه وباريس وبراغ... هذه هي جولتها المعتادة في شهر أيلول.

- والآن فكّري يا آنسة: هل قالت أي شيء، أي شيء يمكن أن يكون ذا فائدة لنا؟

فكّرت إليس لبعض الوقت، ثم هزّت رأسها بالنفي وقالت: لا يا سيدي، لا أستطيع أن أتذكر شيئاً. لقد كانت تتمتع بمعنويات جيدة وقالت بأن العمل يجري على أفضل ما يرام وأن رحلتها كانت موفقة، ثم طلبت مني أن أتصل بالخطوط الجوية العالمية

وأحجز تذكرة إلى إنكلترا في اليوم التالي. كانت رحلة الصباح الباكر محجوزة كلها ولكني حصلت على مقعد على رحلة الساعة الثانية عشرة ظهراً.

فورنييه: هل قالت لماذا كانت ذاهبة إلى إنكلترا؟ هل ظهر عليها استعجال أو إلحاح على هذه السفرة؟

- لا يا سيدي، فقد كانت السيدة كثيرة السفر إلى إنكلترا، وكانت عادةً تخبرني بذلك قبل يوم واحد من سفرها.

فورنييه: هل أتى أحد من الزبائن لرؤية السيدة في ذلك المساء؟

- أظن أن زبوناً قد أتى يا سيدي، ولكنني لست واثقة. ربما يستطيع جورج أن يعرف. لم تقل لي السيدة شيئاً.

أخذ فورنييه من جيبه عدة صور، أغلبها لقطات التقطها الصحفيون لعدة شهود وهم يغادرون المحكمة وقال: هل تستطيعين معرفة أحد من هؤلاء يا آنسة؟

أخذت إليس الصور وحدقت إليها واحدةً بعد أخرى، ثم هزّت رأسها وقالت: لا يا سيدي.

فورنييه: ينبغي أن نجرب مع جورج إذن.

إليس: نعم يا سيدي. ولكن نظر جورج ليس قوياً تماماً لسوء الحظ؛ إنه لأمر مؤسف.

نهض فورنييه قائلاً: حسناً يا آنسة، سوف نمضي، هذا إن كنت واثقة تماماً بأنك لم تتجاوزي ذكر أي شيء على الإطلاق.

إليس: أنا؟ ماذا... ما الذي يمكن أن أتجاوز عنه؟

بدا عليها الألم، فقال فورنييه: الأمر مفهوم إذن، هيا يا سيد بوارو. عفواً، هل تبحث عن شيء؟

كان بوارو يتجول فعلاً في الغرفة كمَن يبحث عن شيء غامض، وقال: هذا صحيح؛ إنني أبحث عن شيء لا أراه.

فورنييه: وما هو؟

- صور... صور للمدام جيزيل وأقاربها، صور لعائلتها.

هزّت إليس رأسها وقالت: ليس لدى السيدة عائلة؛ لقد كانت وحيدة في هذا العالم.

أجابها بوارو بحدّة: بل كانت لها ابنة.

إليس: نعم، هذا صحيح. نعم، لها بنت.

وتنهّدت إليس، فيما ألحّ بوارو: أما من صورة لتلك البنت؟

- آه، إنك لا تفهمي يا سيدي. صحيح أنه كانت للسيدة بنت ولكن هذا كان منذ زمن بعيد، هل تفهمني؟ وأنا أعتقد بأن السيدة لم ترَ تلك البنت مطلقاً منذ كانت طفلة صغيرة.

سألها فورنييه بحدة: وكيف كان ذلك؟

فتحت إليس يديها بإشارة معبّرة وقالت: لا أعرف، كان ذلك أيام شباب سيدتي. لقد سمعت بأنها كانت جميلة عندها وفقيرة، وربما كانت قد تزوجت، وإن كنت أنا أظن بأنها لم تتزوج. ولا شك أنه قد تمّ ترتيب وضع معيّن بشأن الطفل، أما بالنسبة للسيدة فقد أصيبت بالجدري ومرضت مرضاً سيئاً، بل كادت تموت. وعندما تحسنت صحتها كان جمالها قد ولّى ولم يعد هناك أي مجال لحماقات ولا رومَنسيات، وصارت المدام سيدة أعمال.

فورنييه: ولكنها خلّفت ثروتها لتلك البنت؟

إليس: هذا صحيح. فلِمَن يترك المرءُ مالَه إن لم يتركه للحمه ودمه؟ إن الدم لا يصبح ماء، والسيدة لم يكن لديها أصدقاء. كانت وحيدة دوماً وكان المال هو جُلّ اهتمامها بحيث تجمع منه المزيد والمزيد. وكانت تصرف القليل القليل، فهي لم تكن مُغرمة بالترف والتبذير.

فورنييه: لكنها تركت لك وصية. هل تعرفين ذلك؟

إليس: نعم، لقد أعلموني بهذا. لقد كانت السيدة كريمة دوماً؛ كانت تعطيني مبلغاً محترماً في كل عام بالإضافة إلى أجوري. كم أنا ممتنة لها!

فورنييه: حسناً، سوف نستأذن بالذهاب، وفي طريق خروجنا سأوجه بعض الأسئلة إلى جورج العجوز.

بوارو: اسمح لي بأن أتبعك بعد برهة وجيزة يا صديقي.

فورنييه: كما ترغب.

تجوّل بوارو حول الغرفة مرة أخرى، ثم جلس وركز نظره على إليس. وتحت ضغط رقابته الحادة غدت المرأة الفرنسية مضطربة قليلاً وقالت: هل من شيء إضافي يريد السيد أن يعرفه؟

- آنسة غرانديبه، هل تعرفين مَن قتل سيدتك؟

- لا يا سيدي، وأقسم بالله على ذلك.

كانت تتكلم بجدية كبيرة، ونظر بوارو إليها بتفحص ثم أطرق برأسه وقال: حسناً، إنني أقبل ذلك. ولكن المعرفة شيء والشك آخر. هل لديك أية فكرة، فكرة فقط، عمّن كان يمكنه أن يقدم على

هذه الفعلة؟

- ليست لديّ فكرة يا سيدي، لقد قلت ذلك لمندوب الشرطة.

- يمكنك أن تقولي له شيئاً وتقولي لي شيئاً آخر.

- لماذا تقول ذلك يا سيدي؟ لماذا أفعل شيئاً كهذا؟

- لأن إعطاء المعلومات للشرطة شيء وإعطاءها لشخص عادي شيء آخر.

- نعم، هذا صحيح.

عبَرَت في وجهها لمحة تردد، وبدا أنها تفكر. وبينما كان بوارو يمعن النظر إليها انحنى إلى الأمام وقال: هل أخبرك بشيء يا آنسة غرانديية؟ إن أحد الجوانب في عملي هو أن لا أصدق شيئاً يُقال لي. وأنا لا أشك بفلان ثم أنتقل بعده إلى الشك بفلان، بل أشكّ بالجميع؛ فكل من له ارتباط بالجريمة يُعتبَر في نظري مجرماً حتى تثبت براءته.

قطبت إليس غرانديية جبينها بغضب وقالت: هل تعني أنك تشك فيّ أنا بأنني قتلت السيدة؟ هذا كثير جداً؛ إن فكرة كهذه تنطوي على شر ولؤم لا يصدَّق!

ارتفع صدرها وانخفض باضطراب، فقال بوارو: لا يا إليس؛ أنا لا أشك فيك كقاتلة للسيدة، فقاتلها هو -بالضرورة- راكب من ركّاب الطائرة. ولذلك فإن اليد التي قامت بالفعلة لم تكن يدك، ولكن ربما كنت شريكة قبل عملية ارتكاب الجريمة. ربما تكونين قد سرّبت لأحد ما تفصيلات رحلة السيدة.

- ولكنني لم أفعل ذلك، أقسم أنني لم أفعل ذلك.

نظر إليها بوارو ثانية بضع لحظات، ثم هزّ رأسه بتفهم وقال: إنني أصدقك، ولكنّ لديك -مع ذلك- شيئاً تخفينه. نعم، هناك شيء بالتأكيد! اسمعي، سأقول لك شيئاً: في كل قضية تنطوي على جريمة يجد المرءُ الظاهرةَ نفسها تتكرر وهو يحقق مع الشهود؛ الجميع يحتفظون بشي ما لأنفسهم. وأحياناً (بل غالباً في الحقيقة) يكون هذا الشيء غيرَ ذي أذى على الإطلاق، بل يكون أحياناً غير مرتبط بالجريمة بتاتاً. ولكن، وأكرر كلمتي: هنالك دوماً شيٌ ما، وهذا الأمر ينطبق عليك الآن. آه، لا تنكري! إنني هيركيول بوارو، وأنا أعرف. عندما سألك صديقي السيد فورنييه إن كنت واثقة بأنك لم تغفلي ذكر شيء اضطربتِ وأجبت بلا وعي منك وببعض المراوغة. كما أنك قمتِ قبل قليل عندما أشرتُ إلى أن بوسعك أن تخبريني شيئاً لم تكوني لتقوليه للشرطة، قمتِ وبوضوح تام بتدوير الفكرة في ذهنك. فهناك إذن شيء ما، وأريد أن أعرف ذلك الشيء.

- إنه ليس أمراً هاماً.

- ربما كان غير مهم، ولكن ألن تخبريني به رغم ذلك؟

وحين رأى ترددها أضاف: تذكّري بأنني لست من رجال الشرطة.

ترددت إليس غرانديبه قليلاً ثم قالت: هذا صحيح؛ أنا في ورطة يا سيدي، ولا أدري ما الذي كانت السيدة لتريدني أن أفعله لو كانت على قيد الحياة.

- يقول المثَل إن رأسين أفضل من رأس واحد؛ فلماذا لا تستشيرينني؟ دعينا ندرس المسألة معاً.

بقيَت نظرات الشك في عيني المرأة، فابتسم بوارو وقال: إنك حارسة أمينة يا إليس. أرى أنها مسألة ولاء لسيدتك المتوفاة، أليس كذلك؟

- هذا صحيح تماماً يا سيدي، فسيدتي كانت تثق بي. ومنذ أن دخلت في خدمتها نفّذت كل تعليماتها بإخلاص.

- أظن أن ذلك كان امتناناً منك لقاء خدمة كبيرة قدمَتْها لك؟

- إن سيدي سريع الخاطر تماماً. نعم، هذا صحيح، ولا أجد حرجاً في الاعتراف بذلك. كنت قد تعرضت لعملية احتيال يا سيدي وسُرقَت مدخراتي، وكان في الموضوع طفلة. وكانت السيدة طيّبة معي وقامت بترتيبات تكفل تربية الطفلة لدى عائلة طيبة في إحدى المزارع، وكانت مزرعة جيدة يا سيدي وأهلها شرفاء تماماً، وهناك وفي ذلك الوقت ذكرَتْ لي بأنها كانت أماً هي أيضاً.

- هل أخبرتك عن سن طفلتها وأين كانت، أو أية تفصيلات أخرى؟

- لا يا سيدي. كانت تتحدث عن مرحلة من حياتها مضت وانتهت، وقالت إنها سعيدة لأنها فترة انتهت إلى غير رجعة. كانت الطفلة الصغيرة تُربّى على أفضل ما يكون، وسوف يتم إعدادها وتربيتها بحيث تتعلم مهنة مناسبة، وسوف ترث أيضاً أموال والدتها عندما تموت.

- ألم تخبرك بشيء أكثر من ذلك، عن الطفلة أو عن والدها؟

- لم تفعل يا سيدي، ولكن لديّ فكرة...

- تكلمي يا آنسة إليس.

- لديّ فكرة بأن والد الطفلة كان إنكليزياً.

- وما هو بالضبط السبب الذي دفعك إلى تكوين هذا الانطباع؟

- لا شيء محدّداً. إنها فقط تلك المرارة التي كانت تظهر في صوت سيدتي عندما كانت تتحدث عن الإنكليز، وأظن أيضاً بأنها كانت تستمتع في صفقاتها بإخضاع أي إنكليزي لسيطرتها. إنه مجرد انطباع.

- نعم، ولعله كان انطباعاً ثميناً جداً. إنه يفتح الباب أمام احتمالات كثيرة. وماذا عن طفلتك يا آنسة إليس؟

- لقد ماتت يا سيدي، ومضى على موتها خمس سنوات.

- آه، أرجو أن تقبلي مواساتي.

ساد صمت قصير قَطَعه بوارو بقوله: والآن يا آنسة إليس، ما هو ذلك الشيء الذي أحجمتِ عن ذكره حتى الآن؟

نهضت إليس وغادرت الغرفة، ثم عادت بعد بضع دقائق وفي يدها دفترُ ملاحظات أسود عتيق، وقالت: هذا الدفتر الصغير كان لسيدتي وكان لا يفارقها أينما ذهبت. عندما كانت على وشك المغادرة إلى انكلترا لم تستطع العثور عليه لأنه لم يكن في موضعه، ولكنني وجدته بعد سفرها، وكان قد سقط خلف رأس السرير. فوضعته في غرفتي حتى عودة مدام جيزيل، وقد أحرقت الأوراق بمجرد سماعي بموت السيدة، إلاّ أنني لم أحرق هذا الدفتر إذ لم تكن لديّ أية تعليمات بشأنه.

- متى سمعتِ بموت السيدة؟

ترددت إليس لحظة، فتابع بوارو قوله: لقد سمعت النبأ من الشرطة، أليس كذلك؟ جاؤوا هنا وفتشوا غرف السيدة، وقد وجدوا الخزنة فارغة فأخبرتِهم أنت بأنك أحرقت الأوراق، ولكنك عملياً لم تحرقي الأوراق إلاّ فيما بعد، أليس كذلك؟

- هذا صحيح يا سيدي. نعم، إلا أنه كان قريباً جداً من الحقيقة، إذ إنني أحرقت الأوراق في أقرب فرصة سنحت لي. كان عليّ أن أنفّذ أوامر سيدتي. هل ترى الورطة التي أنا فيها يا سيدي؟ لا أظنك ستخبر الشرطة، فقد يكون الأمر خطيراً جداً بالنسبة لي؟

- أظن أنّ تصرفك كان وراءه أفضل النوايا يا آنسة إليس، ولكنها مع ذلك خسارة، خسارة كبرى. حسناً، لا فائدة من الندم على ما وقع وانتهى، ولا أرى ضرورة لذكر الوقت الدقيق المحدَّد لحرق الأوراق لصديقنا الطيب فورنييه. والآن دعيني أنظر إن كان في هذا الدفتر ما يعيننا.

- لا أظن أن فيه ما يعينك يا سيدي. صحيح أنها السجلات والرسائل الخاصة بسيدتي، ولكنها بالأرقام فقط. ومن غير الوثائق والملفات ستكون هذه الأرقام المدوَّنة غيرَ ذات معنى.

مدّت يدها بالدفتر إلى بوارو على كره منها، فأخذه وقلّب أوراقه. كانت فيه بنود كُتبت بقلم رصاص وبخط أجنبي مائل، وبدت تلك البنود متشابهة جميعاً وتحتوي على رقم تتبعه بعض التفاصيل الوصفية. مثل: «س ك ٢٥٦: زوجة الكولونيل. مركزها سورية. مبالغ ضخمة»، «ج ف: نائب فرنسي، بواسطة ستافسكي»...

بدت البنود متشابهة جميعاً، وربما كانت نحو عشرين بنداً.

وفي نهاية الدفتر كتبت بالرصاص أيضاً رسائل تحوي تواريخ ومواعيد، من قَبيل: «لوبينيه، الإثنين، الكازينو ١٠,٣٠»، «فندق سافوي، الخامسة مساء» «أ ب ج، شارع فليت، الساعة الحادية عشرة».

لم يكن أي من هذه البنود كاملاً متكاملاً بذاته، بل يبدو أنها لم تدوَّن كمواعيد فعلية بقدر ما دُوِّنت لمساعدة ذاكرة جيزيل. كانت إليس تراقب بوارو بفضول، ثم قالت: إنها لا تعني شيئاً يا سيدي، أو تبدو لي كذلك. كانت مفهومة بالنسبة لمدام جيزيل ولكنها ليست مفهومة للقارئ العادي.

أغلق بوارو الدفتر ووضعه في جيبه قائلاً: قد يكون هذا الدفتر قيّماً جداً يا آنسة. لقد أحسنتِ صنعاً بتقديمه لي، وتستطيعين أن تريحي ضميرك تماماً فالسيدة لم تطلب منك أن تحرقي هذا الدفتر.

قالت إليس وقد تورّد وجهها قليلاً: هذا صحيح.

- ولذلك، ولأنك لم تكن لديك تعليمات، فإن من واجبك أن تسلمي هذا الدفتر للشرطة. سوف أرتب الأمور مع السيد فورنييه بحيث لا تُلامين على عدم تسليمك الدفتر في وقت مبكر.

- هذا لطف كبير منك.

نهض بوارو قائلاً: سأذهب الآن وأنضمّ إلى زميلي، لكنْ لديّ سؤال واحد أخير فقط: عندما حجزتِ مقعداً في الطائرة لمدام جيزيل هل اتصلتِ بمطار لوبورجيه أم بمكتب الشركة؟

- بل بمكتب الخطوط الجوية العالمية يا سيدي.

- والمكتب في شارع كابوسين كما أظن؟

- نعم يا سيدي، في المبنى ٢٥٤ في شارع كابوسين.

كتب بوارو الرقم في دفتره الصغير وغادر الغرفة بانحناءة لطيفة منه.

* * *

الفصل الحادي عشر
الأمريكي

كان فورنييه مشغولاً بمحاورة جورج العجوز، وكان يبدو منفعلاً ومنزعجاً. كان العجوز يدمدم بصوته الخشن العميق قائلاً: كالشرطة تماماً، يسألون الإنسان نفس السؤال مراراً وتكراراً، فما الذي يأملون من ذلك؟ أن يعمد المرء -عاجلاً أو آجلاً- إلى الإقلاع عن قول الحقيقة والبدء في الكذب بدلاً منها؟ كذبات ملائمة طبعاً، كذبات تناسب ما يريده هؤلاء السادة.

فورنييه: أنا لا أريد أكاذيب، بل أريد الحقيقة.

جورج: حسن جداً، وما كنت أقوله لك هو الحقيقة. نعم، لقد جاءت امرأة لرؤية السيدة في الليلة التي سبقت سفرها إلى إنكلترا. لقد أريتَني تلك الصور وسألتَني إن كنت أميّز تلك المرأة فيها، وأخبرك مرة أخرى بما قلته لك مراراً: إن نظري في الوقت الحاضر ليس قوياً، وقد كان الوقت مساء ولم أنظر بتمعن ولم أميّز المرأة. حتى لو رأيتها وجهاً لوجه فربما لا أكون قادراً على تمييزها. هل ارتحت؟ ها قد قلتها لك بوضوح للمرة الرابعة أو الخامسة.

فورنييه: وأنت لا تستطيع أن تتذكر إن كانت طويلة أم قصيرة،

سمراء أم بيضاء، شابة أم عجوزاً؟ يصعب تصديق ذلك.

كان فورنييه يتكلم بسخرية غاضبة، فقال جورج: إذن فلا تصدق. ولماذا أهتم أنا بذلك؟ يا إلهي كيف يتورط المرء مع الشرطة! إنني أشعر بالخزي. لو لم تكن السيدة قد قُتلت هناك في الأعالي فلربما زعمتَ أنني أنا، جورج، مَن سَمّمها. هكذا هم رجال الشرطة!

استبق بوارو استجابة غاضبة من طرف فورنييه، فأدخل ذراعه في ذراع زميله قائلاً: تعال يا صديقي؛ إن للمعدة نداء. لنأخذ وجبة بسيطة مشبعة، هذه أحسن وصفة، ولتكن عجّة مع الفطر وبعض الجبن والعصير.

نظر فورنييه إلى ساعته وقال: حقاً، إنها الواحدة ظهراً. لقد أمضيت ساعة في الحديث مع هذا الأحمق!

وحدق إلى جورج، أما بوارو فقد ابتسم للرجل العجوز مشجّعاً وقال: الأمر مفهوم، فتلك السيدة المجهولة لم تكن طويلة ولا قصيرة، ولا بيضاء ولا سمراء، ولا نحيفة ولا سمينة، ولكنك تستطيع أن تخبرنا على الأقل جواب هذا السؤال: هل كانت أنيقة؟

قال جورج وقد صُدم قليلاً: أنيقة؟

بوارو: لقد حصلتُ على الجواب؛ كانت أنيقة بالفعل. وعندي فكرة بسيطة يا صديقي مفادها أنها كانت ستبدو جميلة على شاطئ البحر.

حدّق جورج ثانية وقال بدهشة: البحر؟ وما علاقة البحر بالموضوع؟

بوارو: فكرة بسيطة خطرت لي، ألا توافقني؟ انظر هنا.

وأعطى الرجل العجوز صفحة انتزعها من مجلة «سكيتش». ساد صمت قصير، وبدرت من الرجل العجوز إشارة خفيفة جداً. سأله بوارو: إنك توافقني، أليس كذلك؟

قال جورج: هذان الاثنان يبدوان رائعين معاً.

تنازل جورج ورسم على وجهه ضحكة خشنة أقرب إلى التكشيرة، ثم ذهب إلى شأنه فيما خرج بوارو وفورنييه إلى الشارع المشمس.

* * *

في أثناء الوجبة التي اقترحها بوارو أخرج البلجيكي الضئيل دفتر المذكرات الصغير الأسود، وقد تحمس فورنييه كثيراً مع أنه كان باديَ الغضب من إليس. ناقشه بوارو في هذه النقطة قائلاً: إنه لأمر طبيعي، طبيعي جداً. إن كلمة «الشرطة» مخيفة دائماً لتلك الطبقة، إنها تربكهم وتشوّشهم بشكل لا يفهمون كُنْهه. هذا الأمر شائع في كل مكان، في كل بلد.مكتبة الرمحي أحمد

- وهنا تأتي نجاحاتك، فرجل التحري الخاص يحصل من الشهود على معلومات وحقائق أكثر مما تستطيع أية جهة رسمية أن تحصل عليه. ولكنّ للصورة وجهاً آخر؛ فنحن لدينا سجلات رسمية وفي متناول أيدينا النظام الكامل لمنظمة كبرى هي مؤسسة الشرطة.

قال بوارو: "إذن فلنعمل معاً بشكل ودّي". ثم ابتسم وقال: هذه العجّة لذيذة!

في الوقت الفاصل بين تقديم العجة وتقديم السمك قلّب فورنييه صفحات الدفتر الأسود وسجل ملاحظة بقلم الرصاص في دفتر ملاحظاته، ثم نظر إلى بوارو وقال: هل قرأت في هذا الدفتر؟

- لا، بل نظرت إليه مجرد نظرة فقط. هل تسمح لي؟

أخذ الدفتر من فورنييه. وعندما وُضع الجبن أمامهما وضع بوارو الدفتر على الطاولة، والتقت عينا الرجلين ثم ابتدأ فورنييه بالحديث: فيه بعض البنود الملفتة للنظر.

- خمسة بنود.

- أوافقك الرأي؛ إنها خمسة.

ثم قرأ من دفتره البنود: «س ل ٥٢، نبيلة إنكليزية، الزوج»، «ر ت ٣٦٢، طبيب، شارع هارلي»، «م ر ٢٤، قطع أثرية مزيفة»، «ز ف ب ٧٢٤، إنكليزي، اختلاس»، «ج ف ٤٥، محاولة قتل، إنكليزي».

بوارو: رائع يا صديقي! إن عقلَينا يتواءمان بشكل رائع. من كل البنود الواردة في ذلك الدفتر الصغير تبدو لي هذه البنود الخمسة هي الوحيدة التي يمكن أن تكون ذات علاقة بالأشخاص الذين كانوا على متن الطائرة. لنستعرضهم واحداً واحداً.

فورنييه: «نبيلة إنكليزية، الزوج»: هذا ينطبق منطقياً على الليدي هوربوري، وهي مقامِرة كما فهمت، واحتمال اقتراضها أموالاً من جيزيل كبير فزبائن جيزيل هم من هذا النوع عادة. ربما كان لكلمة «زوج» أحد معنيَين: إما أن جيزيل تتوقع من الزوج أن يدفع ديون زوجته، أو أن لها مَمْسكاً ما على الليدي هوربوري أو سرّاً تهدد بكشفه لزوج الليدي.

- بالضبط، كلا هذين الاحتمالين ممكن، وأنا شخصياً أرجّح الثاني، ولا سيما أنني مستعد للمراهنة بأن المرأة التي زارت جيزيل في الليلة التي سبقت رحلة الطائرة كانت الليدي هوربوري.

فورنييه: آه، إنك ترى ذلك إذن؟

بوارو: نعم، وأظن أنك تشاركني الرأي. أظن أن في مزاج بَوّابنا العتيد لمسة من شهامة الفروسية، فإصراره على أنه لا يتذكر شيئاً عن الزائرة يبدو ذا مغزى نوعاً ما. إن الليدي هوربوري امرأة فاتنة جداً، ولعلك لاحظت تردده (وقد كان تردداً خفيفاً جداً) عندما أعطيته صورة لها حصلت عليها من مجلس «سكيتش». نعم، كانت الليدي هوربوري هي التي ذهبت إلى جيزيل في تلك الليلة.

قال فورنييه ببطء: تبعَتها من لوبينيه إلى باريس؟ يبدو كما لو أنها كانت يائسة فاقدة الصبر.

- نعم، نعم، أتخيل أن هذا صحيح.

نظر فورنييه إليه بفضول وقال: ولكن هذا لا يتماشى مع تحليلاتك الخاصة، أليس كذلك؟

- يا صديقي، كما قلت لك: إن لديّ ما أنا مقتنع بأنه الدليل الصحيح، ولكنه يشير إلى الشخص الخطأ! إنني أقف في حُلكة ظلام دامس، فدليلي لا يمكن أن يكون خاطئاً ومع ذلك...

- ألا ترغب أن تقول لي ما هو؟

- ليس الآن، لأنني يمكن أن أكون مخطئاً تماماً، وفي هذه الحالة يمكن أن أُضلّلك أنت أيضاً. لا، ليعمل كل منا بناء على أفكاره الخاصة. هيا، لنتابع بنودنا المختارة من الدفتر الصغير.

فورنييه: «ر ت ٣٦٢، طبيب، شارع هارلي».

بوارو: مؤشّر محتمَل يشير إلى الدكتور برايانت. ليس فيه كثير مما يمكن أن نبني عليه، ولكن ينبغي أن لا نهمل التقصّي في هذا الاتجاه.

- سيكون هذا من مهمات المفتش جاب بالطبع.

- ومهماتي أنا أيضاً، فأنا أيضاً لي إصبع في هذه الطبخة.

- حسناً؛ «م ر ٢٤، قطع أثرية مزيفة»: ربما كان ذلك بعيد الاحتمال، ولكنه قد ينطبق على السيدين دوبون. لا أكاد أصدق ذلك، فالسيد دوبون عالم آثار ذو سمعة عالمية وشخصية مرموقة تماماً.

- مما قد يسهل الأمور عليه كثيراً. فكر -يا عزيزي فورنييه- كم كنتَ تجد من شخصيات مرموقة ذات مشاعر نبيلة سامية وحياة تستحق الإعجاب لدى أغلب النصّابين المرموقين، ولكن قبل أن يُكتشَفوا!

- صحيح، صحيح تماماً.

وأرفق الفرنسي موافقته بتنهيدة، فقال بوارو: إن السمعة الجيدة هي الضرورة الأولى في أسلحة النصّاب. إنها فكرة مثيرة للاهتمام. حسناً، لنرجع إلى قائمتنا.

- «ز ف ب ٧٢٤، إنكليزي، اختلاس»، رموز غامضة تماماً.

بوارو: هذا ليس سهلاً. مَن الذي اختلس؟ أهو محام؟ موظف بنك؟ شخص في موقع ثقة في شركة تجارية؟ يصعب تماماً أن يكون

مؤلفاً أو طبيباً أو طبيب أسنان. السيد جيمس رايدر هو الممثل الوحيد للأعمال التجارية، وربما كان قد اختلس أموالاً، وربما اقترض من جيزيل ليتمكن من إبقاء سرقته سراً. أما فيما يخص البند الأخير: «ج ف ٤٥، محاولة قتل، إنكليزي»، فهذا يعطينا مجالاً واسعاً جداً؛ فالكاتب والطبيب ورجل الأعمال والمضيف ومساعدة مصففة الشعر والمرأة ذات الحسب والنسب... كل واحد من هؤلاء يمكن أن يكون «ج ف ٤٥»، وفي الحقيقة فإن السيدين دوبون هما المستثنَيان الوحيدان بسبب جنسيتهما.

استدعى النادلَ بإيماءة منه وطلب قائمة الحساب، ثم سأل: والآن، ماذا بعد يا صديقي؟

فورنييه: إلى مديرية الأمن؛ فربما كانوا يحتفظون لي ببعض الأخبار.

بوارو: جيد، سأرافقك. وبعدها أمامي بعض البحث الخاص الذي ينبغي أن أقوم بإنجازه، وربما أردتَ مساعدتي فيه.

* * *

جدّد بوارو في مديرية الأمن معرفته برئيس جهاز التحري الذي كان قد التقاه قبل عدة سنوات خلال إحدى القضايا، السيد غريل، وكان عذب المعشر مؤدباً تماماً وقال: لقد فرحت كثيراً لمعرفتي بأنك مهتم شخصياً بهذه القضية يا سيد بوارو.

- يا إلهي! لقد حدثت الجريمة تحت ناظري يا عزيزي السيد غريل. إنها إهانة، وأظنك توافقني الرأي، أليس كذلك؟ أن ينام هيركيول بوارو بينما تُرتكَب جريمة قتل!

هزّ السيد غريل رأسه بلباقة وقال: يا لهذه الآلات الطائرة! في الأيام التي يكون الطقس فيها سيئاً تكون الطائرات أبعدَ ما تكون عن الثبات والاتزان. أنا نفسي شعرت بضيق شديد مرة أو مرتين.

قال بوارو: يُقال إن الجيوش تزحف على بطونها، ولكن إلى أي مدى تتأثر تلافيف الدفاع الحسّاسة بالجهاز الهضمي؟ عندما يسيطر عليّ دُوار البحر (أو دوار الطيران) أصبح أنا، هيركيول بوارو، مخلوقاً يفتقر إلى مَلَكة التفكير والتحليل، وأفقد المنهجية والنظام. أصبح مجرّد عضو في الجنس البشري ذي مستوى من الذكاء أقل من العادي! إنها مسألة تثير الحنق، ولكنها واقع الحال. وبمناسبة الحديث في هذه القضايا: كيف حال صديقي الرائع جيرو؟

تجاهل غريل بحصافة أهمية كلمات بوارو عن هذه القضايا وأجابه بأن جيرو ما زال يتقدم في حياته المهنية، ثم قال: إنه من أكثر الناس حماسة، وهو ذو طاقة لا تكلّ ولا تمل.

- كان هذا شأنه دوماً؛ إنه يركض ويزحف على أربعته وتجده هنا وهناك وفي كل مكان. إنه لا يقف أبداً، ولو دقيقة واحدة، للتفكير والتحليل!

- آه يا سيد بوارو، هذه نقطة ضعفك الصغيرة. إن رجلاً مثل فورنييه أقرب إلى ملاءمة طبيعتك، فهو ينتمي إلى أحدث المدارس في التحليل الجنائي حيث يعتمد كل شيء على علم النفس، وهذا سوف يسرّك دون شك.

- إنه يسرني بالفعل.

- كما أنه يتحدث بلغة إنكليزية جيدة جداً، ولذلك أرسلناه

إلى كرويدون ليساعد في القضية. إنها قضية مثيرة جداً يا سيد بوارو. لقد كانت مدام جيزيل واحدة من أكثر الشخصيات شهرة في باريس، وقضية موتها قضية غريبة جداً؛ سهمٌ مسموم يُطلَق من أنبوب نفخ على متن طائرة. عجباً! هل من الممكن أن يحدث شيء كهذا؟

صرخ بوارو: بالضبط، لقد أصبت عين الحقيقة ووضعت إصبعك دون خطأ. آه، ها هو فورنييه الطيب، وأرى أن لديه أخباراً.

كان فورنييه ذو الوجه الكئيب يبدو متلهفاً تماماً ومنفعلاً، وقال: نعم، بالفعل؛ لقد أبلغ تاجر أثريات يوناني اسمه زيروبولس عن بيعهِ أنبوبَ نفخ وسهاماً قبل الجريمة بثلاثة أيام. إنني أقترح الآن أن نحقق مع هذا الرجل يا سيدي.

قالها وانحنى باحترام لرئيسه الذي ردّ قائلاً: بالتأكيد. وهل يرافقك السيد بوارو؟

بوارو: إذا سمحت، فالأمر مثير للاهتمام، مثير جداً.

* * *

كان متجر السيد زيروبولس في شارع هونوري، وكان على هيئة محل تحفيات للطبقة العليا يحتوي على العديد من الأواني والفخار وقطع الخزف الفارسية وغيرها، وفيه قطعتان من برونزيات لورستان والكثير من الحلي الهندية الرخامية، ورفوف من الحرير والمطرزات من عدة بلدان، وكمية ضخمة من الخرز عديم القيمة تماماً والبضائع المصرية الرخيصة. كان المحل من تلك المحلات التي يمكنك فيها أن تصرف مليون فرنك على سلعة تساوي نصف

مليون، أو عشر فرنكات على سلعة لا تتجاوز قيمتها نصف فرنك، وكان زبائن المحل بشكل رئيسي من السياح الأمريكيين وخبراء التحف. أما السيد زيروبولس نفسه فقد كان رجلاً قصيراً ممتلئ الجسم ذا عينين خرزيتين سوداوين، وكان -إذا تحدّث- مِهذاراً كثير الكلام.

هل السيدان من الشرطة؟ يسرّه أن يراهما. هلا تفضلا بالدخول إلى مكتبه الخاص؟ نعم، لقد باع أنبوب نفخ وسهاماً، تحفة أمريكية جنوبية...

ثم مضى في حديثه قائلاً: إنكم تعرفون عملي أيها السيدان، فأنا أبيع القليل من كل شيء، ولدي اختصاصاتي. اختصاصي هو تحف فارس. السيد دوبون، السيد دوبون المحترم يمكنه أن يجيب عن الأسئلة نيابة عني، فهو شخصاً يأتيني دائماً ليرى مجموعتي من التحف، ليعطيني رأيه في أصالة بعض القطع المشكوك فيها. يا له من رجل ويا لثقافته، ويا لَعينه الثاقبة ولإحساسه الذي لا يخطئ! ولكنني أبتعدُ عن الموضوع. إن لديّ مجموعتي، مجموعتي الثمينة التي يعرفها جميع الخبراء، كما أن لديّ -بصراحة أيها السيدان- ما يمكن أن نسميه خردة! خردة أجنبية كما تعلمان، نتفة من كل شيء، من بحار الجنوب، من الهند، من اليابان، من بورنيو. وليس لديّ عادةً سعرٌ ثابت لهذه الأشياء، وعادة ما أُغلب ولا يُدفَع لي إلاّ نصف السعر. ولكن عليّ -مع ذلك- أن أعترف بأن الربح جيد، فهذه المواد أشتريها من البحّارة بسعر منخفض جداً في العادة.

سحب السيد زيروبولس نَفَساً ثم مضى في حديثه فَرِحاً بنفسه وأهميته وطلاقة لسانه: أنبوب النفخ هذا والسهام كانت عندي منذ زمن طويل، منذ سنتين تقريباً. كان في تلك الصينية مع عقد من

الودع ولباس رأس يضعه الهنود الحمر، وتمثال أو تمثالين من الخشب، وبعض الخرز الأخضر الأقل قيمة. لم يلحظه أحد ولم ينتبه إليه أحد إلى أن جاء ذلك الأمريكي وسألني عنه.

صاح فورنييه بحدة: أمريكي؟!

زيروبولس: نعم أمريكي، أمريكي لا يمكن أن تخطئه العين. ليس من أفضل أنواع الأمريكيين أيضاً، بل من ذلك النوع الذي لا يعرف شيئاً عن أي شيء ويريد أية تحفة غريبة يأخذها إلى بلده. إنه من النوع الذي يسبب الثراء لبائعي الخرز في مصر ويكون مستعداً لشراء أردأ أنواع الأحجار التي تصنع في تشيكوسلوفاكيا... حسناً، قدّرتُ وضعه بسرعة وأخبرته عن عادات قبائل معينة وعن السموم القاتلة التي يستعملونها، وشرحت له كم من النادر والغريب أن يجد أشياء كهذه في السوق. سأل عن السعر فأعطيته إياه، وهو سعري الأمريكي. لم يعد مرتفعاً كما كان في السابق للأسف! لقد مرّوا بركود اقتصادي هناك. انتظرت منه أن يفاوض ويناقش في السعر، ولكنه دفع السعر الذي قلته على الفور. وقد شعرت بالغباء لأنني كنت أستطيع أن أطلب المزيد! أعطيته الأنبوب والسهام ملفوفة كلها في لفافة فأخذها وخرج، وانتهى الأمر. ولكن بعد ذلك، عندما قرأت في الصحيفة نبأ تلك الجريمة المدهشة تساءلت وتعجبت. نعم، تعجبت كثيراً، فاتصلت بالشرطة.

قال فورنييه بأدب: نحن ممتنّون لك كثيراً يا سيد زيروبولس. هل تظن أن بوسعك أن تتعرف على أنبوب النفخ والسهام تلك؟ إنها في لندن حالياً، ولكن ستُتاح لك فرصة التعرّف عليها.

قال زيروبولس: لقد كان أنبوب النفخ بهذا الطول تقريباً (وحددّ مسافة على مكتبه) وكان بعرض قلمي هذا وذا لون فاتح،

وكانت معه أربعة أسهم ذات شوكات حادة طويلة تغيّر لونها قليلاً عند رؤوسها، مع عقدة ذات زَغَب من الحرير الأحمر على تلك الشوكات.

- الحرير الأحمر؟

وجّه بوارو هذا السؤال بحِدّة ولهفة، فأجابه زيروبولس قائلاً: نعم يا سيدي، أحمر كرزيّ باهت قليلاً.

فورنييه: هذا غريب. أأنت واثق من أنه لم يكن بين السهام سهم ذو عقدة حريرية باللونين الأسود والأصفر؟

زيروبولس: الأسود والأصفر؟ لا يا سيدي.

هزّ رأسه نافياً، ونظر فورنييه إلى بوارو فرأى على وجهه ابتسامة غريبة. تساءل فورنييه عن سبب تلك الابتسامة: هل ابتسم بوارو لأن زيروبولس كان يكذب أم لسبب آخر؟ وأخيراً قال فورنييه بارتياب: من المحتمل أن لا يكون لهذا الأنبوب وتلك السهام أية علاقة بالقضية على الإطلاق. إن احتمال مثل هذه العلاقة لا يتجاوز اثنين بالمئة، ومع ذلك فإنني أريد أدقّ وصف ممكن لهذا الأمريكي.

مدّ زيروبولس يديه وقال: كان مجرد أمريكي عادي. كان صوته يخرج من أنفه، ولم يكن يستطيع التحدث بالفرنسية، وكان يمضغ علكاً ويضع نظارة ذات إطار عظمي. كان طويلاً ولا أظنه كان متقدماً في السن.

فورنييه: هل كان أشقر الشعر أم أسوده؟

- لست متأكداً، فقد كان يضع قبعته.

- هل تستطيع التعرف عليه لو رأيته مرة أخرى؟

بدا زيروبولس متشككاً وقال: لا أستطيع الجزم، فالكثير من الأمريكيين يأتون ويذهبون، ولم يكن هو الشخص المميَّز بأي شكل.

عرض فورنييه عليه مجموعة الصور ولكن بلا جدوى، وعبّر زيروبولس عن اعتقاده بأن أياً من تلك الصور لم تكن لذلك الرجل.

* * *

حين غادرا المحل قال فورنييه: ربما كان سعينا خبط عشواء.

بوارو: ربما كان هذا صحيحاً، ولكنني لا أعتقد ذلك. إن ملصقات التسعيرة كانت من نفس الشكل، وفي هذه القصة وفي ملاحظات السيد زيروبولس نقطتان جديرتان بالاهتمام. والآن يا صديقي، بما أننا خبطنا هنا خبط عشواء، تعال معي لنخبط مرة أخرى في مكان آخر.

- أين؟

- إلى شارع كابوسين.

- دعني أحزر، ماذا هناك؟

- مكتب الخطوط الجوية العالمية.

- طبعاً. ولكننا قمنا هناك بتحريات روتينية، وليست لديهم أية معلومات مهمة.

ربّت بوارو على كتفه بلطف وقال: آه، ولكن الجواب يعتمد

على الأسئلة. إنك لم تعرف الأسئلة التي ينبغي توجيهها.

- أوَتعرفها أنت؟

- حسناً، لديّ فكرة معينة صغيرة.

لم يقل بوارو المزيد، وفي النهاية وصلا إلى شارع كابوسين. كان مكتب الخطوط الجوية العالمية صغيراً تماماً، وقد وقف خلف حاجز خشبي لامع رجلٌ أسمر جميل الهيئة فيما كان صبي لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره جالساً إلى آلة كاتبة.

أبرز فورنييه هويته للرجل الذي كان اسمه جوليه بيرو وأعلن أنه في خدمتهما بالكامل، وتلبية لاقتراح بوارو تمّت إزاحة الصبي الطبّاع إلى أقصى زاوية في المكتب. قال بوارو معللاً: لأن ما سنقوله سري تماماً.

بدا بيرو متحمساً بسرور وقال: نعم أيها السيدان.

بوارو: إنها قضية مقتل مدام جيزيل نفسها.

بيرو: آه، نعم، أذكر ذلك. أعتقد أنني أجبت عن بعض الأسئلة بشأن هذا الموضوع.

- تماماً، تماماً. ولكنّ من الضروري أن نحصل على الحقائق بدقة تامة. والآن، متى حصلت مدام جيزيل على مقعدها؟

- أظن أن هذه النقطة قد تمّ توضيحها؛ لقد حجزت مقعدها هاتفياً في السابع عشر من الشهر الجاري.

- وكان ذلك على متن رحلة الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي؟

- نعم يا سيدي.

- ولكني فهمت من خادمتها أن السيدة حجزت مقعداً في رحلة الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً؟

- لا، لا. هذا ما حدث على الأقل، طلبت خادمة المدام حجزاً على رحلة التاسعة إلاّ ربعاً، ولكن تلك الرحلة كانت محجوزة وممتلئة فأعطيناها مقعداً في رحلة الساعة الثانية عشرة.

- نعم، ولكن مع ذلك فالأمر غريب، غريب قطعاً.

نظر الموظف إليه باستفهام، فعاد بوارو ليقول: القضية ببساطة هي أن صديقاً لي قرّر السفر فجأة إلى إنكلترا وسافر على رحلة التاسعة إلاّ ربعاً صباحَ ذلك اليوم، وكانت الطائرة نصف فارغة.

قلب بيرو بعض الأوراق وحكّ أنفه ثم قال: ربما أخطأ صديقك اليوم؛ ربما كان سفره قبل ذلك بيوم أو بعده بيوم.

بوارو: أبداً، كان ذلك يوم وقوع الجريمة لأن صديقي قال إنه لو لم يلحق بالطائرة (كما كاد يحدث) لكان واحداً من ركاب الطائرة بروميثيوس، حيث وقعت الجريمة.

- آه، إنه لأمر غريب جداً. بالطبع يوجد أناس لا يأتون أحياناً في اللحظات الأخيرة، وعندها فالطبيعي أن تكون هناك مقاعد شاغرة... كما قد تحدث أخطاء أيضاً. ينبغي أن أتصل بمطار لوبورجيه، إنهم ليسوا دقيقين دائماً.

بدت نظرة بوارو المتفرسة مزعجة لجوليه بيرو. توقف وأجال بصرَه، وبدت على جبينه قطرةٌ صغيرة من العرق. قال بوارو: يوجد تفسيران محتملان تماماً، ولكن ليس فيهما -كما يخيل إليّ- التفسير

الصحيح. ألا ترى أنه ربما كان من الأفضل أن تزيح الأمر عن صدرك؟

بيرو: أيَّ أمر أزيح عن صدري؟ إنني لا أفهمك.

- هيا، هيا، أنت تفهم ما أعنيه تماماً. إنها قضية قتل... قتل يا سيد بيرو، تذكّر ذلك من فضلك. إذا حجبت أي معلومات فربما كان ذلك خطيراً جداً عليك، خطيراً جداً بالفعل. سوف يتخذ الشرطة موقفاً صارماً، إذ ستكون عندها قد أعقت العدالة عن أخذ مجراها.

حدّق بيرو وقد فغر فاه وارتجفت يداه، فتابع بوارو بصوت آمر مسيطر: هيا، إننا نريد معلومات دقيقة إذا سمحت. كم دفعوا لك، ومن الذي دفع؟

- لم أقصد التسبب في أي أذى. لم تكن لديّ فكرة... لم يخطر لي مطلقاً...

بوارو: كم دفعوا لك، ومن الذي دفع؟

- خـ... خمسة آلاف فرنك. لم أرَ الرجل من قبل. إنني... إن هذا سوف يدمّرني!

- إن ما سيدمرك هو عدم البوح بالحقيقة. هيا الآن، إننا نعلم الجانب الأسوأ، فأخبرنا بما حدث بدقة.

تحدث بيرو بسرعة واضطراب فيما كانت نقطة العرق تنحدر على جبينه: لم أكن أقصد التسبب في أي أذى... بشرفي، لم أكن أقصد الأذى. دخل رجلٌ إلى المكتب وقال إنه مسافر إلى إنكلترا في اليوم التالي. كان يريد التفاوض على قرض من... من مدام جيزيل،

ولكنه أراد أن يكون لقاؤهما غيرَ مخطَّط له. قال إن ذلك سيمنحه فرصة أفضل، وإنه يعرف أنها ستسافر إلى إنكلترا غداً، فما عليّ إلاّ أن أخبرها أن الرحلة الصباحية محجوزة ثم أخصص لها المقعد رقم ٢ في الطائرة بروميثيوس. إن الأمريكيين هكذا... يعقدون صفقاتهم بطرق غير تقليدية.

سأل فورنييه بحدة: الأمريكيون؟

بيرو: نعم، لقد كان ذلك السيد أمريكياً.

بوارو: صِفْه لنا.

- كان طويلاً محنيّ الظهر أشيب الشعر، يضع نظارة ذات إطار عظمي، وله لحية مدببة كلحية الماعز.

بوارو: هل حجز مقعداً لنفسه؟

بيرو: نعم يا سيدي، حجز المقعد رقم ١ بجانب... بجانب المقعد الذي طلب مني تخصيصه لمدام جيزيل.

بوارو: بأي اسم؟

- سيلاس، سيلاس هاربر.

هزّ بوارو رأسه بهدوء وقال: لم يكن أحد بهذا الاسم بين المسافرين، ولم يجلس أحد في المقعد رقم ١.

بيرو: قرأت في الصحف بأنه لم يكن في الطائرة شخص بهذا الاسم، ولذلك ظننت بأنه ما من حاجة لذكر الأمر، إذ إن الرجل لم يسافر في الطائرة.

رماه فورنييه بنظرة حادة وقال: لقد حجبت معلومات قيّمة عن

الشرطة؛ إنها قضية خطيرة جداً.

ثم غادر الاثنان المكتبَ تاركَين جوليه بيرو يحدق إليهما بوجهه المرعوب.

* * *

على الرصيف في الخارج رفع فورنييه قبعته وانحنى لبوارو قائلاً: أهنئك يا سيد بوارو. ما الذي أوحى إليك بهذه الفكرة؟

بوارو: جملتان سمعت كلاً منهما على حدة؛ سمعت إحداهما صباح اليوم من رجل في طائرتنا قال بأنه سافر صباح يوم الجريمة من باريس إلى إنكلترا في طائرة تكاد تكون فارغة. والجملة الثانية هي التي قالتها إليس عندما قالت إنها اتصلت بمكتب الخطوط الجوية العالمية فلم تجد مكاناً في رحلة الصباح. كانت هاتان الجملتان متناقضتين، وقد تذكرت قول مضيف الطائرة بروميثيوس بأنه رأى مدام جيزيل سابقاً على متن الرحلات الصباحية، ولذلك بدا واضحاً أنه كان من عادتها أن تسافر في الطائرات الصباحية، **ولكن شخصاً ما أرادها أن تسافر في طائرة الثانية عشرة ظهراً**، شخص كان قد حجز أصلاً على متن الطائرة بروميثيوس. ففكرت: لماذا قال الموظف إن الرحلة الصباحية كانت محجوزة؟ أهو خطأ أم كذبة متعمَّدة؟ وقد ارتبْتُ في الخيار الثاني، وكنت على صواب.

صاح فورنييه: في كل لحظة تصبح هذه القضية محيّرة أكثر فأكثر. في البداية بدا لنا أننا نسعى في أثر امرأة، والآن يتضح أنه رجل. إن هذا الأمريكي...

توقف ونظر إلى بوارو الذي هزّ رأسه بهدوء وقال: نعم يا صديقي؛ من السهل جداً أن تصبح أمريكياً هنا في باريس! صوت

يخرج من الأنف وعلك يُمضَغ ولحية صغيرة مدببة ونظارة ذات إطار عظمي، كل ذلك من ملحقات وإكسسوارات الأمريكي النمطي.

ثم أخرج من جيبه الصفحة التي اقتطعها من مجلة «سكيتش»، فسأله فورنييه: إلامَ تنظر؟

- إلى كونتيسة على شاطئ البحر.

- هل تظن...؟ ولكن لا، إنها رقيقة صغيرة الجسم ولا يمكنها أن تقوم بدور أمريكي طويل محدودب الظهر. صحيح أنها كانت ممثلة ولكن لا يعقل أبداً أن تقوم بتمثيل هذا الدور. لا يا صديقي، لن تنجح هذه الفكرة.

قال بوارو: "أنا لم أقل إنها ستنجح". ولكنه استمر بالنظر إلى الورقة في يده.

* * *

الفصل الثاني عشر
في هوربوري

وقف اللورد هوربوري قرب طاولة الطعام وسكب لنفسه صحناً من الكبدة وهو شارد الذهن. كان ستيفن هوربوري في السابعة والعشرين من عمره، وكان ذا رأس مستدقّ وذقن طويل. وكان مظهره يدل على مخبره تماماً، فهو رجل من النوع الرياضي الذي يحب الهواء الطلق دون أن يكون لديه أي تميز واضح فيما يخص عقله. كان طيب القلب محافظاً فيما يخص المبدأ والسلوكيات، وكان مخلصاً بشدة وعنيداً جداً.

أخذ صحنه المليء وعاد إلى الطاولة حيث بدأ يأكل. وبعدها فتح صحيفة، وما لبث أن رماها جانباً وهو متجهم الوجه. أزاح صحنه الذي لم يكمله واحتسى بعض القهوة ثم نهض واقفاً. وقف لحظة وكأنه لم يحزم أمره، ثم هزّ رأسه قليلاً وغادر غرفة الطعام فعَبَر الصالة الواسعة وصعد إلى الطابق العلوي. قرع أحد الأبواب وانتظر لحظة، حيث ارتفع من داخل الغرفة صوت واضح عال: ادخل.

دخل اللورد هوربوري. كانت غرفة نوم جميلة واسعة تطل نوافذها على الجنوب، وكانت سيسلي هوربوري في سريرها

الإلزابيثي الضخم المصنوع من خشب السنديان المحفور، وقد بدت هي أيضاً جميلة جداً بثيابها الحريرية الحمراء وشعرها الذهبي المتموّج. وكان على الطاولة المجاورة صينية إفطار عليها بقايا من عصير البرتقال والقهوة. كانت سيسيلي تفتح رسائلها، وكانت خادمتها تتنقل في الغرفة.

من شأن أي رجل أن يُعجَب بكل هذا الجمال والنضارة، ولكن اللورد هوربوري لم تؤثر فيه أبداً هذه الصورة الفاتنة التي تمثلها زوجته. لقد مرّ عليه زمن، قبل ثلاث سنوات، أصابته فيه هذه الفتنة التي تقطع الأنفاس لزوجته سيسيلي وجعلت حواسّه كلّها تصاب بالدُّوار. كان يحبها بجنون وعمق، ولكن ذلك كله مضى. كان مجنوناً وغدا الآن عاقلاً.

قالت الليدي هوربوري بشيء من الدهشة: ما الأمر يا ستيفن؟

أجابها بحزم: أودّ التحدث إليك على انفراد.

قالت سيسيلي لخادمتها: مادلين، اتركي ذلك كله واخرجي.

تمتمت الفتاة الفرنسية: "حسناً يا سيدتي"، ورمت اللورد هوربوري بنظرة سريعة بطرف عينها ثم غادرت الغرفة.

انتظر اللورد هوربوري حتى أغلقت الباب ثم قال: أريد أن أعرف بالضبط: ما هي أسباب عودتك إلى هنا يا سيسيلي؟

هزّت الليدي هوربوري كتفيها وقالت: ولِمَ لا أعود؟

- لِمَ لا تعودين؟ يبدو لي أنّ هناك كثيراً من الأسباب الوجيهة.

- آه، الأسباب؟

- نعم، الأسباب. أنت تذكرين أننا اتفقنا -بالنظر إلى علاقتنا- أن من الأفضل أن نُقلع عن مهزلة العيش معاً، كما اتفقنا أن تأخذي المنزل الواقع في المدينة مع مخصصات وافية، بل وافية جداً، وأن تتابعي حياتك الخاصة بطريقتك ضمن حدود معينة. فلماذا هذه العودة المفاجئة؟

هزّت سيسيلي كتفيها ثانية وقالت: اعتقدت أنها أفضل.

- أحسب أنك تقصدين المال؟

- يا إلهي، لكم أكرهك! إنك أبخل رجل في الوجود.

- بخيل؟ تقولين بخيل وعلى عزبة هوربوري رهنٌ سببُه أنت وتبذيرك المجنون.

- هوربوري، هوربوري... هذا كل ما تهتم به! الخيول والصيد والمحاصيل والفلاحون العجائز المملّون. يا إلهي، يا لها من حياة تعيشها امرأة!

- بعض النساء يتمتعن بها.

- نعم، نساء من طراز فينيشيا كير التي هي نفسُها نصف حصان. كان عليك أن تتزوج امرأة من ذلك الطراز.

مشى اللورد هوربوري نحو النافذة ثم قال: تأخرتِ قليلاً في هذه النصيحة، فقد تزوجتك أنت.

- وأنت لا تستطيع الخروج من هذا المأزِق!

كانت ضحكتها حقودة منتصرة، وأضافت: أنت ترغب في التخلص مني، ولكنك لا تستطيع.

- هل ثمة حاجة للخوض في ذلك كله؟

- هذه القيم والمبادئ والتمسك بكل قديم، ألست كذلك؟ إن أغلب أصدقائي ينفجرون ضحكاً عندما أقول لهم الأشياء التي تقولها.

- فليضحكوا كما يشاؤون. هل نعود إلى موضوع نقاشنا الأساسي، عن سبب مجيئك إلى هنا؟

ولكن زوجته لم تكن لتتبع رغباته، فقالت: لقد أعلنتَ في الصحف بأنك لن تكون مسؤولاً عن ديوني، فهل تسمي ذلك تصرفاً مهذباً؟

- إنني آسف كثيراً لاضطراري إلى القيام بهذه الخطوة. لقد حذّرتك كما تذكرين، لقد سددتُ ديونك مرتين، ولكنّ للأمور حدوداً. إن ولعك المجنون بالقمار... ولكن لماذا النقاش؟ أريد فعلاً أن أعرف ما الذي اضطرك إلى المجيء إلى هوربوري. لقد كنت دوماً تكرهين هذا المكان وكان يقتلك الملل هنا.

قالت سيسيلي وقد أصبح وجهها الصغير غاضباً: لقد ظننت بأن ذلك أفضل... الآن فقط.

- الآن فقط؟

كرّر كلماتها بتمعن، ثم طرح سؤالاً بحدة: سيسيلي، هل كنت تقترضين أموالاً من تلك الفرنسية العجوز؟

- أية امرأة؟ لا أعرف ماذا تعني.

- إنك تعلمين ما أعنيه تماماً، أعني المرأة التي قُتلت على متن الطائرة القادمة من باريس، الطائرة التي عادت بها إلى هنا. هل

اقترضت مالاً منها؟

- لا، بالطبع لم أفعل. من أين أتتك هذه الفكرة؟

- هيا يا سيسيلي، لا تتحامقي في هذه القضية. إن كانت تلك المرأة قد أقرضتك مالاً فمن الأفضل أن تخبريني. تذكرّي أن القضية لم تنتهِ ولم تُغلَق بعد، وكان قرار محكمة الاستجواب أنها جريمة قتل عمد ارتكبها شخص أو أشخاص غير معروفين. إن شرطة البلدين تعمل في القضية بدأب، وعثورهم على الحقيقة ليس إلاّ مسألة وقت. ومن المؤكد أن المرأة قد تركت سجلات بمعاملاتها، فإذا ظهر أي شيء يربطك بها فينبغي علينا أن نكون مستعدين مسبقاً. ينبغي لنا أن نستشير فولكيس في القضية. كان ويلبراهام وفولكيس هما محاميا العائلة اللذان تعاملا مع العائلة لعدة أجيال.

- ألم أدلِ بشهادتي في تلك المحكمة اللعينة وأقُل إنني لم أسمع بتلك المرأة.

أجابها زوجها بجفاء: لا أظن أن ذلك يثبت كثيراً من الأمور. إن كان لك تعامل مع جيزيل هذه فلك أن تتأكدي من أن الأمر سيغدو معلوماً للشرطة.

اعتدلت سيسيلي في سريرها بغضب وقالت: ربما كنت تعتقد أنني قتلتها؟ لعلي وقفتُ هناك، في تلك الطائرة، ونفخت سهاماً عليها من أنبوب نفخ؟

- الأمر يبدو جنوناً، ولكنني أريد منك أن تدركي موقفك.

- أي موقف؟ لا يوجد أي موقف. إنك لا تصدق أية كلمة أقولها، تباً. ولماذا تبدي فجأة كل هذه اللهفة عليّ؟ إنك تكرهني، تمقتني، وستكون مسروراً لو متّ غداً، فلماذا التظاهر؟

- ألستِ تبالغين قليلاً؟ وعلى أية حال ومع أنك تعتبرينني من الطراز القديم فإنني أهتمّ بسمعة واسم عائلتي، وذلك اتباعاً لشعور قديم الطراز ربما كنت تحتقرينه، ولكنه موجود لديّ.

ثم استدار على عقبيه بحزم وغادر الغرفة.

كان في صدغيه نبضات تضرب وتتابعت الأفكار في رأسه سريعاً: الكراهية؟ البغض؟ نعم، هذا صحيح تماماً. هل أكون سعيداً لو ماتت غداً؟ يا إلهي، نعم! سأشعر مثل رجل أُخرج من السجن. كم هي غريبة هذه الحياة! كم كانت طفلة رائعة عندما رأيتها لأول مرة في ذلك المطعم، كم كانت تبدو طفلة فاتنة رائعة! يا لي من أحمق! لقد جننت بها، فقدت صوابي... بدت تجسيداً لكل ما هو عذب ومحبوب، وقد كانت طَوال الوقت الإنسانة التي أراها الآن، سوقية شريرة مشاكسة فارغة. لم أعد قادراً حتى على رؤية جمالها الآن.

صَفَر ستيفن فأسرع إليه كلب صغير من فصيلة سبينال وأخذ ينظر إلى صاحبه بعينين مليئتين بمشاعر الحب. عبث بأذنيه الطويلتين المهدبتين، ثم وضع على رأسه قبعة قديمة وغادر المنزل مع كلبه، وبدأ بالمشي الوئيد دون هدف في مزرعته محاولاً تهدئة أعصابه الثائرة. مسّد بيده عنق كلبه المفضل وتبادل كلمة مع سائس الخيل، ثم ذهب إلى مزرعة البيت حيث تبادل بعض الحديث مع زوجة المزارع.

كان يمشي في ممشى ضيق وكلبه يركض خلفه عندما قابل فينيشيا كير على ظهر جوادها الكستنائي. بدت فينيشيا في أفضل صورها وهي تمتطي جواداً. نظر إليها اللورد هوربوري بإعجاب وشعور غريب بالدفء والعودة إلى بيئته الطبيعية. حياها قائلاً:

مرحباً يا فينيشيا.

- مرحباً بك يا ستيفن.

- أين كنت؟ هناك، في مزرعة الفدادين الخمسة؟

- نعم. هذه المهرة تنمو بشكل رائع، أليس كذلك؟

- من الطراز الأول. هل رأيت ذلك الجواد ابن العامين الذي اشتريته من سوق تشانيسلي؟

تحدثا عن الخيول لبضع دقائق، ثم قال لها: بالمناسبة، سيسيلي هنا.

- هنا، في هوربوري؟

لم يكن من دأب فينيشيا أن تظهر الدهشة، ولكنها لم تتمكن من إخفاء نبرة الدهشة الكامنة في صوتها.

- نعم، وصلت ليلة أمس.

ساد صمت بينهما، بعده قال ستيفن: لقد كنتِ في ذلك الاستجواب يا فينيشيا، فكيف... أعني، كيف سارت الأمور؟

فكرت لحظة ثم قالت: حسناً، لا أحد أدلى بالكثير من المعلومات، إن كنت تفهم ما أعنيه.

- ألم يصرح رجال الشرطة بشيء؟

- لم نسمع منهم أي شيء.

- لا بد أن ذلك كان أمراً مزعجاً لك.

- لم يكن ممتعاً بالتأكيد، ولكنه لم يكن مفجعاً أيضاً؛ لقد

كان قاضي التحقيق نزيهاً ومحترماً تماماً.

ضرب ستيفن شجيرات السياج وهو شارد الذهن ثم قال: أقول يا فينيشيا... هل لديك فكرة، أعني بخصوص من ارتكب الجريمة؟

هزّت فينيشيا كير رأسها ببطء وقالت: لا. ثم سكتت لحظة لتبحث عن أفضل وأذكى طريقة تعبر فيها عما تريد قوله، وقد توصلت إلى تلك الطريقة أخيراً مترافقة مع ضحكة خافتة: على كل حال لم تكن سيسيلي ولا أنا مَن فعل ذلك. هذا ما أنا واثقة منه لأنها كانت ستراني كما كنت سأراها لو فعل أحدنا ذلك.

ضحك ستيفن أيضاً وقال بفرح: هذا حسن جداً.

نطق بكلمته على سبيل النكتة، ولكنها لمست الارتياح في صوته. إذن فقد كان يفكر... ثم غيرت مجرى تفكيرها.

قال ستيفن: فينيشيا، لقد عرفتك منذ زمن طويل، أليس كذلك؟ منذ كنّا أطفالاً صغاراً، وأشعر أن بوسعي أن أقول لك بعض الأشياء.

- بوسعك طبعاً.

وترددت قليلاً، ثم أضافت بنبرة هادئة واقعية: أظن أنك ستتحدث بشأن سيسيلي؟

- نعم؛ اسمعي يا فينيشيا، هل كانت سيسيلي متورطة مع تلك المرأة جيزيل بأي شكل؟

أجابت فينيشيا ببطء: لا أعرف. لقد كنت في جنوب فرنسا كما تعلم، ولم تصلني أحاديث وإشاعات لوبينيه بعد.

- ما هو رأيك؟

- حسناً، بصراحة لن يدهشني تورطها.

هزّ ستيفن رأسه مفكراً، فقالت فينيشيا بلطف: وهل ينبغي أن تقلق أنت؟ أعني أنكما تعيشان منفصلَين تقريباً، كلٌّ منشغل بحياته، أليس كذلك؟ وهذه القضية من شأنها هي لا من شأنك.

- ولكن ما دامت زوجتي فالقضية هي حكماً قضيتي أيضاً.

- ألا تستطيعان أن... أن تتفقا على الطلاق؟

- هل تقصدين تلفيق حجة للطلاق؟ أشك في قبولها ذلك.

- هل تطلّقها لو سنحت لك الفرصة؟

قال بكآبة: لو توفر لديّ سبب لطلّقتها بالتأكيد.

- وأظنها تعرف ذلك، أليس كذلك؟

- بلى.

صمت الاثنان، وفكرت فينيشيا مع نفسها: إنها حقودة مشاكسة! أعرف ذلك تماماً، ولكنها حذرة حريصة ماكرة. ثم رفعت صوتها قائلة: فليس هناك ما يمكن فعله إذن؟

هزّ ستيفن رأسه ثم قال: لو كنت حراً يا فينيشيا، فهل كنت تتزوجينني؟

أجابت فينيشيا بصوت مجرد عمداً من العاطفة وهي تنظر بين أذني جوادها: أظنني كنت سأقبل.

ستيفن! لقد أحبّت ستيفن دوماً، منذ الأيام الخوالي، منذ أيام

المدرسة واللعب والبحث عن أعشاش الطيور... وقد كان ستيفن مغرماً بها، ولكنه لم يكن مغرماً إلى الحد الذي يمنعه من الوقوع في غرام أهوج مجنون مع فتاة كورس لها مكر القطة ودهاؤها.

قال ستيفن: كنا سنعيش حياة رائعة معاً.

وطافت الصور أمام عينيه: الصيد، تناول الشاي والفطير، رائحة الأرض الندية والأوراق، الأطفال... كل الأشياء التي لم يكن بوسع سيسيلي أن تشاركه فيها أو تعطيه إياها. غطّت عينيه غشاوةٌ كأنها الضباب، ثم سمع فينيشيا تتكلم بنفس ذلك الصوت المسطح الخالي من العاطفة: ستيفن، إن كنت مهتماً فما رأيك بذلك؟ إن رحلنا معاً فإن سيسيلي ستضطر إلى الموافقة على الطلاق.

قاطعها بعنف: يا إلهي! هل تظنين أني أدعك تفعلين شيئاً كهذا؟

- إنني لا أبالي.

- ولكني أبالي.

تحدث بشكل محسوم. وفكرت فينيشيا مع نفسها: "تلك هي القضية؛ إنه لأمر مؤسف حقاً. إنه كاره لها إلى أبعد الحدود ولكنه يبقى نزيهاً ملتزماً بمبادئه رغم ذلك، وما كنت لأريده أن يختلف عن طبعه". أما بصوت عالٍ فقالت: حسناً يا ستيفن، إنني ذاهبة.

وَكَزت حصانها بكعبها بلطف، وعندما دارت لتلوّح لستيفن بالوداع التقت عيناهما، وفي تلك النظرة السريعة ظهرت كل المشاعر التي تجنّبتها كلماتُها الحذرة.

لدى انعطافها عند زاوية المرج سقط سوط فينيشيا منها،

وتصادف أنّ رجلاً كان يمشي فالتقطه وأعطاه لها مع انحناءة مبالَغ بها. فكّرت وهي تشكره: إنه أجنبي، يبدو أنني رأيت وجهه من قبل.

وبحث نصف عقلها في أيام الصيف التي قضتها في لوبينيه فيما كان النصف الآخر يفكر بستيفن. ولم تسعفها الذاكرة إلاّ لدى وصولها إلى بيتها؛ صَحَتْ فجأة لتنبه عقلها الحالم: إنه الرجل الضئيل الذي أعطاني مقعده في الطائرة. قالوا خلال التحقيق إنه رجل التحري.

وسرعان ما جاءت فكرة أخرى: ما الذي يفعله هنا؟

* * *

الفصل الثالث عشر
في مؤسسة أنطوان

حضرت جين إلى مؤسسة أنطوان لتصفيف الشعر في صباح اليوم الذي أعقب الاستجواب بشيء من الخوف. وقف الشخص الذي يعُتبَر عادةً أنه هو المسيو أنطوان نفسه (واسمُه الحقيقي هو أندرو ليتش) ليحيّيها بتقطيبة تنذر بالشؤم.

وبّخ جين قائلاً إنها بلهاء تماماً. فلماذا رغبَت في السفر جواً على كل حال؟ من أين جاءتها هذه الفكرة! إن خطوتها الطائشة ستلحق بمؤسسته ضرراً مؤكداً. وبعد أن صبّ جام غضبه كاملاً سمح لجين بالانصراف، وقد تلقت وهي تنصرف غمزة من صديقتها غلاديس.

كانت غلاديس شقراء رقيقة ذات سلوك متعال وصوت منخفض عميق محترف، أما خارج العمل فإن صوتها يعود خشناً مضحكاً. قالت لجين: لا تقلقي يا عزيزتي. إن هذا البَهيم يجلس متسقط العثرات، وأنا أعلم أنك لن تعطيه الفرصة. آه يا إلهي! ها هي شيطانتي العجوز قادمة، تباً لها. ما أظنها إلاّ تشتعل غضباً كعادتها. أرجو أن لا تكون قد أحضرت معها ذلك الكلب اللعين.

بعد دقيقة واحدة كان بالإمكان سماع صوت غلاديس بنبراته المنخفضة العميقة: صباح الخير يا سيدتي، لماذا لم تحضري كلبك الصغير الجميل معك؟ هل نبدأ أولاً بالشامبو وبعدها...

دخلت جين إلى الغرفة المجاورة حيث جلست امرأة ذات شعر مجعَّد منتظرةً وهي تتفحص وجهها في المرآة وتقول لصديقة لها: عزيزتي، إن وجهي مخيف جداً هذا الصباح. إنه مخيف حقاً.

أجابت صديقتها دون اهتمام وهي تقلب بملل أوراق مجلة مضى عليها ثلاثة أسابيع: هل تظنين ذلك يا عزيزتي؟ إنه يبدو لي كشأنه في كل يوم.

ومع دخول جين توقفت الصديقة عن تقليب المجلة وركزت نظرها على جين بشكل نافذ، ثم قالت: إنها هي يا عزيزتي، أنا متأكدة من ذلك.

قالت جين بحيوية مرحة كما هو متوقع منها وبطريقة اعتادتها الآن بحيث أصبحت تتكلم بها آلياً دون أي مجهود يُذكَر: صباح الخير يا سيدتي، لم نرَك منذ وقت طويل، يبدو أنك كنت مسافرة.

أجابت المرأة ذات الشعر المجعّد وقد بدأت تحدق إلى جين هي الأخرى باهتمام صريح مكشوف: كنت في آنتيب.

قالت جين بحماسة كاذبة: يا للروعة! لنرَ الآن، هل تريدين غسل شعرك بالشامبو وتسريحه أم تريدين صبغَه اليوم؟

تقدمت المرأة ذات الشعر المجعّد إلى الأمام وقد انشغلت عن التركيز على جين، وأخذت تتفحص شعرها بدقة ثم قالت: أحسب أن صبغته تتحمل أسبوعاً آخر. يا إلهي كم أبدو مخيفة!

قالت صديقتها: حسناً يا عزيزتي، ما الذي تتوقعينه في هذا

الوقت من الصباح؟

جين: انتظري حتى يتم تسريحه وسترين بعدها.

عادت المرأة تحدّق إلى جين ثم قالت: أخبريني، أأنت الفتاة التي أدلت بشهادتها في المحكمة أمس، الفتاة التي كانت على متن الطائرة؟

- نعم يا سيدتي.

- يا له من أمر بالغ الإثارة! حدّثيني عن القضية.

بذلت جين جهدها لتسلي زبونتها: حسناً يا سيدتي، لقد كان الأمر مخيفاً حقاً...

وأسهبت تروي القصة وتجيب عن الأسئلة عندما تُطرَح: كيف كان شكل المرأة العجوز؟ هل صحيح أنه كان على متن الطائرة اثنان من رجال التحري الفرنسيين وأن الأمر مرتبط بفضائح الحكومة الفرنسية؟ هل كانت الليدي هوربوري بين الركاب حقاً؟ أهي جميلة حقاً كما يقول الجميع؟ ومَن -باعتقاد جين- ارتكب الجريمة؟

واستمر الحديث على هذا الشكل. كان هذا الامتحان الأولي مجرد استهلال لامتحانات ومِحن كثيرة أخرى كانت تجري كلها على نفس النمط؛ كانت النسوة كلهن يردن أن تتعهد شعرَهن الفتاةُ التي كانت في الطائرة، وكان بوسع الجميع أن يقلن لصديقاتهن: يا عزيزتي، أمر مدهش رائع، إنهم يصففون الشعر بشكل رائع أيضاً. اسمها جين، شابة ضئيلة بعض الشيء ذات عينين واسعتين. ستحكي لك القصة كلها لو طلبت ذلك بلطف...

مع نهاية الأسبوع شعرت جين بأن أعصابها تكاد تنهار من الإجهاد

والضغط؛ شعرت أحياناً بأنها لو اضطرت إلى إعادة سرد القصة مرة أخرى فسوف تصرخ أو تهاجم سائليها بمجفف الشعر. ولكنها عثرت في النهاية على طريقة أفضل لإراحة أعصابها ومشاعرها، حيث عمدت إلى السيد أنطوان وطالبته بجرأة بزيادة راتبها.

- أنت تطلبين ذلك؟ هل تملكين الوقاحة لتتقدمي بهذا الطلب في حين أنني لم أقرر إبقاءك هنا إلاّ بدافع طيبة القلب بعد أن تورطت في قضية جريمة قتل؟ كثير من الرجال الذين لا يملكون طيبة قلبي كانوا سيطردونك فوراً.

أجابته جين ببرود: هذا هراء، إنني مصدر جذب للزبائن في هذا المحل وأنت تعرف ذلك، وإن كنت تريدني أن أذهب فسأذهب. سأحصل بسهولة على ما أريده في مؤسسة هنري أو مؤسسة ميسون ريشيه.

- ومن الذي سيعرف أنك انتقلت إلى هناك؟ وما هي أهميتك على كل حال؟

- لقد قابلت صحفياً أو اثنين في أثناء انعقاد محكمة الاستجواب تلك، وسيقوم واحد منهما بالتغطية الإعلامية والدعاية لانتقالي من هذه المؤسسة إلى مؤسسة أخرى.

ولأنه خشي أن يكون ذلك صحيحاً بالفعل فقد وافق أنطوان متذمراً على مطالب جين، وقد حيَّت غلاديس صديقتَها بحماسة قائلة: أحسنت صنعاً يا عزيزتي. هذا الماكر لم يكن ندّاً لك هذه المرة. إذا لم تستطع الفتاة أن تقاتل قليلاً من أجل مصلحتها فلا أدري ماذا سيكون مصيرنا جميعاً؟ عظيم يا عزيزتي، هذا ما تستحقينه، وأنا معجبة بك لذلك.

أجابتها جين وذقنها الصغير يرتفع بشكل مشاكس: أستطيع القتال جيداً من أجل معيشتي، فقد كنت مضطرة إلى ذلك طوال حياتي.

غلاديس: الصلابة يا عزيزتي هي الأساس. ولكن استمري مع الرجل بنفس الأسلوب. إن تصرفك هذا سيجعله يحبك أكثر فأكثر بالفعل. إن الخنوع لا يُطعم خبزاً في هذه الحياة، ولكنني لا أظن أن أياً منا يعاني من هذه المشكلة كثيراً.

بعد ذلك أصبح سرد جين للقصة (الذي كان يتكرر يومياً بقليل من التغيير) أشبه ما يكون بدور تمثله على المسرح.

* * *

تحقق العشاء الموعود والذهاب إلى المسرح مع نورمان غيل في موعده، وقد كان ذلك المساء من تلك الأمسيات الساحرة التي كانت كل كلمة قيلت فيها تظهر وثاقاً إضافياً من العاطفة والأذواق المشتركة. كلاهما كانا يحبان الكلاب ويكرهان القطط، يكرهان محار البحر ويحبان سمك السلمون المدخن، يحبان غريتا غاربو ويكرهان كاترين هيبورن، ينفران من النساء البدينات ويعجبهما الشعر الأسود الفاحم، يكرهان الأظافر المطلية بالأحمر الفاقع، يكرهان الأصوات العالية والمطاعم التي يعلو فيها الضجيج ويفضّلان الحافلات على قطارات الأنفاق.

لقد بدا معجزاً تقريباً أن يلتقي شخصان على هذا العدد الكبير من الأذواق المتفقة.

وفي أحد الأيام، وبينما كانت جين تفتح حقيبتها اليدوية في العمل، سقطت رسالة من غيل. وانحنت لتلتقطها بشيء من الخجل،

فقفزت غلاديس نحوها وقالت: من هو صديقك يا عزيزتي؟

قالت جين وقد تورّد وجهها: لا أعرف ماذا تقصدين.

- لا تحاولي خداعي، فأنا أعرف أن هذه الرسالة ليست من خال أمك العظيم! إنني لم أولد أمس، من هو يا جين؟

- إنه شخص ما... رجل التقيته في لوبينيه، طبيب أسنان.

قالت غلاديس بنفور محبّب: طبيب أسنان؟ أظن أن له أسناناً ناصعة البياض وأنه ذو ابتسامة جميلة.

اضطرت جين إلى الاعتراف بأن ذلك صحيح بالفعل، ثم قالت: إنه ذو وجه شديد السمرة وعينين شديدتي الزرقة.

- يمكن لأي امرئ أن يكون ذا وجه أسمر، ربما كان ذلك من شمس الشاطئ وربما كان نتيجة استخدام دواء يمكن الحصول عليه من أي صيدلي. إن الرجال الوسيمين تكون بشرتهم برونزية خفيفة، أما العينان فيبدو أنهما جميلتان. ولكن، طبيب أسنان! لماذا، إن أراد أن يقبلك فستشعرين بأنه يقول لك: افتحي فمك أكثر قليلاً من فضلك!

- كفاك بلاهة يا غلاديس.

- لا حاجة إلى كل هذه الحساسية يا عزيزتي، أرى أنك أسأت فهمي... نعم يا سيد هنري، إنني قادمة. تباً لهنري هذا! يظن نفسه إمبراطوراً بهذه الطريقة التي يأمرنا بها نحن البنات.

* * *

كانت الرسالة تقترح على جين تناول العشاء مع نورمان غيل

ليلة السبت. وفي موعد الغداء يوم السبت، عندما استلمت جين أجرها الذي تمّت زيادته، شعرت بالتفاؤل والثقة. قالت لنفسها: الغريب أنني كنت قلقة جداً في ذلك اليوم في الطائرة خوفاً على عملي. لقد انتهى كل شيء على أجمل وجه؛ إن الحياة رائعة جداً بالفعل.

كانت تشعر بالحيوية والحماسة، حتى لقد قررت أن تبذّر وتتناول غداءها في مطعم كورْنَر هاوْس وتستمتع بالموسيقى مع طعامها. جلست على مائدة مخصصة لأربعة أشخاص كان يجلس عليها شاب وامرأة في منتصف عمرها. كانت المرأة تنهي غداءها، وما لبثت أن طلبت قائمة حسابها وحملت مجموعة كبيرة من الأكياس وغادرت.

كانت جين -كعادتها- تقرأ كتاباً في أثناء الطعام، وحين رفعت رأسها وهي تقلب الصفحة لاحظت أن الشاب الذي يجلس مقابلها على المائدة يحدق إليها بإمعان، وفي نفس اللحظة أدركت أن وجهه مألوف لديها على نحو غائم لم تتبيّنه. وفيما كانت تدرك تلك الاكتشافات التقت عينا الشاب بعينيها فانحنى تحية وقال: اعذريني يا آنسة، ألم تتذكريني؟

نظرت إليه جين بإمعان أشد. كان ذا وجه أبيض صبياني جذاب بسبب سرعة تعبيره عن مشاعر صاحبه وليس لأية معالم جمالية فيه. وتابع الشاب كلامه قائلاً: صحيح أننا لم نتعارف... إلا إذا أسميت الجريمة تعارفاً، كما أننا أدلينا بشهادتينا في محكمة الاستجواب.

- آه، طبعاً، يا لي من حمقاء! لقد فكرت بأنني أعرف وجهك. أنت...

- جان دوبون.

قالها الشاب وقام بانحناءة صغيرة مضحكة بعضَ الشيء. التمعت في عقل جين ذكرى قول مأثور تردده غلاديس دوماً ويقول: إذا تبعك رجل واحد فمن المؤكد أن يتبعه الآخر؛ يبدو ذلك من قوانين الطبيعة!

لقد كانت حياة جين دوماً حياة بساطة وعمل جاد. كانت فتاة ذكية مرحة ليس لها أصدقاء، والآن يبدو أن الرجال يتهافتون من كل حدب وصوب! لم يكن ثمة شك في أن وجه جان دوبون وهو ينحني فوق المائدة كانت فيه أشياء أكثر من مجرد الأدب والاهتمام. كان مسروراً بجلوسه مقابل جين، بل كان أكثر من مسرور، كان جَذِلاً بالأمر.

فكرت جين مع نفسها بشيء من الريبة قائلة: ولكنه فرنسي، ويقولون دائماً إنّ عليك أن تحترس من الفرنسيين.

قالت جين: "إذن فما زلت في إنكلترا؟"، ثم ما لبثت أن لامت نفسها بصمت بسبب تفاهة هذه العبارة.

- نعم، ذهب والدي إلى أدنبرة ليلقي محاضرة هناك، ولكننا سنعود إلى فرنسا غداً.

- آه.

- هل اعتقل رجال الشرطة أحداً حتى الآن؟

- لا، حتى إن أي شيء لم يُكتَب في الصحف عن الموضوع مؤخراً. ربما نفضوا أيديهم من القضية.

هزّ جان دوبون رأسه وقال: لا، لا، إنهم لن يتخلوا عن

القضية؛ إنهم يعملون بصمت. ثم أومأ بشكل معبّر وأضاف: تحت جنح الظلام.

قالت جين بقلق: لا تقل ذلك، إنك تخيفني.

- نعم، هذا ليس بالشعور المريح كثيراً، أن تكوني قريبة إلى هذا الحد من جريمة قتل ترتكب. وقد كنت أنا أقرب منك، كنت قريباً جداً في الحقيقة. أحياناً أكره التفكير بذلك.

- مَن فعل ذلك برأيك؟ لقد تساءلت مراراً.

هزّ جان دوبون كتفيه وقال: ليس أنا، فقد كانت بشعة جداً!

- حسناً، أحسب أنك تفضّل قتل امرأة بشعة على قتل امرأة جميلة؟

- أبداً؛ إن كانت المرأة جميلة فسيحبها المرء، وقد تعامله بشكل سيء فتدفعه إلى الغيرة، ويجن بغيرته فيقول لنفسه: حسناً، سأقتلها، هذا سيريحني.

- وهل في مثل هذا العمل راحة؟

- هذا ما لا أعرفه يا آنستي، لأنني لم أجرب بعد.

وضحك ثم هزّ رأسه وقال: ولكنّ عجوزاً قبيحة كجيزيل... مَن الذي يريد أن يزعج نفسه ويقتلها؟

- حسناً، هذه إحدى الطرق التي يُنظَر بها إلى الموضوع.

ثم قطبت جبينها وقالت: يبدو مخيفاً بعض الشيء أن يفكر المرء أنها ربما كانت شابة وجميلة ذات يوم.

- أعرف، أعرف؛ إنها المأساة العظمى للحياة، أن تكبر

النساء ويصبحن عجائز.

- يبدو أنك تفكر كثيراً بأشكال النساء.

- قد يبدو هذا غريباً بالنسبة لك لأنك إنكليزية، فالإنكليزي يفكر أولاً في عمله، ثم في رياضته ولهوه، وأخيراً في زوجته. نعم، نعم، هذا هو الواقع بالفعل. تخيّلي، كان رجل إنكليزي في فندق صغير في سورية ومرضت زوجته، وكان عليه أن يكون في مكان ما في العراق في موعد محدد. حسناً، هل تصدقين أنه ترك زوجته وسافر لكي يكون على رأس عمله في الوقت المحدد؟ وقد اعتبرا الأمر، هو وزوجته كلاهما، طبيعياً تماماً! أما الطبيب الذي عالجها (والذي لم يكن إنكليزياً) فقد اعتبر الزوج متوحشاً. فهي زوجة، كائن بشري ينبغي أن تكون له الأولوية، أما أداء عمل المرء فهو أقل أهمية بكثير.

- لا أدري، ولكن أحسب أن عمل المرء ينبغي أن تكون له الأولوية.

- لماذا؟ أرأيت؟ ها أنت أيضاً تحملين الرأي نفسه. عند قيام المرء بعمله فهو يحصل على المال، وعند العناية بامرأته فإنه يصرف ذلك المال، لذلك فإن الأمر الثاني أكثر نبلاً ومثالية من الأول.

ضحكت جين وقالت: آه، حسناً، أظن أنني أفضّل أن ينظر زوجي إليّ على أنني زوجة محبوبة أكثر من اعتباري الواجب رقم واحد بهذه الصرامة. أفضل أن يشعر بأنه يمتع نفسه عندما يعتني بي، لا أن يشعر بأنني واجب ينبغي عليه أن يؤديه.

- لا أحد يمكن أن يشعر بذلك معك يا آنستي.

تورّدت وجنتا جين قليلاً أمام نبرة الشاب، ومضى هو يتحدث

بسرعة: إنني لم أزر إنكلترا إلاّ مرة واحدة من قبل، وقد كان من الممتع جداً لي -ذلك اليوم في الاستجواب- أن أدرس وأراقب ثلاث شابات فاتنات، كل منهن تختلف عن الأخرى.

سألت جين: وماذا كان رأيك بهن جميعاً؟

- تلك الليدي هوربوري، آه، إنني أعرف مثيلاتها جيداً. إنها غريبة جداً وخارجة عن المألوف ومبذرة جداً جداً. بوسعك أن تشاهدي مثيلاتها جالسات على طاولات القمار؛ الوجه الناعم والتعبير القاسي. وأنت تعلمين، تعلمين جيداً كيف ستكون أشكالهن بعد خمس عشرة سنة مثلاً. إنها تعيش من أجل المتعة والتسلية، من أجل المغامرات، وربما المخدرات... إنها لا تثير الاهتمام قطعاً.

- والآنسة كير؟

جان: آه، هذه إنكليزية جداً جداً. ولن يتردد صاحبُ متجر في الريفيرا أن يُقرضها ويثق بها، فإن أصحاب المتاجر عندنا ذوو بصيرة نافذة جداً. ملابسها رائعة التفصيل، ولكنها تشبه ملابس الرجال بعض الشيء. وهي تمشي وكأنها تمتلك الأرض وما عليها، إلا أنها ليست مغرورة رغم ذلك. إنها امرأة إنكليزية تماماً، وهي تعرف من أي قسم من إنكلترا ينحدر كل فرد من الأفراد.

- وأنا؟

- أنت؟ قلت لنفسي: كم يكون رائعاً أن أراها ثانية ذات يوم، وها أنا هنا أمامك. إن الأقدار ترتب الأمور بشكل رائع أحياناً.

- أنت عالم آثار، أليس كذلك؟ إنك تحفر وتستخرج الأشياء؟

أصغت بانتباه شديد لجان دوبون وهو يتحدث عن عمله،

وأخيراً تنهدت وقالت: لقد زرتَ بلداناً كثيرة ورأيت الكثير، يبدو هذا رائعاً، أما أنا فلم أذهب إلى أي مكان ولم أرَ شيئاً.

- هل تحبين ذلك؟ أن تسافري وتشاهدي مناطق غريبة غير مأهولة في الأرض؟ لكنك لن تستطيعي عندها أن تموّجي شعرك، تذكّري ذلك.

ضحكت جين وقالت: "إنه يتموّج من تلقاء نفسه". ثم نظرت إلى الساعة الجدارية ونادت النادلة على عجل طالبةً فاتورة حسابها.

قال جان دوبون بقليل من الحرج: آنستي، أتساءل إن كنت تسمحين... كما قلت لك: سأعود غداً إلى فرنسا، فهل تسمحين بتناول العشاء معي الليلة؟

- أنا آسفة جداً، لا أستطيع لأنني سأتعشى مع شخص اليوم.

- آه، أنا آسف جداً. هل تأتين إلى باريس في القريب؟

- لا أظن ذلك.

- وأنا أيضاً لا أعرف متى يمكن أن أزور لندن ثانية. إنه لأمر محزن.

وقف لحظة وهو ينظر إليها ثم قال: آمل أن أراك ثانية، آمل ذلك كثيراً.

وبدا وكأنه يقصد ما يقول.

* * *

الفصل الرابع عشر
في موسويل هيل

في نفس الوقت، حين كانت جين تغادر مؤسسة أنطوان، كان نورمان غيل يقول بلهجة ودية محترمة: سأعالجه بلطف، أخبريني إن أحسستِ بأي ألم.

وأدخلت يدُه الخبيرة حفّارةَ الأسنان الكهربائية، ثم ما لبث أن قال: حسناً، هل أكملت الخلطة يا آنسة روس؟

كانت الآنسة روس بجانبه تماماً تمزج خلطة بيضاء على لوح صغير، وأكمل نورمان غيل حشو الضرس ثم قال: هل تأتين يوم الثلاثاء القادم لتصليح بقية الأسنان؟

اندفعت مريضته التي كانت تغسل فمها بسرعة في شرح مفصَّل. قالت إنها مسافرة وإنها آسفة جداً لأنها ستضطر إلى إلغاء الموعد القادم، وقالت إنها ستبلغه بعودتها عندما تعود. ثم فرّت من الغرفة بسرعة.

قال غيل: حسناً، كفانا عملاً اليوم.

قالت الآنسة روس: لقد اتصلت الليدي هيغينسون لتقول إنها مضطرة إلى إلغاء موعدها في الأسبوع القادم، وهي لا تريد

تحديد موعد آخر. كما أن الكولونيل بلانت لا يستطيع الحضور يوم الخميس.

هزّ نورمان غيل رأسه وقد تجهم وجهه. كان كل يوم كسابقه: أناس يتصلون ومواعيد تُلغَى. كل أنواع الأعذار تُطرَح: مسافر، ذاهب إلى الخارج، زكام، ربما لا أكون هنا... لا يهم ما يطرحونه من عذر، فقد رأى نورمان السبب الحقيقي الذي لا تخطئه العين، رآه قبل قليل في عين آخر مريضة عالجها عندما مدّ يده ليأخذ الحفّارة، رأى نظرة رعب مفاجئة. كان بوسعه أن يسجل أفكار المرأة على الورق: "آه يا عزيزتي، طبعاً كان على متن تلك الطائرة عندما قُتلت المرأة. إنني لأعجب، لا بد أنك سمعت عن أناس يفقدون عقلهم ويرتكبون أشد الجرائم بشاعة. ليس الأمر أميناً بالفعل، ربما كان الرجل قاتلاً مهووساً. لقد سمعت أنهم يظهرون كبقية الناس تماماً، وأعتقد أنني شعرت دوماً بأن في عينيه نظرة من نوع خاص".

قال غيل: حسناً، يبدو أن أسبوعنا القادم سيكون أسبوعاً هادئاً مريحاً يا آنسة روس.

- نعم، لقد ألغى الكثيرون مواعيدهم، ولكن يمكنك العمل بالباقين. لقد عملت بجد كبير في وقت مبكر من هذا الصيف.

- لا يبدو متوقعاً أن تتاح لي فرصة العمل بجد كبير في الخريف، أليس كذلك؟

لم تجب الآنسة روس، وقد أنقذها رنين الهاتف من ضرورة الإجابة فخرجت من الغرفة. أسقط نورمان غيل بعض الأدوات في جهاز التعقيم وراح يفكر بعمق: يجب أن أقيّم موقفي دون الضياع في المسائل الفرعية. إن هذه القضية توشك أن تقضي عليّ مِهَنياً،

والمضحك هو أن القضية نفسها خدمت جين بشكل جيد، فالناس يأتون ليستمعوا إليها. ولو فكر المرء بالأمر لتبين له مَكمن العلّة في ذلك، وهو أن الناس مضطرون للحضور إليّ وفتح أفواههم، وهم لا يحبون ذلك، إذ يتملك المرءَ شعورٌ سيء بالضعف والعجز وهو على كرسي طبيب الأسنان، فلو تحول الطبيب إلى قاتل مهووس...

إن القتل مسألة غريبة تماماً. يظنها المرء أحياناً قضية واضحة محددة، ولكنها ليست كذلك، فهي تؤثر في أشياء عديدة غريبة لا تخطر على بال. فلنعد إلى الحقائق. يبدو أنني انتهيت كطبيب أسنان! إنني أتساءل: ما الذي يحدث لو اعتقلوا تلك المرأة هوربوري؟ هل يعود مرضاي إليّ زرافات ووحداناً؟ يصعب الجزم بذلك، فما إن يدبّ العفن... آه، حسناً، وما أهمية ذلك؟ لن أهتم. بل إنني أهتم بسبب جين، جين الرائعة التي أريدها ولا يمكنني الفوز بها. ولكن...

ابتسم وتابع تفكيره: أشعر أن الأمور ستكون على ما يرام، فهي تهتم بي وسوف تنتظر. سأذهب إلى كندا، نعم، سأذهب وأجمع مالاً هناك.

ضحك بينه وبين نفسه، فيما عادت الآنسة روس إلى الغرفة وقالت: كانت تلك السيدة لوري على الهاتف، وقالت إنها آسفة...

قاطعها نورمان وأكمل العبارة: لأنها ستسافر إلى جزر الواق واق، عاشت الجرذان! يحسن بك أن تبحثي عن عمل آخر يا آنسة روس؛ إذ يبدو أن سفينتنا تغرق.

- آه يا دكتور غيل، لم أكن لأفكر في تركك.

- جميل منك، ولكني أعني بجد ما أقول. إن لم يحدث شيء لتوضيح هذه الفوضى فسيُقضَى عليّ.

قالت روس بحماسة: لا بد من القيام بشيء إزاء ذلك! أظن أن الشرطة يتصرفون بشكل مُهين، إنهم لا يحاولون القيام بأي شيء.

ضحك نورمان وقال: أعتقد أنهم يحاولون بكل جهدهم.

- لا بد أن يفعل أحدٌ شيئاً.

- هذا صحيح تماماً، حتى إنني فكرت بأن أصنع شيئاً ما بنفسي، مع أنني لا أعرف ماذا أفعل.

- آه يا دكتور غيل، لو كنت مكانك لتصرفت. إنك ذكي جداً.

فكر نورمان غيل مع نفسه قائلاً: أنا في نظر هذه الفتاة بطل وهي تريد أن تساعدني في مغامرتي البوليسية، ولكنني أحتفظ في ذهني بشريكة أخرى غيرها.

* * *

في نفس ذلك المساء تناول نورمان غيل عشاءه مع جين، وقد تظاهر بشكل نصف واع بأنه ذو معنويات عالية، ولكن جين كانت أدهى من أن تُخدَع، فقد لاحظت لحظات شروده المفاجئة والتقطيبةَ البسيطة التي ظهرت بين حاجبيه والخطّ الذي يتوتر فجأة قرب فمه. وأخيراً قالت: نورمان، هل تسير الأمور بشكل سيء؟

رماها بنظرة سريعة ثم نظر بعيداً وقال: حسناً، إنها ليست جيدة جداً. ولكن هذا الوقت من العام سيء عادةً.

أجابته بحدة: لا تكن أحمق.

- جين!

- إنني أعني ما أقول. ألا ترى أن بوسعي أن أراك قلقاً حتى الموت؟

- لست قلقاً حتى الموت، إنني منزعج فقط.

- هل تعني أن الناس يتجنبون...

- يتجنبون تفويض أمر أسنانهم إلى قاتل محتمَل؟ نعم.

- يا له من ظلم قاس!

- إنه ظلم بالفعل، لأنني -بصراحة يا جين- طبيب أسنان ممتاز جداً، وأنا لست قاتلاً.

- إنه تصرف شرير. ينبغي أن يفعل أحدٌ شيئاً.

- هذا ما قالته الآنسة روس صباح اليوم.

- كيف شكلها؟

- الآنسة روس؟

- نعم.

- آه، لا أدري. إنها ضخمة، مجموعة عظام، أنفها كأنه أنف الحصان الخشبي، وهي ذات كفاءة كبيرة.

- يبدو أنها لطيفة تماماً.

اعتبر نورمان عبارتها نوعاً من تقدير دبلوماسيته، وكان محقاً في ذلك. لم تكن عظام الآنسة روس مخيفة كما وصفها، كما أنها ذات

رأس جميل جداً بشعره الأحمر، ولكنه أحسّ -وكان محقاً- بأن من الأفضل أن لا يثير النقطة الأخيرة مع جين.

قال: إنني أودّ القيام بشيء ما، لو كان لي أن أرى طرف خيط أو أي دليل أو أن أتابع أحداً وألاحقه.

شدّت جين كمّه فجأة وقالت: انظر، ذاك هو السيد كلانسي، ذلك الكاتب. إنه يجلس هناك وحده. يمكننا أن نلاحقه.

- ولكننا كنا ذاهبَين إلى السينما.

- دعك من السينما. أشعر أن ذلك ربما كان مقصوداً بطريقة ما؛ أنت قلت إنك تريد أن تتعقب أحداً، وها هو هذا الواحد. من يدري؟ ربما كشفنا شيئاً.

كانت حماسة جين مُعْدِية، فاستجاب نورمان للخطة بسرعة وقال: كما قلتِ، مَن يدري؟ أين وصل في طعامه؟ لا أستطيع رؤيته دون أن ألتفت وأنا لا أريد أن أنظر إليه.

- لقد قطع نفس الشوط الذي قطعناه في الطعام تقريباً. يحسن بنا أن نسرع قليلاً لنسبقه، وعندها نستطيع دفع الحساب لنكون مستعدَّين للمغادرة عندما يغادر هو.

اتبّعا تلك الخطة، وأخيراً نهض السيد كلانسي الضئيل وخرج إلى الشارع فما لبث نورمان وجين أن كانا خلفه. قالت جين: ماذا لو استقل سيارة أجرة؟

ولكن السيد كلانسي لم يستقل سيارة أجرة، بل مشى بتمهل وهدوء في شوارع لندن وفوق ذراعه معطف يتدلّى بين الفينة والفينة على الأرض. كانت مسيرته غريبة بعض الشيء؛ كان يتقدم أحياناً

بهَرْوَلة رشيقة سريعة، ثم يبطئ أحياناً حتى يكاد يتوقف. وفي إحدى الحالات توقف وهو يهمّ بقطع أحد الشوارع ووقف هناك وإحدى قدميه معلقة على الحاجز الحجري، فبدا تماماً مثل أفلام الحركة البطيئة. وكان اتجاه سيره غريباً أيضاً؛ إذ عمد إلى الانعطاف يميناً عند عدة منعطفات بحيث عاد يمشي في الشوارع نفسها مرة أخرى.

شعرت جين بارتفاع معنوياتها وقالت بحماسة: أرأيت؟ إنه خائف من أن يكون مراقَباً. إنه يحاول أن يضللنا.

- هل تعتقدين ذلك؟

- طبعاً، فلا أحد يدور في الشوارع ذاتها لو لم يكن الأمر كذلك.

- آه.

دارا حول منعطف بسرعة وكادا يرتطمان بطريدتهما. كان يقف محدّقاً إلى محل جزّار. كان المحل نفسه مغلقاً بالطبع ولكن بدا أنّ شيئاً ما على مستوى ارتفاع الطابق الأول هو الذي يشد انتباه السيد كلانسي، فقد قال بصوت مرتفع: تماماً، الشيء المطلوب بالضبط. يا للحظ السعيد!

أخرج دفتراً صغيراً وسجّل فيه شيئاً بعناية، ثم انطلق مجدداً بخطوة رشيقة وهو يهمهم بلحن بسيط. أصبح يتجه الآن نحو شارع بلومزبيري بالتأكيد، وأحياناً عندما كان يدير رأسه كان الاثنان خلفه يستطيعان رؤية شفاهه تتحرك.

قالت جين: إن لديه شيئاً ما، إنه تحت ضغط عقلي رهيب، فهو يتحدث مع نفسه دون أن يدري!

وفيما كان ينتظر إشارة المرور ليعبر اقترب منه نورمان وجين. كان ذلك صحيحاً تماماً؛ إنه يتحدث مع نفسه! بدا وجهه شاحباً متعَباً، واستطاع نورمان وجين أن يلتقطا بضع كلمات مغمغمة: لماذا هي لا تتكلم؟ لماذا؟ لا بد من سبب...

تحولت إشارة المرور إلى اللون الأخضر، وعندما وصلوا إلى الرصيف المقابل قال السيد كلانسي: لقد عرفت الآن. طبعاً، لهذا السبب ينبغي إسكاتها!

وكزت جين نورمان بشدة. انطلق السيد كلانسي الآن بخطوات سريعة، وأصبح المعطف يكنُس الأرضَ. قطع المؤلف الضئيل الأرض بخطى واسعة غافلاً -كما يبدو- عن الشخصين السائرَين في أثره. وأخيراً وقف أمام بيت فجأة، وفتح الباب بمفتاح ودخل.

تبادل نورمان وجين النظرات، وقال نورمان: إنه بيته. رقم ٤٧ في ساحة كاردينغتون، هذا هو العنوان الذي أعطاه في أثناء الاستجواب.

- آه، حسناً، ربما خرج ثانية بعد بعض الوقت. وعلى أية حال فقد سمعنا شيئاً ما. إن امرأة سيتم إسكاتها، وامرأة أخرى لا تريد أن تتكلم. آه يا عزيزي، يبدو الأمر تماماً كقصة بوليسية!

جاء صوت من الظلام: مساء الخير.

تقدم صاحب الصوت، وظهر على ضوء مصباح الشارع شاربان ضخمان. قال هيركيول بوارو: حسناً، أمسية جميلة تصلح للمطاردة، أليس كذلك؟

* * *

الفصل الخامس عشر
في بلومزبيري

كان نورمان غيل هو الأسبق إلى استعادة رباطة جأشه أولاً وقال: بالطبع، أنت السيد... السيد بوارو. أما زلت تحاول تبرئة نفسك يا سيد بوارو؟

- آه، إنك تتذكر محادثتنا القصيرة، أليس كذلك؟ وهل المسكين كلانسي هو مَن تشكّان فيه؟

جين: وأنت أيضا تشك فيه، وإلاّ لما كنت هنا.

نظر بوارو إليها بإمعان لحظة ثم قال: هل فكّرتِ بمسألة القتل من قبلُ يا آنسة؟ أعني: هل فكرت فيها بشكل نظري وبأعصاب باردة ودون عواطف؟

- لا أظن أنني فكرت بهذا الأمر إلاّ مؤخراً فقط.

هزّ بوارو رأسه وقال: نعم، تفكرين بها الآن لأن جريمة قتل قد مَسَّتك شخصياً. أما أنا فقد تعاملت مع الجريمة لسنوات طويلة، ولديّ طريقتي الخاصة في النظر إلى الأشياء. ما الذي تعتقدان أنه أهم شيء ينبغي على المرء أن يضعه في ذهنه وهو يحاول حل لغز جريمة قتل؟

قالت جين: كشف القاتل.

نورمان: العدالة.

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: ثمة أمور أكثر أهمية من كشف القاتل. كما أن العدالة كلمة جميلة ولكن يصعب تحديد معناها أحياناً. إن الأمر المهم -في رأيي- هو تبرئة ساحة البريء.

جين: آه، طبعاً. هذا تحصيل حاصل، فلو اتُّهِم أي إنسان ظلماً...

بوارو: ولا هذا أيضاً. ربما لا يكون هناك اتهام، ولكن حتى يتم إثبات جرم شخص ما دون أي شك ممكن يبقى جميع مَن ارتبطوا بالجريمة معرّضين للمعاناة بدرجات مختلفة.

قال نورمان غيل بنبرة مؤكِّدة: يا لصحة هذا القول!

جين: ألا نعرف ذلك؟

دارت عينا بوارو بينهما وقال: "أرى أنكما كنتما تكتشفان ذلك بنفسكما". ثم أصبح فجأة نشيطاً مندفعاً وهو يقول: هيا الآن، فلديّ شؤون عليّ أن أتابعها، وما دامت أهدافنا واحدة نحن الثلاثة فلنشترك معاً. إنني على وشك زيارة صديقنا العبقري السيد كلانسي، وأقترح أن ترافقني الآنسة بحجة أنها سكرتيرتي. هاكِ يا آنستي دفتر الملاحظات هذا وهذا القلم للاختزال.

- ولكنني لا أجيد الاختزال.

قال بوارو: طبيعي أنك لا تعرفين الاختزال، ولكنك تتمتعين بسرعة البديهة والذكاء وبوسعك أن تدوّني إشارات مفهومة بالقلم على هذا الدفتر، أليس كذلك؟ حسناً. أما السيد غيل فأقترح أن

يقابلنا في غضون... لنقل ساعة واحدة، وليكن في الطابق العلوي من مطعم مونسينيور. ما رأيك؟ حسناً، سوف نتبادل الآراء هناك.

ثم تقدم فوراً إلى جرس الباب وقرعه، فتبعته جين وقد أخذتها الدهشة وهي ممسكة بدفتر الملاحظات. وفغر نورمان غيل فمه كما لو أنه يريد الاحتجاج، ثم بدا أن الفكرة قد لاقت استحسانه فقال: حسناً، بعد ساعة إذن، في مطعم مونسينيور.

فتحت البابَ امرأةٌ مخيفة بعض الشيء في أواسط عمرها وترتدي ثياباً سوداء كالحة. سألها بوارو: منزل السيد كلانسي؟

تراجعت قليلاً ودخل بوارو وجين، وسألته المرأة: ما اسمك يا سيدي؟

- هيركيول بوارو.

قادتهما المرأة صعوداً على الدرج ثم إلى غرفة في الطابق الأول، ثم أعلنت الاسم على طريقتها: السيد أركول برو.

أدرك بوارو فوراً وَجاهة التصريح الذي أدلى به كلانسي في كرويدون حين قال إنه ليس رجلاً منظماً، فقد كانت الغرفة الطويلة بنوافذها الثلاث الممتدة على طولها وبرفوف وخزائن الكتب على جدرانها الأخرى، كانت في حالة فوضى: أوراق منثورة، وملفات، وقشور موز، وزجاجات فارغة، وكتب مفتوحة، ووسائد أرائك، ومزمار، وأوان صينية متنوعة، وكليشيهات مطبوعة، وتشكيلة رهيبة من أقلام الحبر. وفي وسط هذه الفوضى كان السيد كلانسي يجاهد بآلة تصوير ولفافة أفلام بين يديه.

- يا إلهي!

قالها السيد كلانسي وهو يرفع نظره عندما أُعلن عن زائرَيه. وضع آلة التصوير جانباً ووقعت لفافة الأفلام على الأرض لتنفتح من تلقاء نفسها. تقدم ومدّ يده قائلاً: أنا سعيد برؤيتكما.

- إنك تتذكرني ولا ريب؟ هذه سكرتيرتي الآنسة غري.

- تشرّفنا يا آنسة غري.

صافحها ثم التفت إلى بوارو قائلاً: نعم، طبعاً أتذكرك، الآن على الأقل. أين التقينا بالضبط؟ هل التقينا في أحد النوادي؟

- لقد كنا رفاق سفر على متن الطائرة القادمة من باريس في إحدى المناسبات المشؤومة.

- آه، طبعاً، صحيح. والآنسة غري أيضاً. إلا أنني لم أدرك أنها سكرتيرتك؛ في الواقع كانت لدي فكرة بأنها تعمل في صالون تجميل أو في مكان مشابه.

نظرت جين بلهفة إلى بوارو الذي كان على قدر الموقف وقال: صحيح تماماً، فالآنسة غري تضطر أحياناً إلى تولي أعمال معينة ذات طبيعة مؤقتة، هل تفهمني؟

- طبعاً، لقد نسيت. فأنت رجل تحرٍّ، من رجال التحري الحقيقيين لا من عناصر سكوتلنديارد. تفضلي بالجلوس يا آنسة غري. لا، لا تجلسي هناك، أظن أن ذلك الكرسي موسخ بعصير البرتقال. دعيني أرفع هذا الملف. آه، إن المكان كله فوضى. لا عليك، اجلس هنا يا سيد بوارو. هذا مناسب، أليس كذلك يا سيد بوارو؟ ليس المسند مكسوراً بالفعل، إنه يَصِرّ فقط عندما تستند عليه، ربما كان من الأفضل أن لا تستند عليه بقوة. نعم، أنت محقق خاص، كشخصية رواياتي ويلبراهام رايس. لقد اعتاد

القراء على ويلبراهام رايس وأحبوه كثيراً؛ إنه يقرض أظافره ويأكل كثيراً من الموز. وأنا لا أعلم فعلاً لماذا جعلتُه يقرض أظافره، فهي عادة مقرفة حقاً. ولكن هذا ما حدث، فقد بدأ بقرض أظافره، وهو مضطر الآن إلى المُضِيّ في هذه العادة في كل كتاب أكتبه، وهو أمر رتيب ممل. أما أكل الموز فإنها عادة سيئة، لكن ربما كان في ذلك بعض التسلية حيث تنزلق أقدام المجرمين على القشور. أنا شخصياً آكل الموز ومن هنا جاءتني الفكرة... ولكني لا أقرض أظافري. هل تشربان شيئاً؟

بوارو: لا، شكراً.

تنهّد السيد كلانسي وجلس وحدّق إلى بوارو قائلاً: أستطيع تخمين سبب زيارتكما؛ إنه مقتل جيزيل. لقد فكرت طويلاً في تلك القضية. بوسعك أن تقول في وصفها ما تشاء، فهي مدهشة جداً: سهام مسمومة وأنبوب نفخ على متن طائرة! إنها فكرة استخدمتها أنا شخصياً كما قلت لك، سواء في رواياتي الطويلة أم في القصص القصيرة. كان ذلك حدثاً فظيعاً بالطبع، ولكن عليّ أن أعترف -يا سيد بوارو- بأنني أُثِرتُ كثيراً، بالمعنى الإيجابي للإثارة.

بوارو: بوسعي أن أرى تماماً بأن هذه الجريمة قد أعجبتك من الناحية المهنية يا سيد كلانسي.

أشرقت أسارير كلانسي وقال: بالضبط. لكنني لم أُقابَل إلاّ بالشك، سواء كان ذلك من المحقق أو خلال الاستجواب. إنني أبذل كل ما بوسعي لمساعدة العدالة، ولكن جزائي على كل ما أفعله هو الشك الصريح الغبي!

ابتسم بوارو وقال: ولكن يبدو أن هذا لم يؤثر فيك كثيراً.

- آه، ذلك لأن لي طرقي الخاصة يا واطسن... إن سمحت لي أن أناديك واطسن، وأنا لا أقصد الإساءة. وبالمناسبة فإن استمرار أسلوب الاستعانة بصديق غبي أبله في القصص البوليسية مسألة تثير الاهتمام. وأنا شخصياً أعتقد أن قصص شيرلوك هولمز قد بولغ كثيراً في تقديرها، فالمغالطات التي تحويها تلك القصص مدهشة بالفعل... ولكن عن ماذا كنت أتحدث؟

بوارو: لقد قلتَ إن لك طرقك الخاصة.

تقدم بجسمه قليلاً وقال: آه، نعم. سوف أضع ذلك المفتش... ما اسمه؟ جاب؟ نعم، سأضعه في كتابي القادم، وسترى عندها كيف يعامله ويلبراهام رايس.

- «بين موزة وأخرى» إذا صحّ هذا التعبير.

ضحك كلانسي وقال: بين موزة وأخرى... هذا تعبير جميل.

- إن لديك ميزة عظيمة باعتبارك كاتباً يا سيدي، فأنت تستطيع أن تنفّس عن مشاعرك بالكلمة المطبوعة. إنك تمتاز من أعدائك بامتلاكك سلطة القلم.

تأرجح السيد كلانسي في مقعده برفق وقال: هل تعلم أنني بدأت أرى أن جريمة القتل هذه ستكون حظاً طيباً بالفعل. سأكتب القصة كلها كما حدثت تماماً، ولكن بأسلوب خيالي روائي طبعاً، وسأسميها «لغز البريد الجوي». سوف أضع وصفاً دقيقاً لكل المسافرين، ولا بد أن تحقق مبيعات هائلة... فقط لو استطعت أن أنجزها في الوقت المناسب.

جين: ألن تتم مقاضاتك بسبب التشهير؟

التفت كلانسي إليها مشرق الأسارير وقال: هذا لن يحدث يا سيدتي العزيزة. لو أنني جعلت أحد المسافرين هو القاتل لأمكن وقتَها أن أكون مسؤولاً عن الأضرار، ولكن تلك هي نقطة القوة في القصة برمّتها، إذ يتم الكشف عن حل غير متوقع بتاتاً في الفصل الأخير.

انحنى بوارو بلهفة إلى الأمام وقال: وما هو ذلك الحل؟

ضحك السيد كلانسي ثانية وقال: إنه حل عبقري، عبقري ومثير. تدخل إلى الطائرة في مطار لوبورجيه فتاة متنكرة بهيئة طيار، وتخفي نفسها بنجاح تحت مقعد مدام جيزيل ومعها زجاجة صغيرة مملوءة بغاز حديث جداً، ثم تطلقه ليفقد الجميع وعيهم لمدة ثلاث دقائق، وتنسلّ من مخبئها فتطلق السهم المسموم ثم تقفز بالمظلة من الباب الخلفي للمقصورة.

طرفت أعين جين وبوارو دهشة، وقالت جين: ولماذا لم تفقد وعيها هي أيضاً نتيجة الغاز؟

- لقد ارتدت قناعاً واقياً.

- وقفزت بالمظلة إلى القنال الإنكليزي؟

- لا داعي أن تهبط في القنال، سأجعلها تهبط على الساحل الفرنسي.

- ولكن لا يمكن لأحد أن يختبئ تحت كرسي الطائرة، لا يوجد فراغ تحته.

أجابها كلانسي بحزم: سيكون في طائرتي فراغ.

بوارو: رائع! وما هو دافع هذه السيدة؟

قال كلانسي: "لم أقرر تماماً بعد"، ثم أضاف مفكّراً: ربما دمرت جيزيل حبيب هذه الفتاة فانتحر.

بوارو: وكيف حصلت على السم؟

- هنا مكمن الذكاء في القصة. فهذه الفتاة من حُواة ثعابين، وهي تحصل على السم من أفعى الأصَلَة المفضّلة لديها.

بوارو: يا إلهي! ولكن ألا تعتقد بأن مثل هذه الحكاية ربما كان فيها القليل من الإثارة؟

- لا يمكنك أن تكتب شيئاً بكثير من الإثارة، ولا سيما عندما تتناول موضوع تسميم السهام عند هنود أمريكا الجنوبية. أعرف أنه كان سُمّ أفعى فعلاً، ولكن المبدأ واحد. لا يمكنك أن تطلب من القصة البوليسية أن تكون مطابقة للحياة الواقعية. انظرْ إلى الأخبار في الصحف تجدها مملة جداً.

- لا تبالغ يا سيدي. هل يمكنك وصفُ قضيتنا الصغيرة هذه بأنها مملة؟

- لا، لا أستطيع أحياناً أن أصدّق أنها حدثت بالفعل.

سحب بوارو كرسيّه ذا الصرير واقترب من مضيفه قليلاً، ثم قال بصوت منخفض كمَن يريد التشاور سراً: سيد كلانسي، أنت رجل ذو عقل وخيال واسع، وقد عاملك الشرطة بشك -كما قلت- ولم يطلبوا نصيحتك. أما أنا، هيركيول بوارو، فأرغب في استشارتك.

تورّد وجه كلانسي سروراً وقال: هذا من لطفك بالتأكيد.

بدا مرتبكاً فرحاً، فأكمل بوارو: لقد درستَ علم الجريمة،

ولذلك فإن أفكارك ستكون ذات قيمة. أنا مهتم جداً بمعرفة رأيك في هوية من ارتكب الجريمة.

بدأ السيد كلانسي حديثه متردداً فقال: حسناً...

ثم مد يده بشكل آلي وتناول موزة وبدأ يأكلها، وهزّ رأسه وقد فقدت أساريرُه انفراجَها وقال: أنت تعلم يا سيد بوارو أن الواقع أمر مختلف تماماً. عندما تكتب تستطيع أن تجعل المجرم من تشاء من الناس، أما في الحياة الواقعية فيوجد شخص حقيقي وليست لك أية سيطرة على الحقائق، وأخشى أن أكون فاشلاً تماماً كمحقق حقيقي.

ثم هزّ رأسه بحزن ورمى قشرة الموز في الموقد، فقال بوارو: ولكن ربما كان من المسلّي أن نفكر بالقضية معاً، ما رأيك؟

- آه، أما هذه فنعم.

- حسناً، بدايةً إذا افترضنا أنك اضطررت إلى إعطاء تخمين ترجيحي فمَن كنت ستختار؟

- آه، حسناً، أحسبني سأختار أحد الرجلين الفرنسيين.

- لماذا؟

- يبدو هذا احتمالاً أكبر إلى حد ما لأن جيزيل كانت فرنسية، وقد كانا جالسين في الجهة المقابلة غير بعيدَين منها. ولكنني لا أجزم بالطبع.

قال بوارو وهو يفكر: إن هذا يعتمد على الدافع.

- طبعاً، طبعاً. إنني أفترض بأنك تصنف كل الدوافع بشكل علمي جداً، أليس كذلك؟

- أنا أعتمد الطرق القديمة وأتبع القول المأثور: «ابحث عن المستفيد من الجريمة».

- هذا جيد بالتأكيد، ولكنني أرى بأن تطبيق ذلك على هذه الحالة صعب بعض الشيء. توجد ابنة ستؤول إليها الأموال كما سمعت، ولكنّ كثيراً ممن كانوا على متن الطائرة ربما كانت لهم مصلحة للأسباب التي نعرفها، أي إذا كانوا مدينين لها بمال ولا يستطيعون تسديده.

بوارو: هذا صحيح، وبوسعي أن أفكر في احتمالات أخرى. لنفترض مثلاً أن مدام جيزيل كانت تعرف شيئاً، مثلاً محاولة قتل تورط فيها أحد أولئك الناس.

- محاولة قتل؟ لماذا محاولة قتل؟ ما هذا الافتراض الغريب؟

- في حالات كهذه على المرء أن يفكر في كل الاحتمالات.

- آه، نعم، ولكن التفكير لا يجدي؛ عليك أن تعرف.

- معك حق، معك حق، هذه ملاحظة صحيحة تماماً. أرجو أن تعذرني، ولكني أريد أن أسألك عن أنبوب النفخ الذي اشتريتَه...

- اللعنة على ذلك الأنبوب، أتمنى لو أني لم أذكر شيئاً عنه.

بوارو: لقد قلتَ إنك اشتريته من محل في شارع تشيرنغ كروس؟ هل تذكر اسم ذلك المحل؟

- حسناً، ربما كان اسمه أبسولوم أو ميتشل وسميث، لا أدري. ولكنني قلت ذلك أصلاً لذلك المفتش المزعج ولا بد أنه

تحقق من أمره الآن.

- ولكنني أسألك لأسباب مختلفة تماماً، فأنا أودّ شراء واحد مثله وإجراء بعض التجارب.

- آه، فهمت. ولكني لا أدري إن كنت ستجد واحداً مثله فهم لا يحتفظون بدستات من هذه الأنابيب كما تعلم.

- ومع ذلك يمكنني أن أجرب. هل تتكرمين -يا آنسة غري- فتسجّلي اسمَي هذين المحلين؟

فتحت جين دفتر ملاحظاتها وخربشت بسرعة عدداً من الإشارات وهي تأمل أن تبدو محترفة، ثم قامت خُفيةً بكتابة الاسمين كاملَين على الجانب الآخر للورقة خَشيةَ أن تكون تعليمات بوارو مقصودة فعلاً.

قال بوارو: لقد تعدّيتُ كثيراً على وقتك، لذلك سوف أستأذنك بالمغادرة مع ألف شكر على لطفك.

كلانسي: لا داعي للشكر، أتمنى لو كنتَ أخذت موزة.

- إنك لطيف جداً.

- عفواً يا سيدي. في الحقيقة أنا أشعر بالسعادة اليوم؛ فقد كنت حُصِرتُ عن استكمال قصة قصيرة كنت أكتبها ولم أستطع أن أجد اسماً جيداً للمجرم، فقد أردت اسماً ذا صدى معين. وبقليل من الحظ رأيت الاسم الذي أريده قبل قليل فوق دكان جزّار، وهو بارغيتر. إنه تماماً الاسم الذي كنت أبحث عنه وفيه شيء من الرنّة الحقيقية. وبعد ذلك بخمس دقائق حصلت على ضالّتي الأخرى. في كل قصة أواجه تلك العقبة الخفية: لماذا لا تتكلم الفتاة؟ يحاول

الشاب أن يدفعها إلى الكلام وتقول هي إن شفتيها لا تطاوعانها. بالطبع لا يوجد أي سبب حقيقي يمنعها من قول الحقيقة كلها فوراً، ولكن عليك أن تحاول التفكير بسبب لا يكون غبياً بشكل أكيد، وينبغي أن يكون السبب مختلفاً في كل مرة لسوء الحظ!

وابتسم لجين بلطف وقال: "هذه محكّات الكاتب الحقيقي". ثم مرّ بمحاذاتها وعمد إلى رف للكتب قائلاً: "اسمح لي أن أعطيك شيئاً". ثم عاد ومعه كتاب وقال: هذه هي رواية «مفتاح لغز الوردة القرمزية». أظنني ذكرت في كرويدون بأن كتابي هذا قد عالج مسألة السهام المسمومة لدى بعض القبائل البدائية.

قال بوارو: ألف شكر؛ إنك بالغ اللطف.

قال كلانسي: "عفواً، عفواً". ثم قال فجأة لجين: أرى أنك لا تستعملين نظام بيتمان في الاختزال.

تورّد وجه جين، فتدخل بوارو لإنقاذها قائلاً: إن الآنسة غري عصرية جداً، إنها تستخدم أحدث نظام اخترعه شخص تشيكي.

كلانسي: حقاً تقول؟! لا بد أن تشيكوسلوفاكيا مكان رائع، لأن كل شيء يبدو وكأنه يأتينا من هناك: الأحذية والزجاج والقفازات، والآن نظام اختزال. أمر مدهش تماماً!

ثم صافحهما وقال: ليتني كنت أستطيع خدمتكما أكثر.

وتركاه في الغرفة القذرة وهو يبتسم لهما بكآبة.

* * *

الفصل السادس عشر
خطة الحملة

استقل بوارو وجين غري سيارة أجرة من منزل السيد كلانسي إلى مطعم مونسينيور حيث كان نورمان غيل ينتظر. طلب بوارو بعض الصلصة والدجاج، وقال نورمان: حسناً، كيف كان أداؤكما؟

بوارو: لقد برهنت الآنسة غري على أنها سكرتيرة عظيمة.

جين: لا أظنني قمت بذلك الدور بشكل جيد، فقد لاحظ خربشاتي عندما مرّ خلفي. لا بد أنه شديد الملاحظة.

بوارو: آه، هل لاحظت ذلك؟ إنه هذا الكلانسي الطيب ليس على ذلك القدر من شرود الذهب الذي يتخيله المرء.

- هل كنت تريد هذين العنوانين حقاً؟

- نعم، لعلها تكون مفيدة.

- ولكن إن كان الشرطة قد تحرّوا عنهما...

بوارو: آه، الشرطة! لن أسأل نفس الأسئلة التي طرحها الشرطة، مع أنني أشك -في الواقع- أنّ الشرطة قد طرحوا أي أسئلة أصلاً، إذ إنهم يعرفون أن أنبوب النفخ الذي عُثر عليه في الطائرة قد

اشتراه أمريكي من باريس.

جين: في باريس؟ وأمريكي؟ ولكنّ أي أمريكي لم يكن في الطائرة!

ابتسم لها بوارو بلطف وقال: بالضبط؛ إن لدينا هنا أمريكياً من أجل تعقيد الأمور فقط. هذا كل ما في الأمر.

نورمان: إذن فقد اشتراه رجل؟

نظر إليه بوارو بتعبير غريب بعض الشيء وقال: نعم، اشتراه رجل.

بدا نورمان حائراً، وقالت جين: ولكنه لم يكن السيد كلانسي على أية حال، فلديه أنبوب نفخ أصلاً، ولذلك لم يكن ليعمد إلى شراء أنبوب آخر.

هزّ بوارو رأسه موافقاً وقال: هكذا ينبغي على المرء أن يمضي في تحليله: أن يشكّ في كل إنسان تباعاً ثم يمحوه (أو يمحوها) من القائمة عندما تثبت البراءة.

جين: كم شخصاً مَحَوْت حتى الآن؟

بوارو: ليس كثيراً بالقدر الذي تظنينه يا آنسة، فالأمر كله يعتمد على الدوافع.

قال نورمان: "هل كان هناك..." ثم توقف وأضاف بعدها معتذراً: لا أريد أن أتدخل بالأسرار الرسمية، ولكن ألا توجد سجلاّت بمعاملات تلك المرأة؟

هز بوارو رأسه نافياً وقال: لقد أُحرقت كل السجلات.

- هذا مؤسف تماماً.

- بالتأكيد. ولكن مدام جيزيل كانت -كما يبدو- تجمع قليلاً من الابتزاز مع مهنتها كمُقرضة للأموال، وهذا ما يفتح الباب واسعاً أمام احتمالات كثيرة. لنفترض مثلاً أن مدام جيزيل كانت على علم بجُرْم معين، وليكن مثلاً محاولة قتل أقدم عليها شخص ما.

نورمان: هل لمثل هذا الافتراض سبب؟

قال بوارو ببطء: نعم، يوجد سبب، واحد من القليل من الشواهد الموثقة التي نملكها في هذه القضية.

ثم نظر إلى وجهيهما تباعاً حيث بدا الاهتمام عليهما، ثم أطلق تنهيدة خافتة وقال: حسناً، هذا ما لدينا. فلنتكلم في أمور أخرى، مثلاً: كيف أثّرت هذه المأساة في حياتكما أيها الشابان؟

جين: لقد استفدت منها رغم أن قول ذلك يبدو أمراً فظيعاً.

ثم روت قصة الزيادة في راتبها فقال بوارو: كما قلتِ يا آنسة: لقد استفدت منها، ولكن ربما كان ذلك لوقت قصير فقط. تذكّري أن شهر العسل نفسه لا يستمر أكثر من شهر.

ضحكت جين وقالت: هذا صحيح تماماً.

قال نورمان: أما أنا فإنني أخشى أن يستمر الأمر أكثر من شهر في حالتي.

ثم شرح وضعه وبوارو يصغي إليه بتعاطف، وأخيراً علّق بوارو وهو يمعن تفكيره: كما قلت، سيقتضي الأمر منك أكثر من شهر، وربما أكثر بكثير؛ فالإثارة تموت بسرعة، أما الخوف فإن عمره طويل.

نورمان: هل تعتقد أن عليّ أن أتحمل ذلك حتى النهاية؟

بوارو: وهل لديك أية خطط أخرى؟

نورمان: نعم، أترك البلد وأسافر إلى كندا أو أي مكان آخر وأبدأ من جديد.

قالت جين بحزم: إن هذا سيكون مؤسفاً بالتأكيد.

نظر نورمان إليها، فيما انشغل بوارو -بلباقة- بطبق الدجاج.

قال نورمان: أنا لا أريد السفر.

قال بوارو بمرح: إذا كشفتُ قاتل مدام جيزيل فلن تضطر إلى السفر.

جين: هل تعتقد بأنك ستكشفه حقاً؟

نظر بوارو إليها لائماً وقال: إذا تناول المرء أية مشكلة بنظام ومنهجية فلن يجد في حلها صعوبة على الإطلاق.

قالت جين: آه، فهمت.

لكنها لم تكن قد فهمت.

بوارو: ولكني سأحل هذه المشكلة بشكل أسرع لو حصلت على بعض المساعدة.

جين: أي نوع من المساعدة؟

لم يتكلم بوارو لمدة دقيقتين، ثم قال بعدها: مساعدة من السيد غيل، وربما منك أيضاً في وقت لاحق.

نورمان: ماذا أستطيع أن أفعل؟

رمقه بوارو بنظرة جانبية وقال محذّراً: إنك لن تحبّ ذلك.

كرر الشاب وقد نفد صبره: ما هي المساعدة؟

- بصراحة أنا أحتاج إلى من يقوم بدور المبتزّ.

هتف نورمان: مبتز؟!

وحدق إلى بوارو كمن لم يستطع تصديق ما يسمع، فهزّ بوارو رأسه بالإيجاب وقال: بالضبط، أحتاج مبتزاً.

نورمان: ولكن لماذا؟

بوارو: ليبتزّ بالطبع!

نورمان: نعم، ولكن ليبتز من؟ ولماذا؟

بوارو: أما لماذا فهذا شأني أنا، وأما مَن...

صمت لحظة ثم تابع حديثه بنبرة عملية هادئة: ها هي الخطة سألخصها لك. سوف تكتب ملاحظة (أعني أنني سأكتب أنا ملاحظة وتنسخها أنت) إلى الليدي هوربوري، وسوف تكتب عليها «شخصي» وتطلب في الرسالة إجراء مقابلة معها وأنت تذكّرها بنفسك: أنك سافرت معها إلى إنكلترا جواً في مناسبة معينة. وتشير أيضاً إلى وقوع بعض معاملات مدام جيزيل التجارية بين يديك.

- وبعدها؟

- بعدها سوف تُمنَح فرصة للمقابلة. ستذهب وتقول أشياء معينة سوف أعلمك إياها، وسوف تطلب منها -لنقل- عشرة آلاف جنيه.

- أأنت مجنون؟!

- أبداً. ربما أكون غريب الأطوار، أما أن أكون مجنوناً فلا.

- وإذا افترضنا أن الليدي هوربوري استدعت الشرطة؟ سأذهب إلى السجن.

- لن تستدعي الشرطة.

- لا يمكنك معرفة ذلك.

- يا عزيزي، إنني أعرف كل شيء!

- كما أني لا أحب ذلك على أية حال.

غمزه بوارو وقال: لن تحصل على عشرة آلاف جنيه فعلاً... إن كان ذلك يزيد من راحة ضميرك.

- نعم، ولكن اسمع يا سيد بوارو. إن هذا مخطط من النوع الخطير الغير الرسمي، وربما يدمّرني نهائياً.

- حسناً، حسناً، لن تذهب السيدة إلى الشرطة؛ أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

- ربما أخبرَت زوجها.

- لن تخبر زوجها.

- إنني لا أحب ذلك.

- وهل تحب خسارة زبائنك وتدمير حياتك المهنية؟

- لا، ولكن...

ابتسم بوارو له بلطف وقال: إنك تحس بالاشمئزاز، أليس كذلك؟ هذا طبيعي جداً. كما أن لديك روح الفروسية والشهامة، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك بأن الليدي هوربوري ليست جديرة

بكل هذه المشاعر الرقيقة. ولو أردتُ استعمال مفردات إنكليزية لقلت: إنها سلعة قذرة جداً.

- ومع ذلك لا يمكن أن تكون قاتلة.

- لماذا؟

- لماذا؟ لأننا كنا سنراها؛ لقد كنا أنا وجين نجلس مقابلها تماماً.

- إن لديك كثيراً من الأفكار المسبقة، أما أنا فإنني أحب أن أضع الأمور في نصابها، وحتى أقوم بذلك عليّ أن أعرف.

- إنني لا أحب فكرة ابتزاز امرأة.

- آه، يا إلهي! وماذا في كلمة تقولها؟ لن يقع ابتزاز، عليك فقط أن تُحدث أثراً معيناً. وبعد ذلك، عندما يصبح الجو مهيئاً، أتدخل أنا.

- وإذا أودعَتني خطتك السجن؟

- لا، لا؛ إنني معروف تماماً في سكوتلنديارد، ولو حدث أي شيء فسأتحمل أنا المسؤولية. لن يحدث إلا ما توقعته.

استسلم نورمان متنهداً وقال: حسناً، سأقوم بذلك، ولكنني لا أحبه مطلقاً.

بوارو: حسناً، هذا ما ستكتبه. خذ قلماً.

أملى عليه ببطء، ثم قال بعد أن أكمل: حسناً، سأخبرك لاحقاً بالكلام الذي عليك أن تقوله. أخبريني يا آنسة: هل تذهبين إلى المسرح عادةً؟

جين: نعم، أذهب كثيراً.

- جيد. هل شاهدت مثلاً مسرحية اسمها «في الجانب الآخر من الكرة الأرضية»؟

- نعم، شاهدتها منذ نحو شهر، وهي مسرحية جيدة.

- مسرحية أمريكية، أليس كذلك؟

- بلى.

- هل تذكرين شخصية هاري التي أداها السيد باراكلان؟

- نعم، كان ممثلاً رائعاً.

- وأنت ترينه وسيماً، أليس كذلك؟

- إنه وسيم جداً.

بوارو: أهذا ما لديه... أم أنه ممثل جيد أيضاً؟

- أعتقد أنه يمثل بشكل جيد أيضاً.

قال بوارو: عليّ أن أذهب لرؤيته.

حدقت جين إليه وقد تملكتها الحيرة. يا لَغرابة هذا الرجل الضئيل؛ يقفز من موضوع إلى موضوع كما يقفز العصفور من غصن إلى غصن!

وكأنّ بوارو قرأ أفكارها، فقد ابتسم وقال: أنت لا تتفقين معي يا آنسة، أعني مع أساليبي؟

- إنك تقفز كثيراً من موضوع إلى آخر.

- هذا ليس صحيحاً. أنا أسير في طريقي بشكل منطقي ومنظّم ومنهجي. ينبغي على المرء أن لا يقفز اعتباطاً إلى النتائج، بل عليه

أن يمحو (كما أسلفنا).

- يمحو؟ أهذا هو ما تفعله؟

فكّرت قليلاً ثم قالت: فهمت؛ لقد محوتَ السيد كلانسي؟

بوارو: ربما.

- وقد محوتنا، وربما كنت ستمحو الليدي هوربوري الآن... آه!

توقفت وقد صدمتها فكرة مفاجئة، فقال بوارو: ما الأمر يا آنسة؟

- ذلك الحديث الذي أثرتَه عن محاولة القتل، أكان اختباراً؟

- أنت سريعة الخاطر يا آنسة. نعم، كان ذلك جزءاً من الطريق الذي أتّبعه. لقد ذكرت محاولة القتل وراقبت السيد كلانسي وراقبتك وراقبت السيد غيل، ولم يكن لدى أي منكم أنتم الثلاثة أي مؤشر، ولا حتى رفّة جفن. دعيني أخبرك بأنه لا يمكن خداعي في هذا المجال. بوسع أي قاتل أن يكون مستعداً لمواجهة أي هجوم يتوقع حصوله، ولكن تلك المعلومة في دفتر ملاحظات صغير لم يكن لأي منكم أن يعرفها، ولذلك فإنني راض ومقتنع.

نهضت جين قائلة: يا لك من رجل رهيب مخادع يا سيد بوارو! لن أستطيع أن أفهم سبب أقوالك.

- إنه أمر بسيط جداً، فأنا أريد كشف الأمور.

- وأحسب أن لديك طرقاً ذكية جداً في كشفها.

- ليست أمامي سوى طريقة واحدة بسيطة حقاً.

- وهي؟

- أن أترك الناس ليخبروني بها.

ضحكت جين وقالت: وإذا شاؤوا أن لا يخبروك؟

- كل امرئ يحب الحديث عن نفسه.

- أظن أن هذا صحيح بالفعل.

- هكذا يجمع كثير من المشعوذين ثرواتهم، إذ يشجع الواحد منهم المرضى على مراجعته والجلوس ليحدثوه عن الأشياء: كيف وقعوا من عربة الأطفال عندما كانوا بعمر سنتين، وكيف أكلت أمهم كمثرى ووقع عصيرها على فستانها البرتقالي، وكيف كانوا يَشْدون لحن آبائهم عندما كان عمرهم سنتين... ثم يخبرهم بأنهم لن يعانوا من الأرق بعد ذلك ويتقاضى منهم جنيهين، فيخرجون وقد قضوا وقتاً ممتعاً تمتعوا فيه كثيراً، وربما ذهب أرقهم فعلاً.

جين: ما أسخف ذلك!

بوارو: لا، إنه ليس بالسخافة التي تعتقدينها؛ فهو مَبني على حاجة جوهرية في الطبيعة البشرية، الحاجة إلى الكلام، إلى أن يتواصل المرء مع الآخرين. أنت نفسك يا آنسة: ألا تحبين أن تعيشي على ذكريات طفولتك مع أمك وأبيك مثلاً؟

- هذا لا ينطبق على حالتي، فقد نشأت في دار للأيتام.

- آه، هذا مختلف. إنه ليس بالأمر المفرح.

- لا أعني أننا كنا من أولئك الأيتام الذين يعيشون على الإحسان، بل كان الأمر ممتعاً بالفعل.

- وهل كان ذلك في إنكلترا؟

- بل في إيرلندا، قرب دبلن.

- أنت إيرلندية إذن؟ ولذلك تتمتعين بشعر أسود وعينين زرقاوين رماديتين ونظرة...

أكمل نورمان عبارته بمرح: «كما لو أنهما رُكِّبتا بأصابع ملوَّثة بالسِّناج».

بوارو: ماذا؟ ما هذا الذي قلته؟

نورمان: هذا مَثَل يقال عن العيون الإيرلندية؛ كأنها رُكِّبت بأصابع مسنَّجة.

قال بوارو: حقاً؟ هذا ليس لائقاً. ومع ذلك فإنه يعبّر عن الموضوع بشكل جيد.

ثم مال إلى جين وقال: فالتأثير قوي تماماً يا آنسة.

ضحكت جين وهي تنهض قائلة: ستجعلني أصاب بالغرور يا سيد بوارو. طابت ليلتك وشكراً على العشاء. سوف تضطر إلى دعوتي إلى عشاء آخر إذا دخل نورمان السجن بتهمة الابتزاز.

أثارت ملاحظتها تقطيبة على وجه نورمان، وتمنى بوارو للشابين ليلة سعيدة.

عندما وصل إلى البيت فتح بوارو دُرْجاً وأخرج قائمة بأحد عشر اسماً ووضع إشارة أمام أربعة من هذه الأسماء. ثم هزّ رأسه الغارق في التفكير وتمتم لنفسه: أظن أنني أعرف، ولكن عليّ أن أتأكد. سيستمر البحث.

* * *

الفصل السابع عشر
في واندزورث

كان السيد هنري ميتشل على وشك الجلوس لتناول عشاءه عندما طرقه زائر يريد رؤيته، وكان مما أثار دهشة المُضيف بعض الشيء أن يدرك أن الزائر لم يكن سوى ذلك الرجل ذي الشارب الضخم الذي كان أحد ركاب تلك الطائرة المشؤومة.

كان السيد بوارو دمثاً جداً ومهذب السلوك، فقد أصرّ على أن يمضي السيد ميتشل في عشائه، وألقى بعض عبارات الإطراء على السيدة ميتشل التي كانت تقف محدّقة إليه وقد فغرت فاها.

جلس بوارو على المقعد الذي قُدّم له، وعلق بأن الجو أدفأ من المعتاد في مثل هذا الوقت من السنة، ثم اقترب بلباقة من هدف زيارته قائلاً: أظن أن شرطة سكوتلنديارد لا تحقق تقدماً كبيراً في القضية؟

هزّ ميتشل رأسه وقال: إنه لأمر مذهل يا سيدي، مذهل تماماً. ولست أرى شيئاً يستطيعون الانطلاق منه في بحثهم، فإن لم يكن أحد من ركاب الطائرة أنفسهم قد رأى شيئاً فسوف يكون من الصعب على أي كان أن يصل إلى نتيجة فيما بعد.

بوارو: صحيح، كما تقول.

تدخلت زوجة ميتشل قائلة: لقد كان هنري قلقاً جداً بشأن القضية ولم يستطع النوم ليلاً.

شرح المضيف قولها: إن الأمر يجثم على عقلي بشكل مخيف يا سيدي. كانت الشركة عادلة تماماً في تعاملها مع الأمر، وعليّ القول بأنني كنت خائفاً في البداية من احتمال فقدان وظيفتي...

الزوجة: لا يمكنهم فصلك يا هنري، وإلا لكان ذلك ظلماً فاحشاً.

بدا صوت الزوجة مليئاً بالنقمة، وكانت امرأة ممتلئة الجسم ذات وجه معبّر وعينين حادتين سوداوين.

قال ميتشل: لا تتم الأمور دائماً بعدالة يا روث. لقد انتهت المشكلة على نحو أفضل مما توقعت؛ لقد أعفوني من اللوم، ولكنني أشعر به مع ذلك (إن كنت تفهم ما أعنيه)، فقد كنت مسؤولاً على نحو ما.

قال بوارو متعاطفاً: أنا أتفهم مشاعرك، ولكنني أؤكد لك بأنك تكثر من تأنيب نفسك، فما حصل لم يكن خطأك بأي شكل.

تدخّلت السيدة ميتشل مرة أخرى قائلة: هذا ما أقوله أنا يا سيدي.

هزّ ميتشل رأسه وقال: كان عليّ أن ألاحظ بأن السيدة كانت ميتة في وقت مبكر. لو أنني حاولت إيقاظها عندما وزّعت الفواتير أول مرة...

بوارو: لن يكون الفرق كبيراً، فقد حدثت الوفاة فور إصابة

السيدة كما قالوا.

السيدة ميتشل: إنه قلق هكذا باستمرار. لقد قلت له أن لا يشغل تفكيره إلى هذه الدرجة، فمَن يستطيع أن يعرف السبب الذي يدفع بعض الأجانب إلى قتل بعضهم بعضاً؟ أنا شخصياً أعتقد بأن ارتكاب الجريمة على متن طائرة بريطانية كان تصرّفاً قذراً.

أنهت جملتها بشخير يدل على النقمة والوطنية، فهزّ ميتشل رأسه حيرة وقال: إنه لأمر يثقل كاهلي، إذا صحّ التعبير. ففي كل مرة ألتحق بالخدمة أصبح في حالة من القلق والتوتر. وبعد ذلك يأتي ذلك السيد من سكوتلنديارد ليسألني مرة بعد مرة إن كان ثمة شيء غير طبيعي أو مفاجئ حدث خلال الرحلة، ويجعلني ذلك أشعر بأنني قد نسيت شيئاً ما. ولكنني واثق من أنني لم أنسَ شيئاً. لقد كانت من أكثر الرحلات هدوءاً وكانت طبيعية من جميع الجوانب حتى... حتى حدث ذلك.

السيدة ميتشل: أنابيب نفخ وسهام... يا إلهي!

خاطبها بوارو بطريقة متملقة وكأنه قد أعجب بملاحظاتها: إنك على حق؛ ما هكذا ترتكب جريمة قتل إنكليزية.

السيدة ميتشل: معك حق يا سيدي.

- أتعلمين يا سيدة ميتشل، إنني أستطيع أن أخمن من أي جزء من إنكلترا أنت.

- أنا من دورْسيت يا سيدي، وهي ليست بعيدة عن بريدبورت. ذلك هو موطني.

- يا له من مكان رائع!

- إنه رائع فعلاً، وليست لندن شيئاً بالنسبة لدورسيت. لقد استقرت عائلتي في دورسيت منذ أكثر من مئتي عام، ودورسيت تجري في دمي كما يُقال.

- نعم، حقاً.

ثم التفت إلى المضيف ثانية وقال: يوجد أمر واحد أريد أن أسألك عنه يا ميتشل.

تقلصت حواجب الرجل وقال: لقد أخبرتكم بكل ما أعرفه، أخبرتكم حقاً يا سيدي.

- صحيح، صحيح، ولكنها مسألة صغيرة جداً. لقد تساءلت فقط: هل كان شيء على المائدة، مائدة مدام جيزيل، مبعثَراً؟

- هل تعني عندما... عندما وجدتها ميتة؟

- نعم. المعالق والشوكات والمملحة... أي شيء من هذا القبيل.

هزّ الرجل رأسه بالنفي وقال: لم يكن أي شيء من هذا على الطاولة. كانت هذه الأشياء قد نُظّفت ورُفعت عن الموائد إلا فناجين القهوة. أنا شخصياً لم ألاحظ شيئاً، مع أني لم أكن لأُلاحظ إذ كنت في حالة ارتباك شديد، ولكن رجال الشرطة كانوا سيلاحظون ذلك يا سيدي، فقد فتشوا الطائرة بدقة تامة.

- آه، حسناً، لا يهم. عليّ أن أتحدث في وقت ما مع زميلك ديفيس.

- إنه الآن على متن رحلة التاسعة إلا ربعاً الصباحية يا سيدي.

- هل أزعجته هذه القضية؟

- آه، حسناً يا سيدي، إنه شاب صغير كما تعلم، ورأيي أنه استمتع تقريباً بالأمر كله بسبب الإثارة، والجميع يدعونه إلى ضيافتهم بهدف سماع القصة منه.

- هل لديه صديقة شابة؟ لا شك أن ارتباط اسمه بالجريمة سيكون أمراً مخيفاً بالنسبة إليها.

- إنه يتودد إلى ابنة جونسن العجوز في فندق كراوْن، ولكنها فتاة ذات عقل راجح وأحكام صائبة عاقلة، وهي لا توافق على ارتباط اسم المرء بجريمة قتل.

قال بوارو: "هذه وجهة نظر سليمة تماماً". ثم نهض قائلاً: حسناً، أشكرك يا سيد ميتشل وأنت يا سيدة ميتشل، وأتوسل إليكَ يا صديقي أن لا تدع هذا الأمر يثقل تفكيرك.

وعندما غادر قال ميتشل لزوجته: أولئك الأغبياء في هيئة المحلفين في المحكمة ظنوا أنه هو الذي ارتكب الجريمة، ولكنه -في رأيي- من الشرطة السرية.

السيدة ميتشل: في رأيي أنا لا بد أن البلاشِفة الشيوعيين يقفون خلف هذه الجريمة.

* * *

كان بوارو قد قال بأن عليه أن يتكلم قليلاً مع المضيف الآخر، ديفيس، في وقت ما. ولكنّ الحقيقة أن كلامه معه لم يتأخر أكثر من بضع ساعات، ففي مقهى فندق كراوْن وجّه إلى ديفيس السؤال الذي وجهه لميتشل، فقال: لا شيء كان مبعثراً، لا يا سيدي. هل تقصد اضطراباً أو ما شابه ذلك؟

بوارو: أعني -لنقل مثلاً- شيئاً مفقوداً من المائدة أو شيئاً لا تضعونه على المائدة في العادة.

قال ديفيس ببطء: كان هناك شيء لاحظته عندما كنت أنظف بعد أن أكمل الشرطة تفتيشهم للطائرة، ولكني لا أحسب أنه من تلك الأشياء التي تعنيها، وهو أن السيدة الميتة كان أمامها ملعقتا قهوة في صحن فنجانها. يحدث هذا أحياناً عندما نكون مستعجلين في توزيع الطعام والشراب، وقد لاحظت ذلك لأن حول هذا الأمر خرافة؛ فالناس يقولون: ملعقتان في صحن فنجان تعنيان زواجاً.

سأل بوارو: هل فُقِدت ملعقة من صحن أي مسافر آخر؟

- لا يا سيدي، لم ألاحظ شيئاً كهذا. لا بد أن أحدنا (ميتشل أو أنا) قد أخذ الفنجان والصحن بهذا الشكل. المرء يفعل ذلك أحياناً بسبب العجلة، فقبل أسبوع فقط وضعت على إحدى الموائد طقمين من سكاكين السمك والشوكات. وهذا أفضل من إنقاص شيء على الطاولة على أية حال، لأن ذلك يعني أن عليك أن تترك عملك وتذهب لإحضار السكين الناقص أو غيره مما نسيته.



الفصل الثامن عشر
في شارع الملكة فكتوريا

فوجئ السيد جيمس رايدر قليلاً عندما حُملت إليه بطاقة تحمل اسم السيد هيركيول بوارو. أحسّ بأن هذا الاسم مألوف، ولكنه لم يستطع أن يتذكره للوهلة الأولى. ثم قال لنفسه: "آه، إنه ذاك الرجل!"، وأخبر الموظف أن يدخله.

بدا هيركيول بوارو في غاية الأناقة والبهجة وفي يده عصا من الخيزران وعلى صدره زهرة، وقال: أنا واثق من أنك ستسامحني على إزعاجك. الأمر يتعلق بتلك القضية الخاصة بمقتل مدام جيزيل.

رايدر: حسناً، ماذا عنها؟ اجلس من فضلك. لقد كان المفتش هنا قبل بضعة أيام. إنهم يدسّون أنوفهم في كل شيء، هؤلاء المحققون.

- أظن أن عليهم أن يجمعوا معلومات.

أجاب رايدر بمرارة: ولكن لا ضرورة لأن يكونوا عدوانيين وهم يقومون بهذه المهمة البغيضة. إن للمرء مشاعره وله سمعة تجارية يحرص عليها.

- ربما كنت مفرط الحساسية قليلاً.

- أنا في موقف حساس، نعم، حيث كنت أجلس أمامها مباشرة. صحيح أن ذلك قد يبعث على الشك كما أظن، ولكن لا يد لي في اختيار مقعدي. ولو كنت أعلم أن تلك المرأة ستُقتَل لما كنت سأسافر بتلك الطائرة أبداً.

وبدا عليه التفكير لحظة، فقال بوارو مبتسماً: مصائب قوم عند قوم فوائد؟

- من الطريف أن تقول ذلك. لقد حدث هذا بالفعل، كما أنه لم يحدث إذا جاز لي التعبير. أعني أنني كنت أعيش فترة قلق حيث تعرضت إلى كثير من المضايقات بسبب هذه القضية وسمعت كثيراً من التلميحات. ولكن، لماذا أنا؟ هذا ما كنت أقوله. لماذا لا يذهبون ويزعجون ذلك الدكتور هوبارد... أعني برايانت؟ فالأطباء هم الذين يستطيعون الحصول على سموم لا يمكن كشفها. كيف لي أن أحصل على سموم الأفاعي بالله عليك؟!

- كنت تقول إنه على الرغم من أنك تعرضت لكثير من الإزعاجات...

- آه، نعم، كان للصورة جانب مضيء. لا أخفي عليك أنني ربحت مبلغاً لا بأس به من الصحف بحجة ما يسمونه شاهد عيان، مع أنه كان في الصحف من خيال الصحفيين أكثر مما رأته عيناي، ولكن ذلك يحدث دائماً.

بوارو: غريب كيف تؤثر الجريمة في حياة أناس لا دخل لهم بها أبداً! أنت مثلاً، لقد ربحت فجأة مبلغاً غير متوقع أبداً، مبلغاً ربما كان موضع ترحيب بشكل خاص الآن.

قال رايدر وهو ينظر إلى بوارو بحدة: إن المال موضع ترحيب دائماً.

- ولكن الحاجة إليه تكون ملحّة أحياناً، ولمثل هذا السبب يختلس الرجال ويدخلون في مسالك الاحتيال وتظهر كل أنواع التعقيدات.

- حسناً، لا تدفعنا إلى التشاؤم إزاء ذلك.

- هذا صحيح، فلماذا يعيش المرء في الجانب المظلم من الصورة؟ إن ذلك المال كان رائعاً بالنسبة لك... بعد أن فشلت في الحصول على قرض في باريس.

سأل رايدر بغضب: وكيف عرفت ذلك بالله عليك؟

ابتسم بوارو وقال: إنه صحيح على أية حال؟

- إنه صحيح فعلاً، ولكني لا أريد أن ينتشر النبأ.

- أؤكد لك أنني سأكون الكتمان نفسه.

قال رايدر متأملاً: غريب كيف أن مبلغاً صغيراً من شأنه أحياناً - إن لم يتوفر- أن يضع المرء في مشكلات لا نهاية لها. مبلغ قليل من المال النقدي الجاهز يستطيع به المرء أن ينقذ نفسه من أزمة خانقة، وإن هو لم يستطع الحصول على ذلك المبلغ البالغ الصغر فإن مصداقيته كلها تذهب إلى الجحيم. نعم، إن هذا في غاية الغرابة. المال مسألة غريبة، والمصداقية غريبة. بل إن الحياة نفسها غريبة!

قال بوارو: هذا صحيح تماماً.

- بالمناسبة، ما هو الأمر الذي أردت رؤيتي من أجله؟

- إنها مسألة حساسة بعضَ الشيء، فقد سمعت أنك -بالرغم من إنكارك- كانت لك معاملات مع تلك المرأة جيزيل.

- من قال ذلك؟ إنها كذبة، فأنا لم أرَ تلك المرأة قط.

- يا عزيزي، هذا غريب جداً!

قال رايدر بغضب: غريب؟ إنه تشهير لعين.

نظر بوارو إليه وهو يفكر بإمعان ثم قال: آه، عليّ أن أراجع تلك المعلومة.

- ما الذي تعنيه؟ إلامَ تريد الوصول؟

هزّ بوارو رأسه وقال: لا تُغضب نفسك، لا بد أنّ في الأمر خطأ.

- لا بد أنه خطأ، وتأكد بأنني لا أورد نفسي مع أولئك المرابين في أوساط المجتمع الراقي الزائف. ربما وجدت أمثالهن في سيدات المجتمع اللاتي ترهقهن ديون القمار.

نهض بوارو قائلاً: عليّ أن أعتذر على المعلومات الخاطئة التي وصلتني.

ثم وقف قليلاً عند الباب وقال: بالمناسبة، سؤال بسبب الفضول فقط: ما الذي دفعك قبل قليل إلى تسمية الدكتور برايانت باسم الدكتور هوبارد؟

- وكيف لي أن أعرف؟ دعني أتذكر. آه، نعم؛ أعتقد أن سبب ذلك يكمن في آلة الفلوت. إنها أغنية الأطفال تلك إن كنت تعرفها: «كلب الأم العجوز هوبارد»، فهي تقول: «عندما عادت كان يعزف بالفلوت». غريب كيف تختلط الأسماء في الذاكرة!

بوارو: آه، نعم... الفلوت. إنني أهتم بهذه الأمور كما تعلم، من الناحية السيكولوجية.

شخر السيد رايدر من كلمة «السيكولوجية»، فهي تذكّره بما يسميه هو «الأعمال السخيفة للتحليل النفسي»! ثم ودّع بوارو بنظرة ارتياب.

* * *

الفصل التاسع عشرة
مسرحية السيد روبنسن

جلست الليدي هوربوري في غرفة نومها في منزلها رقم ٣١٥ في ساحة غروسفينر، جلست أمام طاولة زينتها فيما انتشرت حولها الفراشي الذهبية وعلب الزينة ومراهم الوجه والمساحيق وكل وسائل الترف الأنيق، ولكنها جلست وسط هذا الترف جافة الشفتين وقد ارتسمت على وجنتيها بقع غير متناسقة من اللون الأحمر.

قرأت الرسالة للمرة الرابعة:

إلى الليدي هوربوري

سيدتي العزيزة،

بخصوص موضوع مدام جيزيل: إن لدي وثائق معينة كانت سابقاً في حوزة السيدة الراحلة. إن كنت أنت أو السيد باراكلاف مهتمَّين بالموضوع فيسعدني أن أزورك بهدف مناقشة القضية، أم أنك تفضلين أن أتعامل مع زوجك في هذه المسألة؟

المخلص: جون روبنسن

من الغباء قراءة الرسالة مرة تلو الأخرى كما لو أن الكلمات قد تُبدّلُ معانيها. يا لها من كاذبة تلك المرأة الفرنسية التي أقسمت

بأن كل الترتيبات قد اتُّخذت لحماية الزبائن في حال وفاتها فجأة. اللعنة عليها!

وفكّرت سيسيلي: "يا إلهي، أعصابي! هذا ليس عدلاً، ليس عدلاً". ثم امتدت يدها المرتجفة إلى زجاجة ذات غطاء ذهبي وهي تحدّث نفسها: هذا سيعيد إليّ توازني، سيجعلني أسيطر على نفسي"... واستنشقت المادة بأنفها.

حسناً، إنها تستطيع أن تفكر الآن: ما العمل؟ لا بد من رؤية الرجل طبعاً. مع أنها لا تعرف أين يمكن أن تجمع أية أموال. ربما قامت برهان محظوظ في ذلك المحل في شارع كارلوس... ولكنّ هناك متسعاً من الوقت للتفكير بذلك لاحقاً. فلتقابل الرجل وترَ ما الذي يعرفه.

ذهبت إلى طاولة الكتابة وخربشت بخطها الكبير السيء: "تهدي الليدي هوربوري تحياتها للسيد جون روبنسن، وسوف تكون مستعدة لمقابلته إذا حضر في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد".

* * *

نورمان: هل أذهب؟

تورّد وجهه قليلاً نتيجة تحديق بوارو المستهجن إليه. قال بوارو: أية مسرحية كوميدية تلك التي تمثلها؟!

تورد وجه نورمان أكثر فأكثر وغمغم قائلاً: لقد قلت إن قليلاً من التنكر سيكون مطلوباً.

تنهد بوارو، ثم أمسك بذراع الشاب وقاده إلى المرآة قائلاً:

انظر إلى نفسك. هذا كل ما أطلبه منك، أن تنظر إلى نفسك! ماذا تحسب أنك فاعل بنفسك؟ «بابا نويل» يرتدي ملابسه ليسلي الأطفال؟ صحيح أن لحيتك ليست بيضاء بل سوداء، وهو اللون الملائم للأشرار، ولكن ما هذه اللحية؟ لحية تصرخ قائلة: انظروا إليّ! إنها لحية رخيصة يا صديقي، وقد تمّ لصقها كأسوأ ما يكون اللصق كما يمارسه الهواة. وحاجباك أيضاً؟ فيهما يتبدى ولعك المجنون بالشعر المزيَّف! رائحة الصمغ اللاصق يشمها المرء على بعد عدة أمتار، كما أنك تخطئ إذا ظننت أن أحداً لن يلاحظ أنك تلصق لاصقاً على أحد أسنانك. يا صديقي، ليس هذا الدَّوْر حرفتك، ليس حرفتك بالتأكيد.

قال نورمان: لقد مثلت كثيراً في مسرحيات الهواة ذات يوم.

بوارو: لا أكاد أصدق هذا الأمر، ومع ذلك فأعتقد بأنهم لم يتركوك تنغمس في أفكارك الخاصة بشأن المكياج، فحتى لو وقفت خلف أضواء خشبة المسرح التي تبهر أعين المتفرجين لبدا مظهرك غير مقنع، فكيف به في ساحة غروسفينر في وضح النهار؟ لا يا صديقي؛ إنك مبتّز ولست كوميدياً. أريدك أن تخيف سعادة الليدي لا أن تجعلها تموت ضحكاً عندما تراك. أرى أنني أجرحك بما أقوله، أنا آسف، ولكنها لحظة لا تنفع معها إلا الحقيقة. خذ هذا وهذا...

ودسّ في يديه بضعة قوارير ثم أضاف: اذهب إلى الحمّام ودعنا نضع حداً لهذه المهزلة.

أطاعه نورمان غيل وقد سحقه الحرج، وعندما خرج من الحمام بعد ربع ساعة كان وجهه أحمر بلون الآجر، فهزّ بوارو رأسه دليل الموافقة وقال: حسن جداً، لقد انتهت المهزلة وبدأ العمل الجادّ. سأسمح لك بشارب صغير، ولكن أنا الذي ألصقه

إذا سمحت. هكذا... والآن نبدّل تسريحة الشعر هكذا، هذا كافٍ تماماً. لنرَ الآن إن كنتَ تحفظ ما ستقوله على الأقل.

استمع بوارو إلى نورمان وهو يعيد ما يجب عليه قوله بانتباه، ثم هزّ رأسه موافقاً وقال: هذا جيد. إلى الأمام وحظاً سعيداً.

- ما أحوجني إلى هذا الحظ السعيد، فربما وجدت هناك زوجاً غاضباً وشرطيين.

أكد له بوارو: لا تخف، سينتهي الأمر بشكل مدهش.

غمغم نورمان بتمرد: هذا ما تقوله أنت.

ثم غادر إلى مهمته البغيضة ومعنوياتُه في الحضيض.

* * *

في غروسفينر تمّ إدخاله إلى غرفة صغيرة في الطابق الأول، وبعد دقيقتين جاءته الليدي هوربوري. حضّر نورمان نفسه، إذ ينبغي عليه أن لا يظهر أبداً كأنه جديد على مثل هذه العملية.

سيسيلي: السيد روبنسن؟

نورمان: في خدمتك.

وانحنى لها، ثم فكّر في نفسه باشمئزاز: تباً لهذه العملية كلها. إنني أبدو كدليل في متجر!

- لقد استلمت رسالتك.

جمع نورمان قواه وحدّث نفسه قائلاً: "ذلك العجوز الغبي يقول إني لا أحسن التمثيل". ثم خاطب المرأة أمامه بشيء من الغطرسة: صحيح، حسناً، وما هو رأيكِ يا ليدي هوربوري؟

- لا أعرف ما الذي تعنيه.

- هيا، هيا، هل من حاجة حقاً لكي ندخل في التفاصيل؟ الجميع يعرفون كم هو ممتع أن نقضي... حسناً، لنسمِّها «عطلة على شاطئ البحر». ولكن الأزواج نادراً ما يوافقون على مثل هذا التصرف. أظن أنك تعرفين -يا ليدي هوربوري- تمام المعرفة طبيعة الدليل الذي أملكه. لقد كانت جيزيل العجوز امرأة رائعة، كانت تعرف الأمور المهمة على الدوام. إن دليل الفندق وأمثاله يعتبر دليلاً من الدرجة الأولى لا يمكن دحضه. والقضية الآن: مَن الذي يريد هذا الدليل أكثر من الآخر، أنتِ أم اللورد هوربوري؟ هذا هو السؤال.

كانت واقفة هناك ترتجف، وقال لها وقد أصبح صوته أكثرَ طبيعية مع انغماسه بشكل أكبر في دور السيد روبنسن: أنا بائع، فهل أنت مشترية؟ هذه هي القضية.

- كيف حصلت على هذا الدليل؟

- هذا خارج عن موضوعنا يا ليدي هوربوري. لقد حصلت عليه، وهذا هو الأمر المهم.

- إنني لا أصدق، دعني أراه.

هزّ نورمان رأسه بنظرة دهاء وقال: آه، لا. لم أجلب معي شيئاً. أنا لست مغفلاً إلى هذا الحد. أما إذا اتفقنا على الصفقة فتلك مسألة أخرى، فسوف أريك الدليل قبل أن تسلميني النقود. تعامل عادل وواضح.

- كم... كم تريد؟

- عشرة آلاف من الغالي... من الجنيهات وليس الدولارات.

- مستحيل! لا يمكنني أبداً أن أضع يدي على مثل هذا المبلغ الضخم.

- إنك تستطيعين فعل الأعاجيب إن حاولت. الذهب لم يعد بنفس القيمة كما كان ولكن اللؤلؤ يبقى لؤلؤاً. اسمعي، من باب إكرام سيدة مثلك سأجعل المبلغ ثمانية آلاف، هذا هو عرضي الأخير. وسأعطيك يومين لتفكري.

- لا أستطيع الحصول على المال، كما قلت لك.

تنهد نورمان وهزّ رأسه وقال: حسناً، لعل من الأفضل أن يعرف اللورد هوربوري بما كان يحصل. أعتقد أنني مصيب عندما أقول بأن امرأة مطلَّقة تحصل على نفقة، كما أن السيد باراكلاف ممثل واعد جداً، ولكنه لا يربح كثيراً من المال. والآن لن أضيف كلمة أخرى، سأتركك لتفكري بالأمر. فكّري جيداً فيما قلتُه فأنا أعني ما أقول.

وصمت قليلاً ثم أضاف: أعنيه كما عنته جيزيل تماماً.

ثم غادر الغرفة بسرعة قبل أن تتمكن المرأة التعيسة من أن تجيبه. وعندما وصل إلى الشارع مسح حاجبه وقال: الحمد لله على انتهاء هذا الأمر.

* * *

بعد ساعة فقط حملت الخادمة بطاقة شخصية إلى الليدي هوربوري.

- هيركيول بوارو؟

رمت البطاقة جانباً وقالت: من هو؟ لا أستطيع مقابلته!

- إنه يقول -يا سيدتي- بأنه هنا تلبيةً لطلب من السيد ريموند باراكلاف.

- آه، حسناً، ليدخل.

ذهبت الخادمة، ثم عادت ثانية وأعلنت: هيركيول بوارو.

دخل السيد بوارو مرتدياً أكثر الملابس أناقة، ثم انحنى للسيدة. أغلقت الخادمة الباب دونهما فتقدمت سيسيلي خطوة وسألت: السيد باراكلاف أرسلك؟

قال لها بلهجة لطيفة ولكنها آمرة: اجلسي يا سيدتي.

جلست بشكل آلي، فأخذ كرسياً قربها وجلس وهو يتصرف بشكل أبوي واثق مُطَمئِن قائلاً: أتوسل إليك يا سيدتي أن تنظري إليّ كصديق. لقد جئت لأنصحك، فأنا أعرف أنك في ورطة كبرى.

تمتمت بهدوء: لا أدري...

- اسمعي يا سيدتي، لا أطلب منك أن تفشي أسرارك، هذا ليس ضرورياً لأنني أعرفها مسبقاً، ذلك هو جوهر التحري الجيد... المعرفة.

اتسعت عيناها وهتفت: التحري؟ تذكرت، لقد كنتَ على متن الطائرة. أنت رجل التحري.

بوارو: بالضبط، أنا رجل التحري. والآن دعينا نتحدث في العمل يا سيدتي. كما قلت لك قبل قليل، أنا لا أضغط عليك لكي تثقي بي، وليس مطلوباً منك أن تبدئي أنت بإخباري بالأمور، بل أنا الذي سأخبرك بها. صباح اليوم، منذ أقل من ساعة، أتاك زائر.

ذلك الزائر الذي كان اسمه براون ربما...

قالت بتعب: روبنسن.

بوارو: لا فرق، براون أو سميث أو روبنسن... فهو يستعمل هذه الأسماء كلها تباعاً. جاء هنا ليبتزّك يا سيدتي، وبحوزته أدلة معينة على حماقة ما، أليس هذا صحيحاً؟ تلك الأدلة كانت في حوزة مدام جيزيل ذات يوم، وهي عند هذا الرجل الآن، وقد عرض تقديمها لك مقابل مبلغ ربما كان سبعة آلاف جنيه.

- بل ثمانية.

- حسناً، ثمانية. وأنت تجدين الحصول على مثل هذا المبلغ بشكل سريع أمراً بالغ الصعوبة، أليس كذلك؟

- لا يمكنني ذلك، لا يمكنني ذلك ببساطة... إنني غارقة في الدين أصلاً. لا أدري ماذا أفعل؟

- هدئي نفسك يا سيدتي، فقد جئت لمساعدتك.

حدقت إليه وقالت: كيف عرفت كل ذلك؟

- لأنني هيركيول بوارو. حسناً، لا تخافي؛ ضعي رأسك بين يدي وسأتولى التعامل مع السيد روبنسن هذا.

قالت سيسيلي بحدة: نعم، وكم تريد أنت؟

انحنى لها بوارو وقال: سأطلب فقط صورة موقَّعة لسيدة بارعة الجمال.

صاحت يائسة: آه يا عزيزي! لا أدري ماذا أفعل. أعصابي، أكاد أُجَنّ.

- لا، لا؛ كل شيء على ما يرام، ثقي بهيركيول بوارو. أريد فقط أن تقولي لي الحقيقة، الحقيقة الكاملة. لا تخفي عني أي شيء وإلاّ صارت يداي مقيّدتَين.

- وستخرجني من هذه الورطة.

- أقسم لك جاداً بأنك لن تسمعي بالسيد روبنسن مرة أخرى.

- حسناً، سأخبرك بكل شيء.

- جيد. والآن، هل اقترضت مالاً من هذه المرأة، جيزيل؟

هزت الليدي هوربوري رأسها بالإيجاب.

- متى كان ذلك؟ أعني متى بدأ ذلك؟

- منذ سنة ونصف، كنت في وضع صعب.

- بسبب القمار؟

- نعم، عاكسني الحظ بشكل رهيب.

- وهل أقرضَتك كل الأموال التي طلبتِها؟

- ليس على الفور. أعطتني مبلغاً بسيطاً في البداية.

- من الذي دلّك عليها؟

- ريموند باراكلاف. قال إنه سمع بأنها تقرض الأموال لنساء المجتمع الراقي.

- وهل أقرضتك أموالاً أكثر فيما بعد؟

- نعم، أعطتني كل ما أريده. بدا ذلك وكأنه معجزة في حينها.

أجابها بوارو بجفاء: ولكنها كانت من معجزات مدام جيزيل الخاصة! وبالطبع كنت حريصة جداً أن لا يعلم زوجك بالأمر، أليس كذلك؟

صرخت سيسيلي بغضب: إن ستيفن متزمّت في تمسكه بالسلوكيات، وقد ملّ مني. إنه يريد الزواج بأخرى، وكان من شأنه أن يقفز فرحاً لو أتيحت له فرصة طلاقي.

بوارو: وأنت لا تريدين الطلاق؟

- إنني...

- إنك مرتاحة لهذا الوضع، كما أنك تتمتعين باستخدام دخل وفير تماماً. هذا أكيد، فينبغي على النساء طبعاً أن يعتنين بأنفسهن. دعينا نكمل حديثنا: بعدها برزت مشكلة تسديد الديون، أليس كذلك؟

- بلى، ولم... لم يكن بوسعي سداد المال. أصبحت الشيطانة العجوز لئيمة قذرة. كانت تعرف عن علاقتي بريموند، وقد كشفت الأماكن والتواريخ وكل شيء. لا أدري كيف تمّ لها ذلك.

قال بوارو بجفاء: كانت لها أساليبها، وأظن أنها بدأت تهدد بإرسال كل تلك الأدلة إلى اللورد هوربوري؟

- نعم، إلاّ إذا سددت.

- ولم تستطيعي التسديد.

- نعم.

- وهكذا جاء موتها هبة لك من العناية الإلهية؟

قالت بجدية: لقد بدا أمراً رائعاً جداً.

- بالضبط، أمر رائع جداً. ولكنه جعلك عصبية بعض الشيء، أليس كذلك؟

- عصبية؟

- حسناً، ذلك أنك الوحيدة من بين ركاب الطائرة التي يتوفر لديها الدافع لتمنّي موتها.

سحبت نفَسها بحدة وقالت: أعرف ذلك. كان هذا فظيعاً، كنت قلقة جداً من هذا الأمر.

- ولا سيما أنك زرتِها في باريس قبل ليلة من موتها، وكان لك معها جولة خلاف لا تسرّ أحداً.

- يا لتلك الشيطانة العجوز! لم تشأ أن تتزحزح عن موقفها قيد أنملة، وأحسب أنها كانت تجد متعة في ابتزاز الناس. آه، لقد كانت وحشاً حقيقياً. لقد خرجتُ من عندها محطمة.

- ولكنك قلت في الاستجواب بأنك لم تشاهدي تلك المرأة من قبل.

- هذا طبيعي، وماذا عساي أقول غير ذلك؟

نظر بوارو إليها بتمعن ثم قال: نعم، أنت لا تستطيعين قول شيء غير ذلك.

- كان الأمر مروعاً جداً. لا شيء غير الأكاذيب، أكاذيب، أكاذيب. ذلك المحقق المخيف جاء هنا مراراً ليضايقني بأسئلته، ولكنني كنت أشعر بأمان تام وأدركت بأنه يحاول فقط أن يمتحن صلابتي، إذ لم يكن يعرف شيئاً.

قال بوارو: إذا أراد المرء أن يخمّن أمراً فعليه أن يخمنه بثقة.

مضت سيسيلي متابِعةً تسلسل أفكارها: ثم داهمني شعور لا رادّ له بأنه لو قُدِّر لشيء أن يتسرب لتسّرب فوراً ومنذ البداية، فشعرت بالأمان، حتى وصول تلك الرسالة الفظيعة.

- ألم تكوني خائفة طَوال هذا الوقت؟

- طبعاً كنت خائفة.

- ولكن من ماذا؟ من انكشاف علاقتك أم من إلقاء القبض عليك بتهمة القتل؟

اختفى التورّد الذي كان يصبغ وجنتيها وقالت: القتل؟ ولكنني لم أقتلها. آه، ألا تصدق ذلك؟ أنا لم أقتلها، لم أقتلها.

- لقد أردت موتها.

- نعم، ولكنني لم أقتلها. آه، ينبغي أن تصدقني، ينبغي عليك ذلك. إنني لم أتحرك من مقعدي. إنني...

توقفت عن الكلام وتركزت عيناها الزرقاوان عليه بتوسّل. هزّ بوارو رأسه مهدّئاً وقال: إنني أصدقك يا سيدتي لسبن، أولاً بسبب جنسك كامرأة، وثانياً بسبب زُنبور.

حدقّت إليه وقالت: زنبور؟!

بوارو: بالضبط. أعرف أن هذا لا يعني لك شيئاً، فَلْنلتفت الآن إذن إلى القضية التي بين أيدينا. سأتولى أمر السيد روبنسن هذا، وعهداً عليّ أن لا تسمعي به ثانية. سأسوّي حسابه، وربما كان حسابه عسيراً عليه. والآن مقابل خدماتي سأطلب منك الإجابة عن سؤالين بسيطين: هل كان السيد باراكلاف في باريس في اليوم الذي

سبق جريمة القتل؟

- نعم، لقد تعشينا معاً. ولكنه فكر بأن من الأفضل أن أذهب وأقابل المرأة بمفردي.

قال بوارو بتمعن: آه، هكذا فكّر، أليس كذلك؟ والآن يا سيدتي، سؤال آخر فقط: لقد كان اسمك الفني قبل زواجك سيسيلي بلاند، فهل كان هذا هو اسمك الحقيقي؟

- لا؛ اسمي الحقيقي هو مارتا جيب. ولكن الاسم الآخر...

- مناسب أكثر كاسم فني. وأين كانت ولادتك؟

- في دونكاستر، ولكن لماذا؟

بوارو: اعذريني، إنه فضول فحسب. والآن يا ليدي هوربوري، هل تسمحين لي بأن أقدم لك نصيحة صغيرة: لماذا لا ترتبين مع زوجك طلاقاً سرّياً؟

- وأتركه يتزوج تلك المرأة؟

- واتركيه يتزوج تلك المرأة. إن لك قلباً طيباً يا سيدتي، وكذلك ستكونين في أمان، في أمان كبير، وسيدفع لك زوجك دخلاً مناسباً.

- لن يدفع دخلاً كبيراً.

بوارو: حسناً، فما إن تصبحي حرة حتى تتزوجي بمليونير.

- ليس في هذه الأيام أي مليونير.

- آه، لا تصدقي ذلك يا سيدتي، فالرجل الذي كان يملك ثلاثة ملايين ربما أصبح يملك الآن مليونين. حسناً، ما يزال هذا

المبلغ كافياً.

ضحكت سيسيلي وقالت: إنك مقنع جداً يا سيد بوارو. هل أنت واثق بأن ذلك الرجل الفظيع لن يزعجني ثانية؟

قال بجدية: هذا عهد من هيركيول بوارو.

* * *

الفصل العشرون
في شارع هارلي

مشى المفتش جاب بسرعة في شارع هارلي وتوقف لدى أحد الأبواب، ثم سأل عن الدكتور برايانت.

- هل لديك موعد يا سيدي؟

- لا، ولكني سأكتب له بضع كلمات.

كتب على بطاقة رسمية: "أكون شاكراً لك لو خصصت لي بضع دقائق من وقتك، ولن أشغلك طويلاً"، ثم وضع البطاقة في ظرف وختمه وأعطاه للخادم.

أدخله الخادم إلى غرفة الانتظار حيث امرأتان ورجل، فجلس جاب وأخذ يتصفح عدداً قديماً من إحدى المجلات. ثم ظهر الخادم ثانية وعبر الغرفة ليقول له بصوت خافت: هل تسمح بالانتظار قليلاً يا سيدي؟ سيراك الدكتور ولكنه مشغول جداً هذا اليوم.

هزّ جاب رأسه موافقاً، فهو لم يكن يمانع أبداً بالانتظار، بل إنه رحب به بعض الشيء. شرعت المرأتان تتكلمان، وكان واضحاً أنهما تقدّران كثيراً إمكانات الدكتور برايانت، ثم دخل مرضى آخرون. كان واضحاً أن الدكتور برايانت ناجح في عمله، وفكّر

جاب مع نفسه قائلاً: إنه يكاد يسكّ النقود من عمله هذا، وهذا لا يشي بالحاجة إلى الاقتراض، ولكن ربما حدث القرض منذ أمد بعيد. إنه ناجح في عمله على أية حال، وأية رائحة لفضيحة يمكن أن تدمر عمله. هذا هو أسوأ ما في عمل الطبيب.

بعد ربع ساعة ظهر الخادم وقال: سيراك الطبيب الآن يا سيدي.

دخل جاب إلى غرفة الدكتور برايانت، وكانت غرفة في الجزء الخلفي من المبنى ذات نافذة كبيرة. كان الدكتور جالساً خلف مكتبه، فنهض وصافح المحقق. ظهر التعب على وجهه ذي القسمات الوسيمة، ولكن لم يَبدُ عليه أنه انزعج من زيارة المحقق بأي شكل. قال بعد أن أومأ لجاب بالجلوس على الكرسي المقابل له وعاد هو إلى الجلوس: ما الذي يسعني أن أخدمك به أيها المفتش؟

جاب: عليّ أن أعتذر أولاً عن زيارتك في أثناء ساعات فحصك للمرضى، ولكنني لن أشغلك كثيراً يا سيدي.

- لا بأس في ذلك. أظن أن الأمر يتعلق بحادثة الوفاة على متن الطائرة؟

- تماماً يا سيدي. ما زلنا نعمل في هذه القضية.

- وهل حققتم أية نتائج؟

- لم نتقدم بقدر ما نتمنى. لقد جئت فعلاً لأسألك بعض الأسئلة عن الطريقة التي استُخدمت في الجريمة. إن قضية سم الأفاعي تلك هي التي لم أستطع استيعابها.

- أنا لستُ عالم سموم كما تعلم، وهذه الأشياء ليست ضمن حقل اختصاصي. إن وينترسبون هو الرجل الذي يستطيع خدمتك.

- آه، ولكن المشكلة هي كما يلي يا دكتور: وينترسبون خبير، وأنت تعرف طبيعة الخبراء، فهم يتكلمون بطريقة لا يستطيع الإنسان العادي فهمها. ولكنّ في هذه المسألة جانباً طبياً كما فهمت، فهل صحيح أن سم الأفاعي يُحقَن أحياناً لعلاج حالات الصرع؟

- أنا لست مختصاً بالصرع أيضاً، ولكنني أظن أن حقنات من سموم أفاعي الكوبرا قد استُعملت لعلاج الصرع وحققت نتائج ممتازة. ولكن هذا ليس من اختصاصي كما قلت لك.

جاب: أعرف، أعرف. القضية هي أنني شعرت بأنك ربما كنت مهتماً بالموضوع لأنك كنت على متن الطائرة شخصياً، فكرت بأنه ربما كان لديك بعض الأفكار حول الموضع مما قد يكون مفيداً لي، فلا فائدة ترتجى من ذهابي إلى خبير إن لم أكن على معرفة بما ينبغي عليّ أن أسأله.

ابتسم الدكتور برايانت وقال: إنّ في كلامك شيئاً من الصحة أيها المفتش، فما من امرئ يستطيع أن يبقى غيرَ متأثر بجريمة قتل كان قريباً جداً منها. أنا أعترفُ بأنني مهتم بالأمر، وقد فكرت بالقضية كثيراً بطريقتي الهادئة.

- وما هو رأيك يا سيدي؟

هزّ برايانت رأسه ببطء ثم قال: إن الأمر يدهشني ويحيّرني، فهو يبدو غير حقيقي إن جاز لي التعبير. إنها طريقة مذهلة في ارتكاب جريمة لأن فرصة عدم رؤية القاتل لم تكن لتتجاوز الواحد بالمئة. لا بد أنه شخص مغامر لا يأبه بالمخاطر.

- صحيح تماماً.

- كما أن اختيار السم أمر محير بنفس الدرجة، فكيف لمن

يخطط للقتل أن يحصل على مادة كهذه؟

- نعم، هذا أمر يصعب تصديقه. لا أحسب أن شخصاً واحداً من كل ألف قد سمع بأفعى الأشجار، ومَن توصلوا إلى سمها أقل بكثير بلا ريب. أنت نفسك يا سيدي، أنت مثلاً طبيب، ولكني لا أحسبك رأيت ذلك السم.

- لم تسنح لي فرصة لذلك بالتأكيد. لديّ صديق يعمل في مجال الأبحاث الاستوائية وفي مختبره عينات مختلفة من سموم الأفاعي المجففة (سموم الكوبرا مثلاً)، ولكنني لا أتذكر أية عينة لسموم أفعى الأشجار.

قال جاب وهو يخرج ورقة ويعطيها للطبيب: ربما استطعت مساعدتي؛ لقد كتب لي وينترسبون هذه الأسماء الثلاثة وقال إن بوسعي الحصول على بعض المعلومات منهم، فهل تعرف أياً من هؤلاء الرجال؟

- أعرف البروفيسور كينيدي معرفة سطحية، أما هايدلر فأعرفه تماماً، اذكُرْ له اسمي وأنا واثق من أنه سيفعل كل ما بوسعه ليساعدك. كارمايكل يعمل في أدنبرة ولا أعرفه شخصياً، ولكنني أظن أنهم يقومون بأبحاث جيدة هناك.

- شكراً يا سيدي، أنا ممتنّ كثيراً. حسناً، لن أشغلك أكثر من ذلك.

عندما خرج جاب إلى شارع هارلي كان يبتسم بفرح وهو يحدّث نفسه قائلاً: لا شيء كاللباقة، فهي التي تنجح. أنا واثق من أنه لم يدرك ما الذي كنت أريده، وحسناً فعلت.

* * *

الفصل الحادي والعشرون
المؤشرات الثلاثة

عندما عاد جاب إلى مركز سكوتلنديارد أخبروه بأن السيد هيركيول بوارو في انتظاره. حياه جاب بحرارة قائلاً: حسناً يا سيد بوارو، ما الذي أتى بك؟ هل من أخبار؟

بوارو: جئت لأسألك عن الأخبار يا صديقي جاب.

- هذا ليس من صفاتك. على كل حال ليس عندي الكثير، هذه هي الحقيقة. صحيح أن ذلك التاجر في باريس قد عرف الأنبوب، وفورنييه ظلّ يزعجني من باريس بحديثه عن اللحظة السيكولوجية، ولكنني حققت مع المضيفين تحقيقاً مطولاً وأصرّا على أن أية «لحظة سيكولوجية» لم تقع في أثناء الرحلة ولا حدث أي شيء ملفت للنظر أو خارج عن العادة.

- ربما حدث وهما في المقصورة الأمامية.

- ولكنني حققت مع المسافرين أيضاً؛ لا يمكن أن يكذب الجميع.

- في إحدى القضايا التي حققتُ فيها كذب الجميع.

- ارحمني أنت وقضاياك! أنا لست سعيداً في الحقيقة يا سيد

بوارو؛ كلما دققت أكثر في الأمور ازددت حيرة، وقد بدأ الرئيس ينظر إليّ بشيء من البرود. ولكن ما الذي بوسعي أن أفعله؟ من حسن الحظ أن هذه القضية هي من القضايا نصف الأجنبية، حيث نستطيع هنا أن نُنْحي باللائمة على الفرنسيين، بينما يستطيع الفرنسيون في باريس أن يقولوا إن مرتكبها كان إنكليزياً وإنها من اختصاصنا.

- هل تظن حقاً أن الرجلين الفرنسيين ارتكبا الجريمة؟

- حسنا، بصراحة لا أظن ذلك. فأنا لا أرى أن عالم آثار يمكن أن يقدم على مثل هذه الجريمة لأنه مشغول طول الوقت بالحفر في باطن الأرض ويهرِف بحديثه عما حصل قبل آلاف السنين... وكيف يمكن أن يعرفوا كل ذلك؟ هذا ما أود معرفته. ومَن الذي يمكن أن ينقض كلامهم؟ يقولون إن هذه السُّبحة العفنة مثلاً عمرها خمسة آلاف وثلاثمئة واثنان وعشرون عاماً، فمن الذي يقول إنها ليست كذلك؟ حسناً، هذا هو شأنهم، كاذبون غالباً، مع أنهم يصدّقون أنفسهم كما يبدو! ولكنهم مسالمون. لا، لا أعتقد أبداً أن ذينك الآثاريَّين الفرنسيين هما اللذان ارتكبا الجريمة.

- من الذي تظن أنه فعلها؟

- حسناً، لدينا كلانسي بالطبع. إنه في حالة غريبة ويتجول وهو يتمتم مع نفسه. في عقله شيء ما.

- ربما كان ذلك الشيء هو عقدة قصته الجديدة.

- ربما كان الأمر كذلك، وربما كان شيئاً آخر، ولكني -رغم كل محاولاتي- لم أعثر على أي دافع. ما أزال أعتقد بأن الرمز «س ل ٥٢» في ذلك الدفتر الأسود يشير إلى الليدي هوربوري، ولكنني لا

أستطيع الحصول على أي شيء منها. إنها امرأة داهية، أؤكد لك.

ابتسم بوارو لنفسه فيما تابع جاب: أما المضيفان فإنني لا أستطيع أن أجد أي رابط يربطهما بجيزيل.

- والدكتور برايانت؟

- أظن أنني بدأت أكشف بعض الأشياء عنه. تدور إشاعات حوله وحول إحدى مريضاته؛ امرأة جميلة وزوج قذر مدمن مخدرات، وإذا لم ينتبه لنفسه فسوف يُطرَد من المجلس الطبي. ربما كان هو المقصود بالرمز «ر ت ٣٦٢» في دفتر جيزيل، ولا مانع أن أخبرك بأن لديّ فكرة رائعة جداً عن المكان الذي ربما حصل منه على سموم الأفاعي. لقد ذهبت لرؤيته فكشف نفسه بسهولة بشأن هذا الموضوع. ولكن الأمر لا يزال محضَ حدس وتخمين وليس حقائق؛ الحقائق لا تأتي بسهولة في هذه القضية. رايدر يبدو واضحاً وصريحاً، قال إنه ذهب إلى باريس ليحصل على قرض ولم يستطع الحصول عليه، وقد قدّم لنا أسماء وعناوين وتمّ تمحيصها جميعاً. وقد علمتُ بأن شركته كانت في مأزِق مالي تقريباً قبل أسبوع أو أسبوعين، ولكن يبدو أنهم في وضع أفضل الآن. وها نحن نعود إلى الحالة نفسها: نتائج غير مُقنِعة. الأمر كله مشوَّش!

قال بوارو: لا أرى أي شيء مشوَّش. ربما كان غامضاً، نعم، ولكن التشويش لا يمكن أن يحدث إلاّ للعقول المضطربة.

- اختر أيّ كلمة تريد، فالنتيجة واحدة. فورنييه حائر أيضاً، وأحسب أن المشكلة قد أُغلقت عليك أيضاً ولكنك تفضل عدم البوح بذلك؟

- أتريد أن تستفزّني بسخريتك؟ إن المشكلة لم تُغلَق عليّ،

فأنا أتقدم خطوة خطوة بنظام ومنهجية، ولكن ما زال في الشوط متسع للبحث.

- لا يسعني إلاّ أن أشعر بالسعادة لسماع ذلك. دعنا نسمع عن خطواتك المنظّمة تلك.

ابتسم بوارو وقال: لقد وضعت جدولاً صغيراً، هذا.

أخرج ورقة من جيبه وأوضح قائلاً: فكرتي هي كما يلي: إن القتل عملية يتم فعلها لتحقيق نتيجة معينة.

قال جاب: أعِدْ ذلك عليّ ببطء.

- إنه ليس صعباً.

- ربما، ولكنك تجعله يبدو صعباً.

- لا، لا، إنه بسيط جداً. فلنقل مثلاً إنك تريد مالاً، فتحصل عليه عندما تموت عمة لك. حسناً، تقوم بإجراء (أي تقتل العمة) فتحصل على النتيجة (أي أنك ترث المال).

قال جاب: ليتني كان لي عمّات من هذا النوع! تقصد أنه لا بد من دافع؟

بوارو: أفضّل استعمال طريقتي في التعبير عن ذلك. ثمة عمل تمّ فعله، وهو القتل. ما هي نتائج هذا العمل الآن؟ بدراستنا للنتائج المختلفة لا بد لنا من الحصول على حل لأُحجيتنا. إن نتائج عمل واحد يمكن أن تتباين كبيراً، فذلك العمل نفسه يؤثر في حياة كثير من الأشخاص. حسناً، إنني أدرس النتيجة اليوم -بعد ارتكاب الجريمة بثلاثة أسابيع- في إحدى عشرة حالة مختلفة.

ثم فتح ورقة، وانحنى جاب باهتمام فقرأ من خلف بوارو:

الآنسة غري: النتيجة جيدة مؤقتاً؛ زيادة في الراتب.

الدكتور غيل: النتيجة سيئة؛ خسارة زبائن.

الليدي هوربوري: النتيجة جيدة (إن كانت هي المُشار إليها بالرمز «س ل ٥٢»).

الآنسة كير: النتيجة سيئة، حيث إن موت جيزيل يصعّب إمكانية حصول اللورد هوربوري على دليل يتيح له تطليق زوجته.

قطع جاب تدقيقه ليقول: همم، فأنت تعتقد أنها مغرمة بسيادة اللورد إذن؟ إن لك أنفاً ماهراً في شمّ روائح العلاقات العاطفية!

ابتسم بوارو، وانكبّ جاب على القائمة مرة أخرى.

السيد كلانسي: النتيجة جيدة، يتوقع تحقيق أرباح من كتاب سيؤلفه عن الجريمة.

الدكتور برايانت: النتيجة جيدة (إن كان هو «ر ت ٣٦٢»).

السيد رايدر: النتيجة جيدة، بسبب مبلغ بسيط من المال حصل عليه من خلال مقالات حول الجريمة، وكان من شأن المبلغ أن ينقذ الشركة في وقت حرج. وهي جيدة أيضاً إن كان رايدر هو «ز ف ب ٧٢٤».

السيد دوبون وابنه: غير متأثرين.

ميتشل: غير متأثر.

ديفيس: غير متأثر.

سأل جاب بارتياب: وهل تظن أن هذا سيساعدك؟ لا أظن أن تدوين عبارات من قبيل «لا أدري» و«لا أعرف» و«لا جديد» يمكن أن يحسن من وقعها.

بوارو: إن هذا يعطي المرء تصنيفاً واضحاً. في أربع من الحالات (هي حالات السيد كلانسي والآنسة غري والسيد رايدر، وربما يمكنني إضافة الليدي هوربوري) نجد النتيجة إيجابية وتعكس استفادة. أما في حالتَي السيد غيل والآنسة غري فالنتيجة سلبية، وفي أربع حالات أخرى لا توجد أية نتيجة أصلاً (في حدود معلوماتنا)، وفي واحدة من تلك الحالات (وهي حالة الدكتور برايانت) إما أن لا تكون نتيجةٌ أو أن يكون مكسبٌ محدود.

- وهكذا؟

- وهكذا ينبغي أن نستمر في البحث.

قال جاب مكتئباً: نستمر دون أية معلومات قيّمة ننطلق منها؟ المشكلة هي أننا مقيَّدون بانتظار حصولنا على المعلومات التي نريدها من باريس؛ فالجانب المتعلق بجيزيل هو الذي ينبغي البحث فيه. أراهن أنه كان بوسعي أن أستخلص معلومات من تلك الخادمة أكثر مما صنع فورنييه.

- أشكّ في ذلك يا صديقي. إن أهم ما في هذه القضية هو شخصية القتيلة: امرأة بلا أصدقاء، بلا أقارب، بلا أي حياة شخصية إذا صحّ التعبير. امرأة كانت يوماً شابّة وأحبّت وعانت، ثم أغلقت النوافذ على نفسها بيد حازمة وانتهى كل ذلك. لا صورة، لا هدية تذكارية، لا حلية... أصبحت ماري موريسو المدام جيزيل المرابية.

- ألا تعتقد أن في ماضيها مؤشراً ما؟

- ربما.

- حسناً، يمكننا أن نبحث في ذلك. ليس في هذه القضية أي

مؤشرات أو دلائل.

- آه، بلى يا صديقي، توجد مؤشرات ودلائل.

- تقصد أنبوب النفخ، طبعاً.

- لا، لا، ليس أنبوب النفخ.

- حسناً، قل لنا: ما هي أفكارك عن مؤشرات ودلائل هذه القضية.

ابتسم بوارو وقال: سأعطي لهذه المؤشرات عناوين كقصص السيد كلانسي: «مؤشر الزنبور»، و«مؤشر أمتعة المسافرين»، و«مؤشر ملعقة القهوة الإضافية».

قال جاب بلطف: "إنك مخبول"! ثم أضاف متسائلاً: وما هذا الذي قلته عن ملعقة القهوة؟

- كان أمام المدام جيزيل ملعقتان في صحن فنجانها.

- من المفترض أن يعني ذلك زواجاً وشيكاً.

- ولكنه جاء بجنازة في هذه القضية!

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني والعشرون
جين تتولى عملاً جديداً

عندما اجتمع نورمان غيل وجين وبوارو لتناول العشاء في الليلة التي أعقبت حادثة الابتزاز شعر نورمان بالارتياح لسماعه بأن خدماته -باعتباره السيد روبنسن- لم تعد مطلوبة. قال بوارو: لقد مات السيد الطيب روبنسن.

سألت جين: ما الذي حدث؟

ابتسم بوارو وأجابها: لقد وجدت ما أردت معرفته.

- هل كانت متورطة مع جيزيل؟

- نعم.

نورمان: كان ذلك واضحاً تماماً من مقابلتي لها.

- هذا صحيح، ولكنني أردت القصة كاملة ومفصلة.

- وهل حصلت عليها؟

قال بوارو: نعم.

نظر إليه الاثنان نظرات استفهام، ولكن بوارو شرع بأسلوب

استفزازي في مناقشة العلاقة بين مهنة الإنسان وحياته. قال: الناس الذين يعملون في أعمال لا تناسبهم ليسوا كثيرين كما قد يُخيَّل إلى المرء، فمعظم الناس -بغض النظر عما يقولونه- يختارون المهن التي يفضلونها في دخيلة أنفسهم. وربما سمع المرء شخصاً يعمل في مكتب ويقول: "أحب أن أستكشف العالم وأقضي حياتي في البلدان البعيدة"، ولكن سرعان ما يدرك بأن ذلك الشخص يحب قراءة الأدبيات التي تتحدث عن الاستكشاف والسفر فقط، ولكنه يفضل في قرارة نفسه الأمان والراحة اللذين توفرهما غرفة المكتب.

جين: تبعاً لما تقوله فإن رغبتي في السفر إلى بلاد أجنبية ليست رغبة حقيقية، وإن العبث برؤوس النساء هو هوايتي الحقيقية. ولكن هذا ليس صحيحاً.

ابتسم لها بوارو وقال: أنت ما تزالين شابة، ومن الطبيعي أن يجرب المرء عدة أعمال ولكن المهنة التي يستقر عليها هي الحياة التي يفضلها.

- ولنفترض أنني أفضّل أن أكون ثرية؟

- آه، الثروة؟ هذا أكثر صعوبة.

غيل: أنا لا أتفق معك؛ فأنا مثلاً طبيب أسنان بالمصادفة وليس بالاختيار، فقد كان عمي طبيب أسنان وأرادني أن أدخل معه في عمله، ولكنني كنت مغرماً بالمغامرة ورؤية العالم فتركت طب الأسنان وسافرت لممارسة الزراعة في جنوب أفريقيا، ولكن ذلك لم ينجح معي إذ لم أملك الخبرة الكافية، فاضطررت إلى قبول عرض عمي العجوز لبدء عمل معه.

بوارو: وأنت الآن تفكر بترك طب الأسنان ثانية والسفر إلى

كندا. إن لديك عقدة تجربة كل المستعمرات البريطانية.

- ولكني سأكون مضطراً إلى السفر في هذه المرة.

- يا لكثرة ما تجبر الظروفُ الإنسانَ على فعل الأشياء التي يحب فعلها.

قالت جين مكتئبة: لا سبب يجبرني على السفر، وكم أتمنى لو أجد ما يجبرني على ذلك!

- حسناً، إنني أقدّم لك الآن عرضاً فورياً: سأذهب إلى باريس في الأسبوع القادم، فإذا رغبت فإن بوسعك أن تتولي مهام سكرتيرتي، وسوف أعطيك راتباً جيداً.

هزّت جين رأسها وقالت: ينبغي أن لا أترك مؤسسة أنطوان، فهي عمل جيد.

- وكذلك ما أعرضه عليك، إنه عمل جيد.

- نعم، ولكنه مؤقت فقط.

- سأحصل لك على مركز آخر من نفس النوع.

- شكراً، لا أظنني سأجازف هذه المجازفة.

نظر بوارو إليها وابتسم بشكل غامض.

* * *

بعد ثلاثة أيام رن جرس هاتفه.

جين: السيد بوارو، أما تزال تلك الوظيفة متاحة؟

- آه، نعم. سأسافر إلى باريس يوم الإثنين.

- أأنت جادٌّ حقاً؟ هل أستطيع السفر معك؟

- نعم. ولكن ما الذي حصل وجعلك تغيرين رأيك؟

- لقد تشاجرت مع أنطوان. في الحقيقة فقدت أعصابي أمام إحدى الزبونات، فقد كانت، كانت... حسناً، لا أستطيع أن أصفها لك عبر الهاتف. كنت أشعر بالتوتر، وبدلاً من أن أتناول شرابي المهدّئ انفجرت في وجهها وقلت لها رأيي الحقيقي فيها.

- آه، فكرة الأماكن العظيمة المفتوحة الفسيحة.

- ما هذا الذي تقوله؟

- أقول إن عقلك كان منشغلاً بموضوع معين.

- لم يكن عقلي، بل لساني هو الذي زلّ وانطلق. وما أشدّ ما استمتعت بتوبيخها، فقد بدت عيناها جاحظتين تماماً كعيني كلبها المتوحش الصغير، كما لو كانتا ستقعان من محجرَيهما. ولكن ها أنا كما ترى: رموني شرّ رمية كما يُقال. أظن أن عليّ أن أحصل على وظيفة أخرى لاحقاً، ولكنني أودّ أن أذهب إلى باريس قبل ذلك.

- جيد، اعتبري الأمر منتهياً. وفي طريق رحلتنا سأزوّدك بالتعليمات.

* * *

لم يسافر بوارو وسكرتيرته الجديدة جواً، فشعرت جين بالارتياح لأن التجربة البغيضة خلال رحلتها الأخيرة وتّرت أعصابها، وهي لم تكن تريد أن تتذكر ذلك الجسد المتهالك على مقعد الطائرة دون حراك.

في طريقهما من بلدة كاليه إلى باريس حجزا مقصورة في القطار، وقدم بوارو لجين ملخصاً عن خططه: في باريس عدة أشخاص عليّ أن أراهم، منهم المحامي تيبو والسيد فورنييه من جهاز الأمن، وهو رجل كئيب ولكنه ذكي. وهناك السيدان دوبون الأب والابن، وأريد أن أترك الابن لك منك فيما أتولى أنا أمر الوالد. أتخيل أن السيد دوبون سيتذكرك من جلسة الاستجواب.

تورد وجه جين قليلاً وهي تقول: لقد رأيته بعد ذلك.

بوارو: حقاً؟ وكيف تمّ الأمر؟

شرحت له جين -وقد تورّد وجهها أكثر فأكثر- كيف حدث لقاؤهما في المطعم، فقال بوارو: ممتاز، هذا أفضل بكثير. آه، لقد كانت فكرة إحضارك معي إلى باريس واحدة من أفكاري الرائعة. والآن استمعي جيداً لما أقوله يا آنسة جين: لا تناقشي معه قضية جيزيل ما أمكنك ذلك، ولكن لا تتجنبي الموضوع إذا بدأه جان دوبون. وقد يكون من المفيد أن تقدّمي له انطباعاً بأن الليدي هوربوري مشتبَه بها في هذه الجريمة، ولكن لا تقولي ذلك بلسانك؛ بل يمكنك القول إنني قد جئت إلى باريس للتشاور مع السيد فورنييه ولكي أتحرى بشكل خاص عن أية معاملات ربما تكون الليدي هوربوري قد أجرتها مع القتيلة.

جين: مسكينة هذه الليدي هوربوري!

- إنها ليست من النوع الذي يعجبني. حسناً، فلتكن مفيدة ولو لمرة واحدة.

ترددت جين قليلاً ثم قالت: أنت لا تشك في علاقة دوبون الشاب بالجريمة، أليس كذلك؟

بوارو: لا، لا، إنني أرغب في المعلومات فقط.

ثم نظر إليها نظرة ثاقبة وقال: هل يعجبك هذا الشاب؟

ضحكت جين من عبارته وقالت: إنه بسيط جداً، ولكنه لطيف ودود.

- هكذا تصفينه إذن، بسيط جداً؟

- إنه بسيط بالفعل، وأظن أن سبب ذلك كونه يعيش حياة طبيعية بعيدة عن زخرف الدنيا.

- صحيح، فهو ليس كطبيب الأسنان الذي سيسافر إلى كندا.

- إنه يتحدث الآن عن السفر إلى نيوزيلاندا، ويظن بأن الطقس سيروقني هناك أكثر.

- إنه وطني على أية حال، فهو متمسك بالمستعمرات البريطانية.

- آمل أن لا يكون هذا ضرورياً.

ونظرت إلى بوارو نظرة متفحصة متسائلة فقال: أي أنك تضعين ثقتك في بابا بوارو؟ حسناً، سأفعل كل ما أستطيعه، أعدك بذلك. ولكنْ لديّ شعور قوي بأن شخصاً ما لم يظهر بعد أمام الأضواء، بأن هناك دوراً لم يتم أداؤه بعد.

وهزّ رأسه وقد علت محيّاه تقطيبة حيرة، ثم أضاف: في هذه القضية يا آنسة عنصر مجهول، كل الأمور تشير إلى ذلك.

❋ ❋ ❋

بعد يومين من وصولهما إلى باريس تعشّى السيد هيركيول

بوارو وسكرتيرته في مطعم صغير، وكان السيدان دوبون ضيفَين على بوارو.

لم تسنح لجين الفرصة للحديث مع السيد دوبون العجوز، فقد احتكره بوارو بشراسة منذ البداية. ووجدت أن تعاملها مع الابن وانسجامها معه سهل كما كان في لندن عند لقائهما الأول. وقد سُرَّت بشخصيته الصبيانية الجذابة كما سُرَّت بها آنذاك؛ كان إنساناً بسيطاً ودوداً إلى أبعد الحدود.

ولكنها -وبينما هي تتحدث مع الابن- كانت أذنها مصغية لسماع أطراف من حديث الرجلين الآخرين. كانت تتساءل بشكل خاص عن المعلومات التي يريدها بوارو، ولكن المحادثة لم تتطرق إلى حادثة القتل مطلقاً. كان بوارو يجرّ زميله ببراعة إلى موضوع الماضي مبدياً اهتماماً بالتنقيبات الآثارية في إيران، اهتماماً بدا عميقاً وصادقاً تماماً. وكان السيد دوبون يستمتع بلباقته إلى حد كبير، فقلّما يُتاح له مستمع بهذا القدر من الذكاء والمشاركة الوجدانية.

لم يتضح مَن الذي اقترح أن يذهب الشابان للمشي، ولكن ما إن غادرا حتى جرّ بوارو كرسيه قليلاً مقترباً من الطاولة وبدا جاهزاً لإبداء قدر أكبر من الاهتمام بالبحوث والتنقيبات الأثرية. قال: إنني أفهم ذلك؛ من الطبيعي أن يجد المرء في هذه الأيام العصيبة صعوبة في جمع الأموال الكافية. ولكن هل تقبلون التبرعات الخاصة؟

ضحك السيد دوبون وقال: يا صديقي العزيز، إننا نلتمسها حَبْواً على الرُكَب! ولكن نوع الحفريات الخاصة التي نقوم بها لا يجذب اهتمام السواد الأعظم من الناس، فهم يريدون نتائج مذهلة واضحة رنّانة ويريدون -فوق كل شيء- حلياً ذهبية! إنه لمن المحيّر

أن يرى المرء قلة اهتمام الإنسان العادي بالأواني الفخارية الأثرية، مع أن قصة التطور الإنساني كله يمكن أن تقرأها على الفخار.

وسرعان ما أخذت السيد دوبون النشوةُ، فتوسل إلى بوارو أن لا تغويه كتب فلان الخدّاعة أو أخطاء فلان المجرمة حقاً في تحديد التواريخ... وقد وعد بوارو بكل مهابة بأن لا تقوده الغواية لتصديق شيء من كتب أو دراسات تلك الشخصيات. ثم قال بعد ذلك: هل تقبلون تبرعاً بمبلغ خمسمئة جنيه مثلاً؟

كاد السيد دوبون يقع على الطاولة لفرط انفعاله، وهتف: أنت... أنت تعرض ذلك؟ عليّ أنا؟ لتدعم أبحاثنا؟ هذا رائع، مذهل! إنه أكبر تبرع خاص أناله.

سعل بوارو وقال: ولكني سأعترف بأنني سأطلب معروفاً.

- نعم، هدية... ربما بعض نماذج الفخار.

- لا، لا، لقد أسأت فهمي.

قالها بوارو بسرعة قبل أن تأخذ النشوة السيد دوبون مرة أخرى، ثم أضاف: إنها سكرتيرتي، تلك الشابة الفاتنة التي رأيتَها الليلة. إن كان بإمكانها مرافقتكم في بعثتكم الأثرية؟

سيطرت الدهشة على السيد دوبون لبرهة، ثم قال: حسناً، ربما استطعنا ترتيب ذلك. سيكون عليّ التشاور مع ابني لأن ابن أخي وزوجته سيأتيان معنا. كان مقدّراً لها أن تكون سفرة عائلية، ولكني سأتكلم مع جان على كل حال.

بوارو: إن الآنسة غري مهتمة بالفخار بشغف وللماضي عندها سحر رهيب، كما أن الحفر هو حلم حياتها، وهي تُصلح الجوارب

وتخيط الأزرار بطريقة تثير الإعجاب أيضاً.

- هذه مهارات مفيدة.

* * *

وصل بوارو إلى فندقه ليجد جين تودع جان دوبون في الصالة، وبينما كانا يصعدان في المصعد قال لها بوارو: لقد وفّرت لك وظيفة مثيرة جداً. سترافقين السيدين دوبون إلى إيران في الربيع.

حدقت جين إليه وقالت: هل أنت مجنون؟

- عندما يقدمان لك العرض عليك أن تقبليه بكل مظاهر الفرح.

- لن أذهب إلى إيران بالتأكيد، بل سأكون في مكان ما مع نورمان.

نظر بوارو إليها بلطف وقال: يا طفلتي العزيزة، ما تزال أمامنا أشهر عديدة قبل أن يحلّ شهر آذار، وإبداء مظاهر الفرح لا يعني شراء تذكرة سفر. وبنفس الطريقة تحدثت أنا عن تقديم تبرع، ولكنني لم أوقع شيكاً بالفعل. بالمناسبة، عليّ أن أشتري في الصباح كتاباً عن فخار ما قبل التاريخ في الشرق الأدنى، فقد قلت إنك مهتمة بالموضوع بشغف.

تنهدت جين وقالت: إن العمل كسكرتيرة لديك ليس ورداً ورياحين. هل من شيء آخر؟

- نعم. لقد قلت بأنك تخيطين الأزرار وترتقين الجوارب بمنتهى الكمال.

- وهل عليّ أن أبرهن على ذلك غداً أيضاً؟

- ربما كان من الأفضل أن يكتفوا بشهادتي!

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث والعشرون

آن موريسو

في العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي دخل السيد فورنييه المكتئب إلى غرفة جلوس بوارو وصافحه بحرارة. كان أسلوبه أكثر حيوية بكثير من المعتاد وهو يقول: لديّ شيء أريد أن أخبرك به. أعتقد أنني وجدت أخيراً السبب الذي تساءلتَ عنه في لندن بخصوص العثور على أنبوب النفخ.

أشرقت أسارير بوارو، فيما تناول فورنييه كرسياً وقال: نعم؛ لقد فكرت طويلاً فيما قلتَه وحدثت نفسي مراراً وتكراراً قائلاً: من المستحيل أن تكون الجريمة قد ارتُكبت كما نعتقد. وأخيراً، أخيراً رأيت علاقة بين تكراري لتلك العبارة وبين ما قلته أنت حول العثور على الأنبوب.

أصغى بوارو باهتمام دون أن يقول شيئاً، وتابع فورنييه: لقد قلتَ في لندن في ذلك اليوم: لماذا عُثِر على أنبوب النفخ في حين كان يمكن بسهولة تمريره من فتحة التهوية ورميه خارجاً؟ وأظن أنني أملك الجواب الآن، فقد تمّ العثور على الأنبوب لأن القاتل أراد أن نعثر عليه.

هتف بوارو: برافو.

- ذلك كان ما عنيتَه إذن؟ حسناً، لقد فكرت بذلك، ثم قطعت خطوة أخرى إلى الأمام، فقد سألت نفسي: لماذا أراد القاتل أن نعثر على الأنبوب؟ وقد وجدت الجواب: لأن أنبوب النفخ لم يُستعمَل.

- برافو، برافو. إنه نفس تحليلي تماماً.

- قلت لنفسي: لقد تمّ استخدام السهم المسموم، نعم، ولكن ليس بأنبوب النفخ. أي أن شيئاً آخر قد استُعمل لإطلاق ذلك السهم في الهواء، شيئاً يمكن للرجل (أو المرأة) أن يضعه بين شفتيه بشكل طبيعي دون أن يثير أية ملاحظة، وتذكرت إصرارك على قائمة كاملة بكل ما في أمتعة المسافرين وفي جيوبهم، فكان فيها شيئان جذبا انتباهي بشكل خاص. فالليدي هوربوري لديها مبسما سكائر، وعلى المائدة أمام السيدين دوبون عدد من المزامير الكردية.

توقف السيد فورنييه ونظر إلى بوارو، ولكن بوارو لم يتكلم، فأكمل حديثه: وكلا هاتين الأداتين يمكن أن توضع بشكل طبيعي بين الشفاه دون أن يلحظ الأمرَ أحدٌ. أنا على حق، أليس كذلك؟

تردد بوارو قليلاً ثم قال: إنك على المسار الصحيح، بلى، ولكن استمر قليلاً، ولا تنسَ الزنبور.

حدق فورنييه وقال: الزنبور؟ لا، في هذه النقطة لم أعد أفهم. لا أستطيع أن أرى مكاناً للزنبور هنا.

بوارو: لا تستطيع أن ترى؟ ولكنني في هذه النقطة...

ثم توقف بسبب رنين الهاتف ورفع السماعة قائلاً: نعم، آه،

صباح الخير. نعم، أنا هو بنفسه، هيركيول بوارو. نعم يا سيد تيبو، نعم، بخير، وأنت؟ السيد فورنييه؟ هذا صحيح، لقد وصل. إنه هنا.

ثم خفض سماعة الهاتف وقال لفورنييه: لقد حاول العثور عليك في دائرة الأمن وأخبروه أنك جئت لتراني هنا. من الأفضل أن تكلمه فإنه يبدو منفعلاً.

أخذ فورنييه السماعة: نعم، فورنييه يتكلم. ماذا... هل هذا صحيح؟ نعم، بالفعل، أنا واثق أنه سيأتي. سنأتيك حالاً.

وضع السماعة في مكانها ونظر إلى بوارو قائلاً: إنها الابنة، ابنة مدام جيزيل.

هتف بوارو: ماذا؟!

- لقد وصلت لتطالب بميراثها.

- ومن أين أتت؟

- من أمريكا كما فهمت، وقد طلب منها تيبو أن تعود إليه في الحادية عشرة والنصف، وهو يقترح أن نذهب لرؤيته.

- بكل تأكيد، سنذهب في الحال. سوف أترك ملاحظة للآنسة غري.

ثم كتب: "لقد جدَّتْ تطورات أجبرتني على الخروج. إذا اتصل السيد دوبون أو مرّ هنا فكوني وَدودة معه. تحدثي معه عن الأزرار والجوارب، ولكن ليس عن فخّار ما قبل التاريخ فالأوان لم يَئِن بعد. إنه معجب بك ولكنه ذكي. إلى اللقاء، هيركيول بوارو".

قال: والآن لنذهب يا صديقي، فهذا ما كنت أنتظره؛ أن

تدخل إلى خشبة المسرح الشخصية الغائبة التي كنت أحس بوجودها طوال الوقت. عليّ أن أفهم بسرعة كل شيء.

* * *

استقبلهما المحامي تيبو بكل ود، وبعد تبادل التحيات والأسئلة والأجوبة المؤدبة جلس المحامي للمناقشة بشأن وريثة المدام جيزيل. قال: لقد استلمتُ رسالة أمس، وفي هذا الصباح زارتني السيدة الشابة بنفسها.

بوارو: كم عمر الآنسة موريسو؟

- إنها السيدة موريسو، أو بالأحرى السيدة ريتشاردز؛ فهي متزوجة، وهي في الرابعة والعشرين من عمرها.

فورنييه: وهل أحضرت وثائق تثبت شخصيتها؟

- بالتأكيد، بالتأكيد.

ثم فتح ملفاً أمامه وأخرج وثيقة وقال: ها هي أولاً هذه الوثيقة.

كانت الوثيقة نسخة عن عقد زواج بين جورج ليمان الأعزب وماري موريسو، كلاهما من كويبك في كندا، وكان تاريخها عام ١٩١٠. كما كان هناك أيضاً شهادة ميلاد آن موريسو ليمان ووثائق وأوراق مختلفة أخرى.

فورنييه: هذا يلقي ضوءاً على ماضي المدام جيزيل.

هزّ تيبو رأسه وقال: بقدر ما استطعت تخمينه فإن ماري موريسو كانت إما مربية أطفال أو خيّاطة عندما التقت بذلك الرجل

ليمان، ويبدو أنه كان رجلاً سيئاً سرعان ما هجرها بعد الزواج مباشرة، فاستعادت لقب عائلتها. وقد تم قبول الطفلة في معهد ماري في كويبك حيث نشأت هناك، أما ماري موريسو نفسها فقد تركت كويبك بعد ذلك بوقت قصير وجاءت إلى فرنسا، وكانت تحوّل إلى المعهد مبالغ من المال من وقت لآخر، وأخيراً أرسلت مبلغاً كبيراً من المال ليُعطى للطفلة عند بلوغها الواحدة والعشرين. في ذلك الوقت كانت ماري موريسو تعيش حياة مضطربة كما يبدو، وفكرت بأن من الأفضل قطع كل علاقاتها الشخصية.

فورنييه: وكيف أدركت الفتاة بأنها وريثة ثروة طائلة؟

تيبو: لقد وضعنا إعلانات مدروسة في صحف عديدة، ويبدو أن إحدى هذه الإعلانات قد جذبت انتباه مديرة معهد ماري فكتبت (أو أبرقت) إلى السيدة ريتشاردز، وكانت وقتها في أوروبا وتوشك أن تغادر عائدة إلى أمريكا.

فورنييه: ومن هو ريتشاردز؟

تيبو: فهمت أنه أمريكي أو كندي، أما مهنته فهو مصنّع لأدوات الجراحة.

بوارو: ألم يرافق زوجته؟

تيبو: يبدو أنه ما يزال في أمريكا.

بوارو: وهل تستطيع السيدة ريتشاردز أن تلقي أي ضوء على السبب المحتمَل لمقتل والدتها؟

هزّ المحامي رأسه بالنفي وقال: إنها لا تعرف شيئاً عنها، بل إنها لا تذكر حتى اسم عائلة والدتها قبل الزواج، مع أنها سمعت

المديرة تذكره ذات مرة.

فورنييه: يبدو أن ظهورها على مسرح الأحداث لن يكون له أي نفع في حل لغز الجريمة. وعليّ أن أعترف بأنني لا أقول ذلك لأنني توقعت شيئاً من هذا القبيل، فأنا في الوقت الحاضر أتابع مساراً مختلفاً تماماً في التحقيق، وقد تركّزَت تحرياتي حتى انحصرت بثلاثة أشخاص فقط.

بوارو: أربعة.

فورنييه: أتظن أنهم أربعة؟

بوارو: لست أنا من يقول ذلك، ولكن -بناء على النظرية التي قدمتَها لي- لا يمكنك أن تقتصر على ثلاثة أشخاص. مبسما السجائر، والمزامير الكردية، وآلة الفلوت الموسيقية. تذكّر الفلوت يا صديقي.

بدرت من فورنييه إشارة دهشة وتعجب، ولكن في تلك اللحظة فُتح الباب وتمتم موظف عجوز: لقد عادت السيدة.

قال تيبو: الآن ستستطيعان رؤية الوريثة بنفسيكما. تفضلي يا سيدتي، أقدم لك السيد فورنييه من جهاز الأمن، وهو المسؤول هنا عن التحقيقات في مقتل والدتك. وهذا هو السيد هيركيول بوارو. ربما كان اسمه مألوفاً لك، وهو يقوم مشكوراً بمساعدتنا. السيدة ريتشاردز.

كانت ابنة جيزيل شابة سمراء، وكانت أنيقة جداً رغم بساطة ملابسها. مدّت يدها إلى كلا الرجلين وهي تغمغم بعبارات الثناء، ثم قالت: أخشى أنني لا أكاد أشعر بمشاعر الابنة في هذه القضية أيها السادة، فقد كنت يتيمة طوال حياتي.

وجواباً على أسئلة فورنييه تحدثت الشابة بحرارة وامتنان عن الأم أنجيليك، مديرة معهد ماري، ثم قالت: لقد كانت دوماً عنوان اللطف بالنسبة لي.

بوارو: متى تركت ذلك المعهد يا سيدتي؟

- وأنا في الثامنة عشرة حين بدأت أكسب لقمة عيشي. لقد عملت فترة من الوقت في صالون تجميل، كما عملت في مؤسسة لصنع الملابس. وقد التقيت بزوجي في مدينة نيس، وكان على وشك العودة إلى أمريكا. ثم عاد ثانية في زيارة عمل إلى هولندا فتزوجنا في روتردام منذ شهر مضى. وقد اضطر -مع الأسف- إلى العودة إلى كندا وبقيت أنا هنا، ولكني سأتبعه قريباً.

كانت آن ريتشاردز تتحدث بلغة فرنسية طليقة متمكنة، وبدا أنها فرنسية أكثر منها إنكليزية.

فورنييه: كيف سمعت بالمأساة؟

- قرأت عنها في الصحف بالطبع، ولكنني لم أعرف، أي لم أدرك بأن الضحية في هذه القضية كانت والدتي. ثم استلمت برقية هنا في باريس من الأم أنجيليك فيها عنوان المحامي تيبو، وقد ذكّرتني بالاسم الذي كانت والدتي تحمله قبل زواجها.

هزّ فورنييه رأسه مفكراً، وتبادلت المجموعة مزيداً من الحديث، ولكن بدا واضحاً أن السيدة ريتشاردز لم تكن ذات عون كبير في البحث عن القاتل، فهي لم تكن تعرف أبداً أي شيء عن حياة والدتها أو علاقات عملها. وأخيراً استأذنها بوارو وفورنييه في المغادرة بعد أن أخذا اسم الفندق الذي تقيم فيه.

❊ ❊ ❊

قال فورنييه: يبدو أنك تشعر بخيبة أمل يا صديقي، فهل كان في عقلك فكرة ما عن هذه الفتاة؟ هل شككت بأنّها قد تكون محتالة؟

هزّ بوارو رأسه كمن ثبطت همته وقال: لا، لا أظن أنها محتالة؛ فإثباتات الهوية التي قدمتها تبدو أصلية حقيقية بما فيه الكفاية. ولكن الغريب أنني أشعر بأنني رأيتها من قبل أو أنها تذكرني بإنسان ما...

قال فورنييه بارتياب: أيمكن أن يكون شبهاً بأمها القتيلة؟

- لا، ليس هذا. أتمنى لو أستطيع أن أتذكر ذلك؛ أنا واثق من أن وجهها يذكّرني بامرأة ما.

نظر إليه فورنييه باستغراب وقال: أظن أنك كنت مهتماً بهذه الابنة المفقودة منذ البداية.

أجابه بوارو وقد ارتفع حاجباه قليلاً: هذا طبيعي، فمن بين كل الناس الذين يمكن أن يستفيدوا (أو لا يستفيدوا) من موت جيزيل، تتميز هذه الشابة بأنها تستفيد فعلاً وبشكل مؤكد ونقداً وعدّاً.

فورنييه: صحيح، ولكن هل يفيدنا ذلك في شيء؟

لم يُجِب بوارو لبعض الوقت، فقد كان يتابع سلسلة أفكاره الخاصة، وأخيراً قال: يا صديقي، إن ثروة ضخمة جداً انتقلت إلى هذه الفتاة، فهل تستغرب أنني فكرت منذ البداية بإمكانية كونها معنية بالجريمة؟ لقد كان على متن تلك الطائرة ثلاث نسوة وكانت إحداهن (فينيشيا كير) تنحدر من أسرة عريقة مشهورة، ولكن ماذا عن الاثنتين الأخريين؟ منذ أن عرضَت الخادمة إليس غرانديه نظريتها القائلة بأن زوج مدام جيزيل كان إنكليزياً وضعتُ في ذهني إمكانية كون إحدى المرأتين الأخريين هي ابنة جيزيل. وقد كانت

المرأتان كلتاهما في عمر يسمح بهذا الافتراض. لقد كانت الليدي هوربوري فتاة في كورس غنائي، وهي ذات ماض غامض بعضَ الشيء، وكانت تعمل وتنتحل اسماً فنياً غير حقيقي. أما الآنسة جين غري فقد نشأت في مأوى للأيتام، هي نفسها أخبرتني بذلك ذات مرة.

- آه، إذن ففي هذا الاتجاه كان عقلك يتجه؟ لو سمعك صديقنا جاب لقال إنك تبالغ في براعتك.

- صحيح؛ إنه يتهمني دائماً بأنني أفضّل تعقيد الأمور.

- أرأيت؟

- ولكن هذا ليس صحيحاً في الواقع، فأنا أتقدم بأبسط أسلوب يمكن تخيّله، كما أنني لا أرفض قبول الحقائق.

- ولكنك تشعر بخيبة الأمل؟ لقد توقعت شيئاً من آن موريسو هذه، أليس كذلك؟

في تلك اللحظة كانا يدخلان إلى فندق بوارو، ورأى فورنييه على مكتب الاستقبال شيئاً ما ذكّره بأمر كان بوارو قد قاله صباح اليوم، فاستدرك قائلاً: إنني لم أشكرك على جذب انتباهي إلى الخطأ الذي ارتكبته، فقد انتبهت لمبسمي السجائر الخاصين بالليدي هوربوري والمزامير الكردية الخاصة بالسيدين دوبون، ولكنّ ما لا يمكن غفرانه لي هو نسياني آلة الفلوت الخاصة بالدكتور برايانت، مع أنني لا أشك فيه في الواقع.

سأله بوارو: لا تشك فيه؟

فورنييه: نعم، إنه لا يبدو لي من ذلك النوع من الرجال.

توقف عن كلامه، والتفت الرجل الذي كان يقف أمام مكتب الاستقبال متحدثاً إلى الموظف، التفت ويده على علبة آلة الفلوت. وقعت عيناه على بوارو وانفرجت أساريره بوقار لتعرّفه إلى بوارو.

تقدم بوارو، وانسحب فورنييه بحذر إلى الخلف بحيث لا يراه برايانت. انحنى بوارو قائلاً: الدكتور برايانت؟

- السيد بوارو؟

تصافح الرجلان في حين انطلقت نحو المصعد امرأة كانت تقف قرب برايانت، وقد رمقها بوارو بنظرة سريعة.

بوارو: حسناً يا سيدي الطبيب، هل يتدبر مرضاك أمورهم بدونك؟

ابتسم الدكتور برايانت ابتسامته الكئيبة الجذّابة التي يتذكرها بوارو جيداً. بدا متعباً ولكنه بدا أيضاً مطمئناً بشكل غريب. قال: ليس لديّ مرضى الآن؛ لقد تقاعدت.

- قرار مفاجئ؟

- ليس مفاجئاً كثيراً.

صمت قليلاً ثم قال: "إنه قرار ضروري. لقد استقلت بملء إرادتي الحرّة قبل أن يُشطَب اسمي من سجلّ الأطباء". ثم مضى يتحدث بصوت عذب كأنه قادم من بعيد: تأتي على كل إنسان نقاط تحول في حياته -يا سيد بوارو- يقف فيها على مفترق طرق، وعليه أن يقرر. إنني أحب مهنتي كثيراً وتركُها أمر مؤسف، مؤسف جداً جداً، ولكن هناك نداءات أخرى، هناك سعادة الإنسان يا سيد بوارو.

لم يتكلم بوارو، بل انتظر. وأكمل الطبيب: هناك امرأة، إحدى مريضاتي، وأنا أحبها حباً جماً. لها زوج يسبب لها شقاء لا حدود له، فهو مدمن مخدرات، ولو كنتَ طبيباً لعرفت ما الذي يعنيه ذلك. وهي لا تملك مالاً ولذلك لا تستطيع تركه. لقد بقيت متحيراً لبعض الوقت دون قرار، ولكنني حزمت أمري الآن. إننا الآن، أنا وهي، في طريقنا إلى كينيا. سوف تطلق من زوجها لنبدأ حياة جديدة، وآمل أن تجد بعض السعادة أخيراً، فقد عانت طويلاً.

صمت مرة أخرى، ثم قال بلهجة أسرع: لقد أخبرتك بذلك لأن الخبر سرعان ما ينتشر يا سيد بوارو، وكلما عرفت بشكل مبكر كان ذلك أفضل.

قال بوارو: "أفهم ذلك"، ثم قال بعد دقيقة: إنك تأخذ آلة الفلوت معك كما أرى؟

ابتسم الدكتور برايانت وقال: إن آلتي هذه هي أقدم رفيق لي يا سيد بوارو.

وربّتت يده بلطف على علبة آلة الفلوت، ثم نهض ونهض بوارو معه وهو يقول: تقبّل أفضل أمنياتي من أجل مستقبلك يا سيدي الطبيب، ومستقبل السيدة أيضاً.

عندما عاد فورنييه لينضم إلى صديقه كان بوارو واقفاً على مكتب الاستقبال يضع الترتيبات لمكالمة هاتفية إلى كويبك.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
ظفر مكسور

صاح فورنييه: وماذا الآن؟ أما زلت منشغلاً بهذه الفتاة الوريثة؟ إن فكرة ثابتة مسبقة هي التي تدفعك الآن.

بوارو: أبداً، أبداً، ولكن ينبغي أن يكون في جميع الأشياء نظامٌ ومنهجية، وعلى المرء أن ينتهي من كل أمر قبل أن يشرع في غيره.

ثم نظر حوله وقال: ها هي الآنسة جين، أرى أن تذهبا لتناول الطعام وسأنضم إليكما حالما أستطيع.

أذعن فورنييه لطلبه وذهب مع جين إلى غرفة الطعام. سألته جين بفضول: حسناً، كيف هو شكلها آن موريسو هذه؟

- أطول قليلاً من المتوسط، سمراء، برونزية البشرة، ذات ذقن مدبب.

- إنك تتكلم كمن يقرأ أوصافاً في جواز سفر. أخبرني: هل هي جميلة؟

أجابها فورنييه بحذر: جميلة بما فيه الكفاية. وهي ليست آن موريسو، بل آن ريتشاردز، فهي متزوجة.

- وهل كان الزوج هناك أيضاً.

- لا.

- عجباً، لماذا؟

- لأنه في كندا أو أمريكا.

ثم شرح لها بعض ظروف حياة آن، وحين أوشك على نهاية حديثه انضم بوارو إليهما. بدا بوارو مغتمّاً قليلاً، فسأله: حسناً يا عزيزي، ماذا وجدت؟

بوارو: تحدثت مع المديرة، مع الأم أنجيليك نفسها. إن التحدث بالهاتف عبر القارات مسألة خيالية فعلاً، أن يتحدث المرء بكل هذه السهولة مع شخص في النصف الآخر من الكرة الأرضية!

فورنييه: الصورة البرقية أمر خيالي أيضاً. ولكن ما الذي كنت تقوله؟

- تحدثت مع الأم أنجيليك، وقد وافق كلامُها تماماً ما أخبرتنا به السيدة ريتشاردز بخصوص ظروف نشأتها في معهد ماري، وتحدثَت بصراحة تامة عن الأم التي غادرت كويبك مع رجل فرنسي كان مهتماً بتجارة المرطبات. وقالت إنها ارتاحت في ذلك الوقت لسفر جيزيل لأن الطفلة لن تقع تحت تأثير والدتها، فمن وجهة نظرها كانت جيزيل تنحدر نحو هاوية سحيقة. وقالت إن النقود كانت تصلها باستمرار، ولكن جيزيل لم تقترح أي لقاء مع ابنتها قط.

- إذن كانت محادثتك معها تكراراً لما سمعناه صباح اليوم؟

- نعم، إلاّ أنها كانت أكثر تفصيلاً. لقد غادرت آن موريسو المعهد منذ ست سنوات لتعمل في صالون تجميل، وبعدها حصلت على عمل كوصيفة لإحدى السيدات، ثم غادرت كويبك أخيراً إلى أوروبا وهي في هذا العمل نفسه. لم تكن رسائلها كثيرة، ولكن الأم أنجيليك اعتادت أن تستلم منها رسائل تزودها بأخبارها مرتين في السنة تقريباً. وعندما قرأت في الصحيفة أخبار حادثة الوفاة التحقيق الذي تبعها أدركت أن ماري موريسو هذه كانت على الأغلب هي ماري موريسو نفسها التي عاشت في كويبك.

- وماذا عن زوج جيزيل؟ الآن وقد عرفنا بصورة قاطعة أن جيزيل كانت متزوجة فربما صار الزوج عنصراً مهماً في القضية.

- لقد فكرت في ذلك، وكان هو أحد أسباب مكالمتي الهاتفية. جورج ليمان، زوج جيزيل الشرير، قُتل في الأيام الأولى للحرب.

وتوقف قليلاً ثم قال فجأة: ما هو الذي قلتُه قبل قليل؟ ليس ملاحظتي الأخيرة بل التي قبلها؟ لديّ انطباع بأنني قلت شيئاً ذا أهمية بالغة دون أن أدري.

أعاد فورنييه بقدر استطاعته ملاحظات بوارو السابقة، ولكن بوارو هزّ رأسه بحيرة ودون اقتناع قائلاً: لا، لا، لم يكن ذلك. حسناً، لا يهم.

* * *

لدى الانتهاء من طعامهم اقترح بوارو عليهم تناول القهوة في قاعة الفندق. وافقت جين ومدّت يدها لتأخذ حقيبتها وقفازها عن الطاولة، وفيما كانت تأخذهما جفلت قليلاً.

سألها بوارو: خيراً يا آنسة؟

قالت جين ضاحكة: آه، لا شيء، مجرد ظفر مثلوم. عليّ أن أبرده.

جلس بوارو مرة أخرى بشكل مفاجئ تماماً وأخذ يتحدث مع نفسه، فحدّق الاثنان إليه بدهشة، وصاحت جين: سيد بوارو؟ ما الأمر؟

قال بوارو: الأمر أنني تذكرت الآن لماذا كان وجه آن موريسو مألوفاً لديّ، فقد رأيتها من قبل... على متن الطائرة في يوم الجريمة. لقد أرسلَتْها الليدي هوربوري لتحضر لها مِبْرد الأظافر. كانت آن موريسو هي وصيفة الليدي هوربوري.

* * *

الفصل الخامس والعشرون

إنّي خائف!

كان لهذا الاكتشاف المفاجئ وقعُ الصاعقة على الثلاثة الذين سمّرهم الكشف حول طاولة الغداء؛ لقد فتح هذا الكشف آفاقاً جديدة لهذه القضية؛ فبدلاً من اعتبار آن موريسو شخصاً بعيداً كلياً عن المأساة ظهر الآن أنها كانت في مسرح الجريمة عملياً، وقد احتاج كل من الثلاثة إلى دقيقة أو دقيقتين لإعادة ترتيب أفكارهم.

أبدى بوارو إشارة محمومة هائجة من يده، وقد أغلق عينيه وتلون وجهه بالأسى وهو يقول متوسلاً: دقيقة واحدة، دقيقة فقط؛ عليّ أن أفكر وأرى وأدرك كيف يؤثر ذلك في أفكاري حول هذه القضية. عليّ أن أعود بعقلي، أن أتذكر... تباً لمعدتي التعيسة، فقد كنت منشغلاً بها!

فورنييه: إذن فقد كانت على متن الطائرة بالفعل؟ لقد فهمت، بدأت أفهم.

قالت جين: "أنا أتذكرها، كانت فتاة طويلة سمراء". أغمضت عينيها نصف إغماضة في محاولة للتذكر، ثم قالت: مادلين، لقد أسمتها الليدي هوربوري باسم مادلين.

بوارو: بالضبط، مادلين.

جين: أرسلتها الليدي هوربوري إلى آخر الطائرة لتحضر حقيبة، حقيبة زينة أرجوانية اللون.

فورنييه: هل تعنين بأن هذه الفتاة قد مرّت تماماً بمحاذاة المقعد الذي تجلس عليه والدتها؟

جين: هذا صحيح.

تنهد فورنييه عميقاً وقال: الدافع والفرصة السانحة... نعم، كل العناصر اجتمعت.

وبشدّة مفاجئة لا تنسجم أبداً مع أسلوبه الكئيب المعتاد ضرب فورنييه قبضته على الطاولة وصاح: ولكن لماذا لم يذكر أحدٌ اسمَها من قبل؟ لماذا لم تُدرَج في عداد المشتبه فيهم؟

قال بوارو بسأم: لقد قلت لك يا صديقي، قلت لك، بسبب معدتي التعيسة.

فورنييه: نعم، نعم، هذا مفهوم. ولكن كان هناك آخرون لم يصب الدّوارُ مِعَدهم بالغثيان. المضيفان والمسافرون الآخرون.

جين: أظن أن السبب هو أن آن ظهرت في المقصورة في وقت مبكر جداً من الرحلة. كانت الطائرة قد غادرت مطار لوبورجيه لتوّها، وكانت جيزيل حية وعلى أحسن ما يرام بعد ساعة تقريباً من ذلك. بدا الأمر وكأنها قد قُتلت في وقت متأخر.

قال فورنييه وهو يفكر: غريب! أيمكن أن يكون للسمّ مفعول مؤجَّل؟ تحدث أمور كهذه أحياناً.

تأوّه بوارو وأسقط رأسه بين كفيه قائلاً: يجب أن أفكر، يجب

أن أفكر. أيمكن أن تكون أفكاري مخطئة تماماً كل الوقت؟

فورنييه: يا عزيزي، إن مثل هذه الأمور تحدث أحياناً. إنها تحدث لي، وربما تكون قد حدثت لك. على المرء أن يبتلع كبرياءه أحياناً ويعدّل أفكاره من جديد.

بوارو: هذا صحيح، ربما كنتُ قد أوليت أهمية كبرى لأمر واحد بعينه طَوال هذه المدة. توقعت أن أعثر على مؤشر معين، وقد وجدته وبنيت عليه نظريتي كلها. ولكنني إذا كنت مخطئاً منذ البداية، وإذا كان ذلك الشيء المعيّن موجوداً حيث وجدته فلماذا إذن... نعم، سأعترف بأنني كنت مخطئاً تماماً.

- إنك لا تستطيع أن تغض النظر عن هذا التطور الكبير للأحداث، فلدينا هنا الدافع والفرصة المواتية. ما الذي تريده أكثر من ذلك؟

- لا شيء، لا بد أن الأمر كما تقول. إن مسألة المفعول المؤجَّل للسم مسألة استثنائية غريبة حقاً، ويمكن للمرء القول إنها مستحيلة عملياً، ولكن عندما يتعلق الأمر بالسموم يصبح المستحيل ممكناً. على المرء أن يحسب حساباً لخصائص السموم.

- علينا أن نناقش خطة عمل. أظن أنه لن يكون من الحكمة أن نثير شكوك آن موريسو في الوقت الراهن، فهي لا تدرك أنك قد تعرفت إليها. لقد تمّ قبول روايتها، ونحن نعرف الفندق الذي تقيم فيه ونستطيع الاستمرار بالاتصال بها بواسطة تيبو. وبالإمكان دوماً تأخير الإجراءات القانونية الرسمية. لدينا الآن نقطتان محسومتان: الفرصة والدافع، وما زال علينا أن نثبت أنّ لدى آن موريسو سمومَ الأفاعي. وهناك أيضاً مسألة الأمريكي الذي اشترى أنبوب النفخ

وقام برشوة جول بيرو موظف الخطوط الجوية، وربما كان ذلك زوجها ريتشاردز، فما من دليل على أنه في كندا إلاّ كلمتها هي التي ادّعت فيها ذلك.

صاح بوارو: كما قلت... الزوج. نعم، الزوج. آه، انتظر، انتظر!

ضغط بوارو بيديه على صدغيه وتمتم قائلاً: كل ذلك خطأ. إنني لا استعمل الخلايا الرمادية الصغيرة في دماغي بطريقة منظمة ومنهجية، نعم، أنا أقفز إلى النتائج بسرعة، وربما كنت أفكر بما يريدني الآخرون أن أفكر فيه. لا ينبغي أن أُجَرّ إلى التفكير...

وتوقف فجأة فقالت جين: عفواً، ماذا كنت تقول؟

لم يجب بوارو للحظات، ثم رفع يديه عن صدغيه ورتّب بشكل مستقيم شوكتين كانتا تزعجان إحساسه بالتناسق. ثم قال: لنحاكم الموضوع عقلياً. إما أن تكون آن موريسو مذنبة أو بريئة من هذه الجريمة، فإن كانت بريئة فلماذا كذبت؟ لماذا أخفت حقيقة أنها وصيفة الليدي هوربوري؟

فورنييه: فعلاً، لماذا؟

بوارو: وهكذا فإننا نقول بأن آن موريسو مذنبة لأنها كذبت. ولكن انتظر، إذا افترضنا بأن افتراضي الأول كان صحيحاً: هل كان ذلك الاتفاق يلائم وينسجم مع ذنب آن موريسو أم مع كذبتها؟ نعم، نعم، كان يمكن أن ينسجم لو تحقق افتراض واحد. ولكن في هذه الحالة (وإذا كان الافتراض صحيحاً) فإن آن موريسو لا يمكن أن تكون على متن الطائرة إطلاقاً.

نظر الآخران إليه بأدب، رغم ما في نظراتهما من اهتمام

روتيني لا حماسة فيه. وفكر فورنييه قائلاً لنفسه: أستطيع أن أفهم الآن ما قصده الإنكليزي جاب. إن هذا العجوز مولع بتعقيد الأمور! إنه يسعى الآن لتصوير قضية واضحة بحيث تبدو معقَّدة. لا يستطيع قبول حل مباشر مستقيم دون أن يدّعي بأنه يتلاءم وينسجم مع أفكاره المسبقة.

وفكرت جين: إنني لا أفهم ما يعنيه. لماذا لا يمكن للفتاة أن تكون على متن الطائرة؟ إن عليها أن تذهب حيث تأمرها الليدي هوربوري أن تذهب... أظن أنه دجال حقاً.

فجأة سحب بوارو نَفَساً قوياً ثم قال: إنه احتمال بالطبع، وينبغي أن يكون التأكد منه أمراً بسيطاً جداً.

ونهض فقال فورنييه: ماذا الآن يا صديقي؟

بوارو: الهاتف مرة أخرى.

- عبر القارات إلى كويبك؟

- بل هي مكالمة إلى لندن ليس أكثر.

- مع إدارة سكوتلنديارد؟

- لا، بل مع الليدي هوربوري في بيتها.

- كن حذراً يا صديقي. إن تسرّب أي شك إلى آن موريسو بأننا نقوم ببعض التحريات عنها لن يخدم قضيتنا، فعلينا قبل كل شيء أن لا ندفعها إلى الاحتراس منا.

- لا تخف، سأكون حذراً كَتوماً. سوف أسأل سؤالاً واحداً فقط، سؤالاً ذا طبيعة بريئة تماماً.

ثم ابتسم لصديقه وقال: ستأتي معي إذا سمحت.

- لا.

- بلى، أُصرّ على ذلك.

مضى الرجلان وتركا جين في الصالة. مرّ بعض الوقت حتى أمكن تأمين الاتصال، وكان بوارو محظوظاً، فقد كانت الليدي هوربوري تتغدى في بيتها.

بوارو: حسناً، هل لك أن تخبر الليدي هوربوري بأن هيركيول بوارو يريد الحديث معها من باريس؟

ساد بعض الصمت، ثم: هذه أنت يا سيدتي؟ لا، لا، كل شيء على ما يرام. أؤكد لك أن كل شيء على ما يرام، ليس هذا الموضوع. أريد منك أن تجيبيني عن سؤال، نعم، عندما تسافرين من فرنسا إلى إنكلترا جواً هل تسافر وصيفتك معك عادة أم تسافر بالقطار؟ بالقطار... وكذلك كان الأمر في تلك الرحلة المحددة... فهمت، أأنت واثقة؟... آه، تركَتْكِ... فهمت، تركتك بشكل مفاجئ قبل قليل... نعم، نكران جميل فظيع! هذا صحيح تماماً، إنها طبقة لا تعرف عرفان الجميل!... نعم، نعم، بالضبط... لا، لا تقلقي. وداعاً، شكراً.

ردّ سماعة الهاتف والتفت إلى فورنييه وعيناه تشعّان اخضراراً وقال: اسمع يا صديقي، إن وصيفة الليدي هوربوري تسافر عادة بالقطار، وفي تلك المرة التي قُتلت فيها جيزيل قررت الليدي هوربوري -في آخر دقيقة- بأن من الأفضل أن تسافر مادلين جواً أيضاً.

ثم أمسك بذراع صديقه الفرنسي وقال: بسرعة يا صديقي،

يجب أن نذهب إلى فندقها. إن كانت فكرتي الصغيرة صحيحة (وأنا أظنها كذلك) فليس لدينا وقت نضيّعه.

حدق فورنييه إليه، وقبل أن يتمكن من صياغة سؤاله اتجه بوارو إلى الباب الدوّار الذي يفضي إلى الشارع. هرول فورنييه خلفه قائلاً: ولكنني لا أفهم شيئاً، ما كل هذا؟

فتح المفوّض الفرنسي باب سيارة الأجرة، وقفز بوارو داخلها وأعطى السائق عنوان فندق آن موريسو قائلاً له: امضِ بسرعة، بكامل سرعتك!

قفز فورنييه إلى السيارة وقال: ما هذا العفريت الذي ركبك؟ لماذا هذا الاندفاع المجنون والعجلة؟

بوارو: يا صديقي، إن كانت فكرتي الصغيرة صحيحة كما قلت فإن آن موريسو في خطر عظيم.

- هل تعتقد ذلك؟

قال فورنييه عبارته وهو لا يستطيع منع نبرة الشك من التسلل إلى صوته. قال بوارو: إني خائف، خائف. يا إلهي كيف تزحف هذه السيارة زحفاً!

كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة وتقطع إشارات المرور وتنسلّ بين السيارات، وكانت معجزة عدم اصطدامها تُعزى إلى عين سائقها الخبيرة. قال فورنييه: إنها تزحف إلى الحد الذي توشك فيه أن توقعنا في حادث مروع. والآنسة غري؟ لقد تركناها مزروعة تنتظر عودتنا من المكالمة الهاتفية، وبدلاً من ذلك غادرنا الفندق ولم نقل لها كلمة واحدة. ليس ذلك من اللباقة في شيء.

- لباقة أو عدم لباقة، ما أهمية ذلك في قضية حياة أو موت؟

- حياة أو موت؟

رفع فورنييه كتفيه استهجاناً وأخذ يفكر مع نفسه: الأمور كانت تسير على أفضل وجه، ولكن هذا المجنون العنيد قد يعرض عملنا كله للخطر، فما إن تشعر الفتاة بأننا نبحث في إثرها...

ثم قال بصوت مقنع لبوارو: اسمع الآن يا سيد بوارو، كن معقولاً. ينبغي أن نتصرف بحذر.

بوارو: إنك لا تفهمني. أنا خائف، خائف!

توقفت سيارة الأجرة بعنف أمام الفندق الساكن الهادئ الذي تقطنه آن موريسو. قفز بوارو من السيارة وكاد يصطدم بشاب كان يغادر الفندق لتوه، وقف بوارو مصعوقاً لحظةً ينظر إلى الشاب مبتعداً ثم قال: وجه آخر أعرفه، ولكن أين؟ آه، تذكرت، إنه الممثل ريموند باراكلاف.

وعندما تقدم ليدخل الفندق وضع فورنييه يده على ذراعه وقال: سيد بوارو، إنني أُكِنّ أعظم احترام وأعظم إعجاب بوسائلك، ولكنني أشعر بقوة بأنه لا ينبغي اتخاذ أي إجراء متهوّر. إنني مسؤول هنا في فرنسا عن سير هذه القضية...

قاطعه بوارو قائلاً: إنني أفهم قلقك، ولكن لا تخف من أي إجراء متهوّر من قبلي. دعنا نتحرك إلى مكتب الاستعلامات، وإذا كانت السيدة ريتشاردز هنا وكل شيء على ما يرام فلن يحدث أي ضرر ونستطيع أن نناقش معاً إجراءاتنا التالية. لا أظنك تعارض ذلك؟

فورنييه: نعم، نعم، بالطبع.

بوارو: حسناً.

مرّ بوارو عبر الباب الدوار واتجه إلى مكتب الاستقبال وتبعه فورنييه. سأل بوارو: لديكم نزيلة هنا اسمها السيدة ريتشاردز كما أعتقد؟

موظف الاستقبال: لا يا سيدي. كانت تقيم هنا ولكنها غادرت اليوم.

فورنييه: غادرت؟

الموظف: نعم يا سيدي.

فورنييه: متى غادرت؟

نظر الموظف إلى الساعة الجدارية وقال: قبل أكثر من نصف ساعة بقليل.

بوارو: هل كانت مغادرتها غير متوقعة؟ أين ذهبت؟

تصلب موقف الموظف إزاء الأسئلة وأصبح مَيّالاً إلى رفض الإجابة، ولكن عندما أبرز فورنييه هويته غيّر الموظف من لهجته وأصبح متلهفاً لإبداء أية مساعدة يستطيع تقديمها. قال إن السيدة لم تترك عنواناً وإنه يعتقد أن رحيلها كان نتيجة تغيير مفاجئ في خططها. كانت قد قالت سابقاً بأنها ستمكث نحو أسبوع.

وانهال مزيد من الأسئلة وتمّ استدعاء البَوّاب وحمالي الأمتعة وصبيان المصعد. وأفاد البواب بأن سيداً زارها ليراها، وكانت زيارته في أثناء غيابها ولكنه انتظر عودتها، ثم تناولا الغداء معاً. ولدى سؤاله عن مواصفات ذلك السيد أفاد بأنه أمريكي، أمريكي

تماماً، وأنها بدت مدهوشة لرؤيته. وبعد الغداء أصدرت السيدة أمرها بإنزال أمتعتها ووضعها في سيارة أجرة. ولدى سؤالها عن الوجهة التي قصدتها السيارة قال بأنها توجهت إلى محطة الشمال (أو أن ذلك هو الاتجاه الذي أعطته لسائق السيارة على الأقل) وأنها ذهبت بمفردها ولم يذهب الرجل الأمريكي معها.

فورنييه: محطة الشمال؟ هذا يعني السفر إلى إنكلترا في الظاهر، قطار الساعة الثانية. ولكنه قد يكون تضليلاً. ينبغي أن نتصل بمحطة مدينة بولون وأن نحاول أيضاً العثور على سيارة الأجرة تلك.

بدا وكأن مخاوف بوارو قد انتقلت إلى فورنييه، فقد أصبح وجهه قلقاً وسرعان ما بدأ بتشغيل «ماكينة القانون» لتقوم بمهام البحث.

* * *

كانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء عندما رفعت جين (التي كانت جالسة تقرأ في بهو الفندق) بصرها لترى بوارو مقبلاً عليها. فتحت فمها عاتبة مؤنِّبة، ولكن الكلمات لم تخرج، فقد منعها شيء في وجه بوارو. سألت بتردّد: ما الأمر؟ هل حدث شيء؟

نظر إليها بوارو بعمق وقال: إن الحياة فظيعة جداً يا آنستي.

شيء في نبرته جعل جين تشعر بالخوف، فقالت ثانية: ما الأمر؟

أجابها بوارو ببطء: عندما وصل القطار إلى بولون (حيث تُستَقَلّ المراكب إلى إنكلترا) وجدوا امرأة في مقصورة الدرجة الأولى، وكانت ميتة.

غاض الدم في وجه جين وصاحت: آن موريسو؟

- آن موريسو، نعم. وكانت في يدها زجاجة صغيرة زرقاء تحتوي على مادة الهايدروسيانيد السامة.

- آه، انتحار؟

لم يجبها بوارو لبرهة، ثم قال بأسلوبِ مَن ينتقي كلماته بحذر: نعم، يظن رجال الشرطة بأنه كان انتحاراً.

- وأنت؟

مدّ بوارو يديه ببطء في إشارة معبّرة وقال: وماذا نظن غير ذلك؟

- ولماذا تقتل نفسها؟ بسبب الندم؟ أم لأنها خافت من انكشاف أمرها؟

هزّ بوارو رأسه بحيرة وقال: تكون الحياة أحياناً فظيعة جداً. يحتاج المرء إلى كثير من الشجاعة.

- ليقتل نفسه؟ نعم، أعتقد أن المرء يحتاج إلى الشجاعة من أجل ذلك.

- وأيضاً ليعيش؛ يحتاج المرء إلى الشجاعة ليعيش.

* * *

الفصل السادس والعشرون
حديث بعد العشاء

في اليوم التالي غادر بوارو باريس، وتخلّفت جين بعده مع قائمة من الواجبات كان عليها أن تؤديها، وكانت معظم تلك الواجبات تبدو غير ذات معنى، ولكنها نفذتها بأفضل ما يمكنها: قابلت جان دوبون مرتين، وذكر لها البعثة التي كانت ستنضم إليها، ولم تجرؤ جين على كشف الحقيقة له دون إذن بوارو، ولذلك تهربت من الموضوع قدر استطاعتها وحولت الحديث إلى مسائل أخرى.

بعد خمسة أيام تمّ استدعاؤها إلى إنكلترا برقياً. استقبلها نورمان في محطة فكتوريا، وناقش الاثنان الأحداث الأخيرة.

لم يُمنَح موضوع الانتحار إلاّ تغطية إعلامية ضئيلة، حيث وردت فقرة في الصحف تقول: «سيدة كندية اسمها السيدة ريتشاردز انتحرت في قطار باريس-بولون»، ولم يرد مزيد على ذلك، ولم تُذكَر أية علاقة للحادثة بجريمة الطائرة.

مال نورمان وجين إلى الابتهاج والارتياح، فقد بدا بأن مشكلاتهما كانت تقترب من نهايتها، ولكن نورمان لم يكن متفائلاً

كما كانت جين، وقد قال: ربما شكّوا بأنها هي التي قتلت أمها، أما الآن وبعد أن أقدمت على الانتحار فقد لا يكلفون أنفسهم عناء المضي في القضية. وما لم تثبت صحة ذلك علناً فإنني لا أرى أي فائدة ترتجى لنا نحن الضحايا المساكين، فمن وجهة نظر الجمهور سنبقى موضع شك كما كنا سابقاً.

وقد قال الشيء نفسه لبوارو الذي التقاه بعد خمسة أيام في ساحة البيكاديلي، فابتسم بوارو وقال: أنت ككل الباقين، تعتقد بأنني عجوز لا يستطيع تحقيق شيء! اسمع، ستأتي الليلة إلى العشاء معي. سيأتي جاب وصديقنا السيد كلانسي أيضاً، ولديّ أشياء أقولها مما قد يكون مهمّاً.

* * *

مرّ العشاء بهيجاً. كان جاب حاضر النكتة متفضلاً في أسلوبه، وكان نورمان مهتماً، وكان السيد كلانسي يحسّ بإثارة لا تقل عن الإثارة التي شعر بها عندما رأى الشوكة القاتلة في الطائرة. وقد بدا واضحاً أن بوارو كان يقصد إثارة الكاتب النحيل وإبهاره.

بعد العشاء واحتساء القهوة تنحنح بوارو بشيء من الحرج لا يخلو من مسحة غرور، ثم بدأ حديثه: يا أصدقائي، لقد عبّر السيد كلانسي عن اهتمامه بما يسميه هو وسائلي، أنا واطسن، أليس كذلك يا صديقي؟ وإنني أقترح أن أقدم لكم ملخصاً صغيراً عن وسائلي وطرقي في التعامل مع هذه القضية، إن لم يكن هذا يضجركم جميعاً.

ثم سكت سكوتاً ذا مغزى، فأسرع جاب ونورمان ليهتفا: لا، لا، تكلم فالأمر مثير.

صمت قليلاً وراجع بعض الملاحظات لديه، فهمس جاب لنورمان: إنه مولع بنفسه، أليس كذلك؟ إن الغرور هو الاسم الثاني لهذا الرجل.

نظر بوارو إليه مؤنّباً وقال: احمم!

رَنَت إليه وجوه ثلاثة مهتمّة، فبدأ حديثه: سأبدأ من البداية يا أصدقائي. سأعود إلى الطائرة «بروميثيوس» في رحلتها المشؤومة من باريس إلى كرويدون، وسأخبركم بأفكاري وانطباعاتي الدقيقة منذ ذلك الوقت وصولاً إلى الطريقة التي بدأت فيها بالتأكد من تلك الأفكار أو تعديلها على ضوء الأحداث اللاحقة.

عندما تقدم المضيف إلى الدكتور برايانت قبل وصولنا إلى كرويدون بقليل وذهب الاثنان لفحص الجثة رافقتُ الدكتور، فقد كان لديّ إحساس بأن في الأمر علاقةً بمهنتي. مَن يدري؟ ربما كانت وجهة نظري مِهَنية جداً في موضوع الموت، فحوادث الموت تنقسم عندي إلى قسمين: الوَفَيات التي هي من شأني، والوَفَيات التي لا شأن لي بها. ومع أن القسم الثاني أكثر عدداً ووقوعاً بالتأكيد إلاّ أنني -مع ذلك- كلما صادفت حالة وفاة أصبحت كالكلب الذي يرفع رأسه ويشمشم بحثاً عن أثر.

وقد أكد الدكتور برايانت مخاوف المضيف بأن المرأة ميتة. أمّا سبب الوفاة فكان من الطبيعي أنه لا يستطيع أن يبتّ بشأنه دون إجراء فحص تفصيلي. وفي تلك اللحظة أُثيرَ اقتراح من السيد جان دوبون بأن الوفاة كانت بسبب صدمة أعقبت لسعة زنبور، وفي تأكيد لتلك الفرضية لفت دوبون الانتباهَ إلى زنبور كان هو شخصياً قد قتله قبل قليل من ذلك.

كانت تلك نظرية يمكن قبولها تماماً، فقد كان على رقبة السيدة علامة تشبه كثيراً أثر اللسعة، وكانت لدينا حقيقة أنّ زنبوراً كان داخل الطائرة. ولكنني كنت محظوظاً في تلك اللحظة إذ نظرت إلى الأرض ولمحت ما كان يمكن الانخداع بأنه زنبور آخر، ولكنه كان -في الواقع- شوكة من شوكات بعض القبائل وعليها حرير أصفر وأسود عليه بعض الزغب. وفي هذه الأثناء تقدم السيد كلانسي وصرح بأن تلك كانت شوكة تُطلَق من أنبوب نفخ على طريقة بعض القبائل البدائية، وقد تمّ اكتشاف أنبوب النفخ لاحقاً كما تعلمون جميعاً.

لدى وصولنا إلى كرويدون كانت في رأسي أفكار عديدة، وما إن أصبحت على الأرض الثابتة حتى بدأ عقلي يعمل مرة أخرى بذكائه الاعتيادي.

جاب: هيا يا سيد بوارو، لا داعي للتواضع الزائف.

رماه بوارو بنظرة حادة ثم مضى قائلاً: فكرة واحدة فرضت نفسها عليّ بقوة (وفرضت نفسها على الجميع) وهي الجرأة في ارتكاب جريمة بهذا الأسلوب، والحقيقة المدهشة بأن أحداً لم يلاحظ ارتكابها!

نقطتان أخريان أثارتا اهتمامي: إحداهما الزنبور، والأخرى اكتشاف أنبوب النفخ. وكما أشرت بعد الاستجواب لزميلي جاب: لماذا لم يتخلص القاتل من أنبوب النفخ بتمريره عبر فتحات التهوية في النافذة؟ فربما كان من الصعب التعرف إلى الشوكة نفسها، ولكن الأنبوب الذي لم يزل ملصوقاً عليه جزءٌ من بطاقة سعره كان أمراً مختلفاً تماماً. وماذا كان الجواب؟ من الواضح أن القاتل أراد

لأنبوب النفخ أن يُكتشَف.

ولكن لماذا؟ لم يظهر إلاّ جواب منطقي واحد؛ فإذا ما تم العثور على سهم مسموم وأنبوب نفخ فسوف يُفترَض بشكل طبيعي أن الجريمة قد ارتُكبت بإطلاق شوكة من أنبوب نفخ. ولذلك جزمت بأن جريمة القتل لم تُرتكَب بتلك الطريقة في الواقع. ومن ناحية أخرى فإن سبب الوفاة -كما أثبت الدليل الطبي لاحقاً- كان الشوكة المسمومة دون شك. فسألت نفسي: ما هي أنجح وأوثق طريقة لوضع شوكة مسمومة في الوريد الوِداجي؟ وجاء الجواب على الفور: باليد. وقد ألقى هذا الاستنتاج الضوءَ فوراً على الحاجة إلى اكتشاف الأنبوب، فأنبوب النفخ يعطي انطباعاً محتّماً بالبعد.

إذا كانت نظريتي صحيحة فالشخص الذي قتل مدام جيزيل ذهب مباشرة إلى مائدتها وانحنى نحوها. هل كان هناك شخص كهذا؟ نعم، كان هناك شخصان: المضيفان. كل واحد منهما كان بوسعه أن يذهب إلى مدام جيزيل وينحني فوقها دون أن يلاحظ أحدٌ أيَّ شيء غير طبيعي. هل كان هناك رجل آخر؟

حسناً، كان هناك السيد كلانسي. كان الشخص الوحيد في المقصورة الذي مرّ بمحاذاة مقعد مدام جيزيل تماماً. وتذكرت بأنه هو الذي أشار أولاً إلى نظرية أنبوب النفخ والشوكة.

قفز السيد كلانسي واقفاً وصاح: إنني أحتجّ، أحتجّ، هذه إهانة.

قال بوارو: اجلس، فأنا لم أكمل بعد. عليّ أن أبيّن لكم كل الخطوات التي مررت بها حتى وصلت إلى النتيجة. لديّ الآن ثلاثة أشخاص مشبوهين محتمَلين: ميتشل، وديفيس، والسيد كلانسي.

للوهلة الأولى لم يَبدُ أي منهم قاتلاً محتمَلاً، ولكني شعرت بالحاجة إلى إجراء مزيد من التحريات.

بعد ذلك اتجهت بتفكيري إلى احتمالات قضية الزنبور، فقد كان ذلك الزنبور يوحي بالكثير.

بدايةً لم ينتبه أحدٌ إلى الزنبور حتى وقت توزيع القهوة تقريباً، وهذا -بحدّ ذاته- كان أمراً غريباً بعضَ الشيء. وهكذا بَنَيتُ نظرية محددة عن الجريمة، فقد قدّم القاتل لنا حلَّين منفصلين للمأساة: حسب الحل الأول والأبسط كان يُفترَض أن مدام جيزيل قد لسعها زنبور فتعرضت لأزمة قلبية. إن نجاح هذا الحل كان يعتمد على قدرة القاتل (أو عدم قدرته) على استرداد الشوكة. وقد اتفقنا، جاب وأنا، على أن استرجاع الشوكة كان ممكناً بكل سهولة ما لم تثر شكوك بارتكاب عمل شرير. وقد كنت على شبه يقين من أن تلوين الحرير الذي يغطّي الشوكة بلون خاص (وُضع بدل اللون القرمزي الأصلي) قد تمّ بشكل مدروس ليحاكي مظهر الزنبور.

وهكذا يكون قاتلنا قد تقدم من مائدة ضحيته وغرز الشوكة وأطلق الزنبور. ولا شك أن السم كان قوياً بحيث يسبّب الوفاة على الفور تقريباً، وحتى لو صرخت جيزيل فربما لم تكن صرختها لتُسمَع بسبب ضجيج الطائرة، ولو انتبه أحدٌ لصرختها لكان في الزنبور الذي يئزّ حولها تفسير لهذه الصرخة، فسوف يبدو الأمر وكأنه قد لسع المرأة المسكينة!

كانت هذه هي الخطة رقم «١» كما قلت. ولكن ماذا لو أن الشوكة اكتُشفت -كما حدث فعلاً- قبل أن يستطيع القاتل استرجاعها؟ عندئذ تكون المشكلات وشيكة، فنظرية الوفاة الطبيعية

ستصبح مستحيلة، وبدلاً من التخلص من الأنبوب عبر النافذة يتم وضعه في مكان لا بد أن يُكتشَف فيه عندما يجري تفتيش الطائرة، وسوف يفترض الجميع فوراً بأن أنبوب النفخ كان أداة الجريمة، وعندما يتم اقتفاء أثر الأنبوب فإن الشكوك ستتركز باتجاه محدد تمّ ترتيبه مسبقاً.

لديّ الآن نظريتي عن الجريمة ولديّ ثلاثة مشبوهين، مع رابع نصف مشبوه هو السيد جان دوبون الذي أكد نظرية الموت من لسعة زنبور، والذي كان يجلس عبر الممر قريباً من جيزيل بحيث يمكنه أن ينتقل من مكانه ولا يلاحظه أحد. ولكنني لم أعتقد حقاً بأنه يجرؤ على مثل هذه المخاطرة.

ركّزت على مشكلة الزنبور. إن كان القاتل قد أحضر الزنبور معه إلى الطائرة (ثم أطلقه في اللحظة السيكولوجية) فلا بد أنه كان يحمل شيئاً من قبيل العلبة الصغيرة لكي يضعه فيها، ومن هنا كان اهتمامي بمحتويات جيوب الركاب وحقائبهم اليدوية. وهنا اعترضني تطور غير متوقَّع على الإطلاق، فقد وجدت ما كنت أبحث عنه، ولكنه كان -كما بدا لي- لدى الشخص الخطأ. كان في جيب السيد نورمان غيل علبة كبريت فارغة. ولكن السيد غيل، بشهادة الجميع، لم يذهب إلى نهاية ممرّ المقصورة قط، بل ذهب فقط إلى المرافق وعاد إلى مقعده. ومع ذلك، ورغم أن الأمر بدا مستحيلاً، فقد كانت هناك طريقة ما يمكن للسيد غيل أن يرتكب بها الجريمة كما أوضحَت محتويات حقيبته اليدوية.

سأل نورمان: حقيبتي اليدوية؟

بدا مستمتعاً وحائراً في الوقت ذاته، وأضاف قائلاً: إنني لا

أكاد أتذكر محتوياتها.

ابتسم له بوارو وأكمل حديثه قائلاً: انتظر دقيقة، سآتي على ذكر ذلك. إنني أقول لكم أفكاري الأولى. إذن فقد كان لديّ أربعة أشخاص كان بوسعهم ارتكاب الجريمة من حيث الإمكانية: المضيفان وكلانسي وغيل.

وبعدها نظرت إلى القضية من الزاوية المقابلة، زاوية الدافع. فإذا ما تصادف الدافع مع الإمكانية أكون قد وقعت على قاتلي المنشود! ولكني لم أستطع العثور على شيء من هذا القبيل مع الأسف، وقد اتهمني صديقي جاب بأنني أحب أن أجعل الأمور السهلة صعبة. على العكس، فقد تناولت مشكلة الدافع هذه بأبسط بساطة في الدنيا.

لمصلحة من سيكون القضاء على مدام جيزيل؟ من الواضح أن هذا سيكون لمصلحة ابنتها المجهولة ما دامت تلك الابنة المجهولة سترث ثروة طائلة. كان هناك أيضاً أشخاص معينون ممن كانوا في قبضة مدام جيزيل... أو لنقل إنهم ربما كانوا في قبضتها، فنحن لا نعرف يقيناً. كان ذلك مسألة مَحْوٍ واستثناء إذن. ومن بين ركاب الطائرة جميعاً لم أكن متأكداً إلاّ من راكب واحد كان متورطاً مع جيزيل بلا شك، وكان ذلك الراكب هو الليدي هوربوري. كان الدافع واضحاً جداً في حالة الليدي هوربوري، فقد زارت جيزيل في بيتها بباريس قبل ليلة من الجريمة. وكان لها صديق، ممثل شاب، ربما استطاع تمثيل دور الأمريكي الذي اشترى أنبوب النفخ بسهولة، وربما استطاع أيضاً رشوة الموظف في شركة الخطوط الجوية الدولية ليضمن سفر جيزيل في رحلة الساعة الثانية عشرة.

وكانت لديّ مشكلة ذاتُ شِقّين (إن صحّ التعبير)، فلم أستطع أن أفهم كيف كان ممكناً للّيدي هوربوري أن ترتكب الجريمة؟ ولم أستطع أن أدرك ما هو الدافع الذي يجعل أياً من المضيفَين أو السيد كلانسي أو السيد غيل يرتكب الجريمة؟

كنت دوماً أفكر في قرارة عقلي بمشكلة ابنة جيزيل ووريثتها المجهولة: هل كان أحد المشبوهين الأربعة هؤلاء متزوجاً؟ وإذا كان كذلك فهل تكون إحدى الزوجات هي هذه الفتاة، آن موريسو؟ إن كان والدها إنكليزياً فربما كانت قد نشأت في إنكلترا. فأما زوجة ميتشل فسرعان ما استبعدتها، فقد كانت من عائلة عريقة من دورسيت. وكان ديفيس يصاحب فتاة ما زال والداها على قيد الحياة، والسيد كلانسي لم يكن متزوجاً. أما السيد غيل فكان واضحاً أنه غارق في حب الآنسة جين غري. ويمكنني القول إنني تحريت عن ماضي الآنسة غري بكل دقة بعد أن علمت منها -خلال حديث عَرَضي- أنها قد نشأت في دار أيتام قرب دبلن، ولكنني سرعان ما اقتنعت بأن الآنسة غري لم تكن ابنة المدام جيزيل.

وضعت جدولاً بالنتائج: المضيفان لم يربحا ولم يخسرا من موت جيزيل، إلاّ أن ميتشل كان يعاني بوضوح من الصدمة. السيد كلانسي كان يخطط لكتاب عن الموضوع يأمل بتحقيق أرباح من خلاله، والسيد غيل كان يخسر زبائنه بسرعة.

لم أجد أي شيء يفيد القضية. ولكني كنت مقتنعاً -في ذلك الوقت- بأن السيد غيل هو القاتل، بسبب علبة الكبريت الفارغة ومحتويات حقيبته اليدوية. ظاهرياً كان يخسر ولا يربح من موت جيزيل، ولكن تلك المظاهر ربما كانت مظاهر كاذبة. فقررت أن

أقوّي علاقتي معه، فأنا أقول -بناء على تجربتي الطويلة في الحياة- إن كل امرئ يرسل نفسَه في الحديث على سجيتها عاجلاً أو آجلاً بحيث تنكشف دخيلة نفسه، ذلك لأن كل واحد من الناس يحمل في نفسه دافعاً داخلياً لا يقاوَم للحديث عن نفسه.

حاولت أن أكسب ثقة السيد غيل وتظاهرت بأنني أثق به، بل إنني جنّدته لمساعدتي، فقد أقنعته بأن يساعدني في الابتزاز الزائف للسيدة هوربوري، وهنا ارتكب غلطته الأولى. كنت قد اقترحت عليه إجراء تنكر بسيط، فجاء ليؤدي دوره بمظهر مضحك وسخيف، كان مظهره كله تهريجاً! وقد كنت على ثقة من أن أحداً لا يلعب دوراً بشكل أسوأ مما كان ينوي أن يقوم به. ما سبب ذلك إذن؟ لأن معرفته بذنبه جعلته حَذِراً في إظهار نفسه ممثلاً جيداً. وعندما عدّلت أنا من مكياجه السخيف ظهرت مهارته الفنية، فقد لعب دوره بشكل تام ولم تستطع الليدي هوربوري تمييزه. وعندها اقتنعتُ بأنه ربما كان قد تنكر في باريس بصورة رجل أمريكي، وأنه استطاع أيضاً أن يلعب الدور الضروري على متن الطائرة بروميثيوس.

بحلول هذا الوقت بدأت أشعر بقلق حقيقي على الآنسة جين. إما أنها كانت معه في هذه القضية أو أنها كانت بريئة تماماً، وفي الحالة الثانية تكون ضحية، فربما استيقظت ذات يوم لتجد نفسها متزوجة بقاتل. وبهدف منع وقوع زواج متهوّر أخذت الآنسة جين معي إلى باريس على أنها سكرتيرتي، وبينما كنا هناك ظهرت الوريثة المفقودة لتطالب بثروتها. وقد سيطرَت عليّ فكرةُ تَشابُهٍ لم أستطع تمييزه. وقد ميزته في النهاية، ولكن بعد فوات الأوان.

في البداية بدا اكتشاف أنها كانت على متن الطائرة وأنها كذبت في هذا الصدد، بدا هذا وكأنه يُطيح بكل نظرياتي، فهي مشبوهة بشكل لا يمكن دحضه. وإذا كانت مذنبة فإن لها شريكاً، الرجل الذي اشترى أنبوب النفخ وقدم الرشوة لموظف الخطوط الجوية. مَن هو ذلك الرجل؟ أكان زوجها؟

بعد ذلك، وفجأة، رأيت الحل الصحيح. كان هو الحلّ الصحيح لو استطعت التأكد من نقطة واحدة، فحتى يكون صحيحاً كان ينبغي على آن موريسو أن لا تكون في الطائرة. اتصلت بالليدي هوربوري وحصلت على الجواب الذي أريده، فوصيفتها مادلين سافرت بالطائرة بسبب نزوة خطرت لسيدتها في آخر لحظة.

توقف بوارو، فقال السيد كلانسي: أخشى أنني لم أفهمك تماماً.

سأل نورمان: ومتى توقفتَ عن اختياري كقاتل؟

اتجهت عينا بوارو إليه وقال: لم أتوقف أبداً. **أنت القاتل**.

انتظر قليلاً ثم قال: سأخبرك بكل شيء. خلال الأسبوع الماضي كنتُ أنا وجاب مشغولَين بالبحث وجمع المعلومات. صحيح أنك صرت طبيب أسنان لتسعد عمك جون غيل كما قلت، ولكنه لم يكن عمك بل كان خالك، فأنت ابن أخته ولست ابن أخيه. وقد أخذت اسم عائلته عندما دخلت في شراكة معه، أما اسم عائلتك الحقيقي فهو ريتشاردز. لقد كنت تتسّمى باسم ريتشاردز عندما التقيت بآن موريسو في نيس في الشتاء الماضي عندما كانت هناك مع سيدتها. كانت القصة التي روتها لنا صحيحة بمقدار تعلق الأمر بحقائق طفولتها، أما الجزء المكمّل فقد ألّفتَه أنت بحرص

شديد. كانت آن موريسو تعرف فعلاً اسم والدتها قبل الزواج، وكانت جيزيل في مونتي كارلو، وقد تمّت الإشارة إليها وذُكِر اسمها الحقيقي، وأدركتَ أنت أنه ربما كانت وراءها ثروة ضخمة يمكن الحصول عليها، فقد راقت الفكرة لطبيعتك المقامرة.

وعرفتَ من آن موريسو بأمر علاقة الليدي هوربوري بجيزيل، وهكذا تشكلت فكرة الجريمة في عقلك، إذ كان على جيزيل أن تُقتَل بطريقة تنصرف فيها الشكوك إلى الليدي هوربوري. وهكذا نضجت خططك ثم بدأت بتنفيذها، فقمت برشوة موظف الخطوط الجوية لتسافر جيزيل في نفس الطائرة مع الليدي هوربوري. لقد أخبرَتك آن موريسو بأنها ستسافر إلى إنكلترا بالقطار فضمنت عدم وجودها على متن الطائرة، فهذا لو تمّ لعرّض خططك لخطر جسيم، لأن الشكوك سوف تنصَبّ على ابنة جيزيل ووريثتها بشكل طبيعي لو عُرِفَ بأنها كانت على متن الطائرة.

كانت فكرتك الأولى بأن تطالب آن موريسو بميراثها وهي مسلّحة بعذر غياب كامل عن مكان الجريمة، فهي ستكون على متن قطار ساعةَ وقوع الجريمة، وبعد ذلك سوف تتزوجها.

كانت الفتاة في ذلك الوقت قد فُتِنت بك تماماً، ولكن المال هو ما كنت تسعى إليه وليس الفتاة نفسها. ثم طرأ تعقيد آخر على خطتك، ففي لوبينيه رأيتَ الآنسة جين غري ووقعت في حبها، فدفعتك عاطفتك تجاهها إلى لعبة أكثر خطورة؛ فقد وطدت العزم على أن تفوز بكلا الأمرين: المال والفتاة التي أحببتها. كنت سترتكب جريمة قتل من أجل المال، ولم تكن مستعداً للتخلي عن ثمار الجريمة. فعمدت إلى تخويف آن موريسو بأنْ أخبرتَها بأن الشكوك

ستنصبّ عليها بالتأكيد باعتبارها القاتلة إن هي تقدمت فوراً للكشف عن هويتها. وبدلاً من ذلك أغريتها بأن تطلب إجازة لبضعة أيام، ذهبتما فيها معاً إلى روتردام حيث عقدتما زواجكما.

في غضون ذلك لقّنتَها كيف تطالب بالثروة. كان عليها أن لا تقول شيئاً عن وظيفتها ولا تشير إلى أنها كانت وصيفة لإحدى السيدات، وكان ينبغي أن توضّح بشكل كامل لا لبس فيه أنها وزوجها كانا في الخارج وقت وقوع الجريمة. ولكنْ، من سوء الحظ أن التاريخ الذي خططتَ فيه لرحلة آن موريسو إلى باريس لتطالب بميراثها قد اتفق مع وصولي إلى باريس ومعي الآنسة غري، وهذا لم يكن مناسباً لخططك على الإطلاق، فربما استطاعت الآنسة جين أو استطعت أنا أن نلاحظ أن آن موريسو لم تكن سوى مادلين التي كانت وصيفة الليدي هوربوري في رحلة الطائرة بروميثيوس.

حاولتَ أن تتصل بها في الوقت المناسب ولكنك فشلت، وأخيراً وصلتَ إلى باريس بنفسك وأدركت أنها قد ذهبت في وقت سابق من وصولك إلى المحامي، ولدى عودتها أخبرَتك عن لقائها معي فبدأت الأمور تتجه اتجاهاً خطيراً، فقررتَ أن تتصرف بسرعة.

كانت نيّتك تقضي بأن لا تعيش زوجتك الجديدة طويلاً بعد حصولها على الثروة، فبعد حفل الزفاف كتبتما فوراً وصيتكما بأن يترك كل منكما كل ما يملك للطرف الآخر. إجراء مؤثر حقاً! وأتخيل أنك نويت أن تتصرف على مهل وبكل تؤدة، كنت ستذهب إلى كندا ظاهرياً بسبب فشلك في المحافظة على زبائنك، وهناك كنت ستستعيد اسم ريتشاردز وتنضم إليك زوجتك لاحقاً. ولكني لا

أتخيل أن وقتاً طويلاً كان سيمرّ قبل أن تموت السيدة ريتشاردز مع الأسف، تاركةً ثروة طائلة لأرمل يبدو جَزِعاً لا أمل له في السُّلوان! وعندئذ كنت ستعود إلى إنكلترا باعتبارك نورمان غيل، غيل الذي حالفه الحظ فقام باستثمارات ناجحة في كندا. كان ذلك مخططك في البداية، أما بعد مقابلتك آن موريسو في فندقها فقد أدركت وقررت بأنه لا ينبغي إضاعة أي وقت.

سكت بوارو فيما أسند نورمان غيل رأسه إلى الخلف وضحك قائلاً: إنك ذكي جداً في معرفة ما ينوي الناس فعله... يا ليتك تمتهن مهنة السيد كلانسي!

ثم تعمقت نبرته لتصبح نبرة غضب وهو يقول: أنا لم أسمع قط بمثل هذا الخليط من الهراء. إن ما تتخيله يصعب اعتباره دليلاً يا سيد بوارو.

لم يَبدُ على بوارو أي استفزاز، بل قال: ربما لا يكون دليلاً، ولكن لديّ بعض الأدلة مع ذلك.

نورمان: حقاً؟ ربما كان لديك دليل يوضح كيف قتلتُ جيزيل العجوز في حين يعرف كل مَن في الطائرة تمام المعرفة بأنني لم أقترب منها على الإطلاق؟

- سأخبرك بكل دقة كيف ارتكبت الجريمة. ماذا بشأن محتويات حقيبتك اليدوية؟ لقد كنت في إجازة، فلماذا تأخذ معك معطف الطبيب الكتاني الأبيض؟ هذا هو السؤال الذي وجهته لنفسي. والجواب هو التالي: لأنه يشبه تماماً معطف مضيف الطائرة.

لقد فعلتَ ما يلي: عندما تمّ توزيع القهوة وذهب المضيفان

إلى المقصورة الأخرى ذهبت أنت إلى المرافق وارتديت معطفك الأبيض، وتنكرت بأن دهنت وجنتيك مستخدماً لفائف القطن، ثم خرجت لتأخذ ملعقة قهوة من صندوق المطبخ الملاصق للمرافق وأسرعت في عبور الممر بنفس سرعة المضيف والملعقةُ في يدك متجهاً إلى طاولة جيزيل. وبسرعة غرزت الشوكة في عنقها وفتحت علبة الثقاب تاركاً الزُّنبور يخرج منها، ثم عدت سريعاً إلى المرافق فنزعت معطفك وخرجت متمهّلاً لتعود إلى مقعدك. لم يستغرق الأمر كله سوى دقيقتين. لا أحد يصرف انتباهه إلى المضيف بشكل خاص. الشخص الوحيد الذي كان بوسعه أن يتعرف إليك هو الآنسة جين، ولكنكم تعرفون النساء! ما إن تُترك المرأة وحدها (ولا سيما إذا كانت تسافر مع شاب جذاب) حتى تغتنم الفرصة لتلقي نظرة مطوَّلة على نفسها في مرآتها اليدوية وتضع على وجهها المساحيق.

نورمان: إنها نظرية مثيرة جداً، ولكنها لم تحدث. هل من شيء آخر؟

- نعم، كثير كثير. كما قلتُ قبل قليل، ففي أثناء الحديث تبدر من الإنسان هفوات تظهر حقيقته. لقد كنتَ من الوقاحة وعدم المبالاة بحيث أشرت إلى أنك قد أمضيت بعض الوقت في مزرعة في جنوب أفريقيا، ولكنّ ما لم تقله (والذي اكتشفناه لاحقاً) هو أن المزرعة كانت مزرعة ثعابين!

أظهر نورمان غيل الخوف لأول مرة، وحاول أن يتكلم ولكن الكلمات لم تطاوعه.

استمر بوارو قائلاً: كنتَ هناك باسمك الحقيقي، ريتشاردز، وقد تمّ التعرف إلى صورة لك أرسلت برقياً إلى هناك، كما تمّ

التعرف إلى نفس الصورة في روتردام حيث أكدوا أنها صورة الرجل ريتشاردز الذي تزوج آن موريسو.

حاول نورمان غيل أن يتكلم مرة أخرى، ولكنه فشل أيضاً. بدا أن شخصيته كلها قد تغيرت، فقد استحال الشاب الوسيم القوي مخلوقاً يشبه الفأر ذا عينين مختلستين تبحثان عن منفذ للهروب فلا تجدانه.

- إنها العجلة التي دمرت خططك. وقد زادت رئيسة معهد ماري من تسارع الأمور بإبراقها إلى آن موريسو، إذ كان تجاهل تلك البرقية أمراً يثير الشبهات. ولعلك أكدتَ على زوجتك بأنها إن لم تُخْفِ بعض الحقائق فإن أحدكما قد يصبح في موضع شك في الجريمة، فأنتما كلاكما كنتما على متن الطائرة عندما قُتلت جيزيل. وعندما قابلتها لاحقاً وعلمت منها بأنني كنت حاضراً في المقابلة قمت باستعجال الأمور، فقد كنت خائفاً من أن أنتزع الحقيقة من آن... وربما كانت هي نفسها قد بدأت تشك فيك، ولذلك أخرجتها بسرعة من الفندق لتستقل القطار، وهناك جرّعتها حامض البروسيك وتركتَ الزجاجة في يدها.

نورمان: إنها كومة من الأكاذيب الرخيصة!

- آه، لا؛ لقد وجدنا كدمة على عنقها.

- قلتُ إنه كذب لعين.

- حتى إنك تركت بصماتك على الزجاجة.

صاح نورمان بانفعال: كذب، لقد ارتديت...

قال بوارو بانتصار: آه، ارتديتَ قفازاً؟ أعتقد -أيها السيد- بأن هذا الاعتراف الصغير قد أنهى المسألة.

- أيها الأحمق الضئيل اللعين!

قفز غيل على بوارو وقد شَحَب لونه وأصبح وجهه غريباً لا يمكن التعرف إليه، ولكن جاب كان أسرع منه فأمسكه بقبضة قوية لا رحمة فيها وهو يقول: جيمس ريتشاردز المعروف بنورمان غيل، لديّ إذن بالقبض عليك بتهمة القتل العمد، وعليّ أن أحذّرك بأن أي كلمة تقولها ستسجل وتتخذ دليلاً ضدك.

هزّت الرجلَ رجفةٌ رهيبة وبدا على شفا الانهيار.

* * *

كان اثنان من رجال الشرطة ينتظران في الخارج، فساقا نورمان غيل. وبقي السيد كلانسي وحيداً مع بوارو فتنهّد بنشوة عميقة وقال: سيد بوارو، لقد كانت هذه التجرِبة أكثر التجارِب إثارة في حياتي على الإطلاق. لقد كنتَ رائعاً.

ابتسم بوارو بتواضع وقال: لا، لا، إن جاب يستحق من الثناء بقدر ما أستحق أنا، فقد فعل الأعاجيب ليثبت أن غيل هو ريتشاردز نفسه. كانت هيئة الشرطة الكندية تبحث عن ريتشاردز، فقد كان الاعتقاد السائد أنّ فتاة كانت على علاقة به هناك قد انتحرت، ولكن ظهرت حقائق تشير إلى أنها قد قُتلت قتلاً.

كلانسي: فظيع!

- إنه قاتل. وهو جذّاب بنظر النساء مثل كثير من القتلة.

- يا لتلك الفتاة المسكينة، جين غري!

هزّ بوارو رأسه بحزن وقال: نعم، كما قلتُ لها من قبل: إن الحياة تكون فظيعة أحياناً. ولكن لديها الشجاعة، وستنهض من جديد.

قام وهو شارد الذهب بترتيب مجموعة من الأوراق والصور التي بعثرها نورمان غيل بسبب قفزته الهائجة، وهناك جذب انتباهه أمر ما، صورة لفينيشيا كير في اجتماع يخص سباق الخيل وهي تتحدث مع اللورد هوربوري وصديق آخر.

أعطى الصورة لكلانسي وقال: هل ترى هذا؟ في غضون عام من الآن ستقرأ إعلاناً يقول: «تمّ الترتيب لزواج يعقد قريباً بين اللورد هوربوري والليدي فينيشيا كير». وهل تعرف مَن هو الذي سيرتب لذلك الزواج؟ إنه هيركيول بوارو! وثمة زواج آخر قد رتبته أيضاً.

كلانسي: زواج الليدي هوربوري والسيد باراكلاف؟

- آه، لا؛ فليس لديّ اهتمام بتلك القضية.

ثم تقدم إلى الأمام وقال: لا، كنت أشير إلى زواج بين السيد جان دوبون والآنسة جين غري، وسترى.

* * *

بعد شهر جاءت جين إلى بوارو وقالت له: عليّ أن أكرهك يا سيد بوارو.

بدت شاحبة وهزيلة وحول عينيها دوائر قاتمة، فقال لها بوارو بلطف: اكرهيني قليلاً إن أردت، ولكنني أعتقد أنك واحدة من

اللائي يفضّلنَ مواجهة الحقيقة على العيش في فردوس للمغفلين، وربما لم تكوني لتعيشي فيه طويلاً أيضاً، فالتخلص من النساء رذيلة تنمو وتتسع.

- لقد كان وسيماً جداً. لن أحب مرة أخرى أبداً!

- هذا شعور طبيعي.

هزّت جين رأسها وقالت: ولكن عليّ أن أجد عملاً، عملاً ممتعاً أغرق فيه وأنسى نفسي.

أمالَ بوارو كرسيه إلى الخلف ونظر إلى السقف قائلاً: أنصحك بالذهاب إلى إيران مع السيدين دوبون. إنه عمل ممتع إن أحببت.

- ولكن... ولكني ظننت أن ذلك كان محض تعريض من جانبك.

هزّ بوارو رأسه بالنفي وقال: على العكس؛ لقد أصبحتُ مهتماً جداً بعلم الآثار وخزف ما قبل التاريخ فأرسلت شيكاً بالتبرع الذي وعدتُ به، وقد سمعت صباح اليوم بأنهما يتوقعان انضمامك إلى البعثة. هل تستطيعين الرسم؟

- نعم، كنت جيدة في الرسم في المدرسة.

- ممتاز. أظن أنك ستستمتعين بهذا الصيف.

- هل يرغبان في ذهابي فعلاً؟

- إنهما يعوّلان عليك وعلى حضورك.

- سيكون هذا رائعاً، أن أسافر بعيداً...

وتورّد وجهها قليلاً، ثم نظرت إلى بوارو بارتياب وقالت: سيد بوارو، إنك لم... أنت لم تفعل ذلك من أجل، لمجرد خاطري... أي لطفاً منك؟

- لطفاً مني؟ أؤكد لك يا آنستي بأنني أكون رجلاً عملياً جداً عندما يتعلق الأمر بالمال.

وبدا منزعجاً من قولها حتى جعلها تسارع إلى الاعتذار منه. ثم قالت: ينبغي أن أذهب إلى بعض المتاحف وأرى بعض خزفيات ما قبل التاريخ.

- إنها فكرة رائعة.

توقفت جين قليلاً أمام باب المنزل ثم عادت لتقول: ربما لم تكن لطيفاً في هذا الأمر بالذات، ولكنك كنت لطيفاً دائماً.

ثم أسقطت قبلة على قمة رأسه وغادرت البيت.

* * *

-تمت-



مَوتٌ وَسْطَ الغُيُوم

كان بوارو جالساً في المقعد رقم ١٩ في الطائرة التي أقلعت لتوّها من «لو بينيه»، ومن مقعده ذاك كان قادراً على مراقبة ركاب الطائرة الآخرين.

راح بوارو ينقّل بصره من مقعد إلى آخر ويكوّن انطباعاته عن الركاب، وبدا أنه قد لاحظ الجميع بشكل عميق كالعادة.

لكن الذي لم يلاحظه بوارو كان الراكب الذي جلس على المقعد رقم ٢، خلفه؛ فعلى هذا المقعد استرخى الجسد الميت للمرأة القتيلة!



هيركيول بوارو

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!






٢٤

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

ISBN 2-1957-2717-0

